www.ibtesama.com

نسخة معالجة ومخفضة

الصافي سعيد

حدائق الله

رواية

RIAD EL-RAYYES BOOKS

المعالجة وتخفيض الحجم
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

الصافي سعيد

حدائق الله

رواية



THE GARDENS OF GOD

A Novel by:

AS-Safi Saïd

First Published in January 2002
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT - LEBANON
info@elrayyesbooks.com . www.elrayesbooks.com

ISBN 9953 21 076 4

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted
in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying,
recording or otherwise, without prior permission
in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢

١

كما لو أنني قرّرت عقاب نفسي المضطربة، فقد ظللت جالساً يوماً كاملاً، أكثر من عشر ساعات متعاقبة على كرسيّ خشبيّ وأنا مشدود إلى جهاز الكومبيوتر على نحو من الوله الشيطاني. كرّرت ذلك عدة أيام. ومع التجربة بدا لي أن ذلك الوقت الطويل كان عبارة عن نزهة قصيرة في حديقة كبيرة جداً. كان جهازي من نوع «أتش. بي» الأميركي الصنع. وهو من فئة «البانتيوم ٣». ذاكرته ذات قدرة عجيبة على الاختزان، أما سرعة الاستجابة فكانت تناسب قلقي، وقد اخترت أن تكون شاشته كبيرة بحجم تلفزيون ٢١ بوصة.

وها أنني لم أعد مجرّد لاعب هاوٍ، بل أصبحت محترفاً مخيفاً حسب ما قالت لي صديقتي كارولين في ذلك الوقت، والتي أضافت تقول بمرارة: «أن يتقن المرء عالم المعلوماتية لا يعني أن يصبح عبداً لها. إني أخاف عليك من الإدمان». كنت أسأل نفسي باستمرار ما إذا أصبحت فعلاً عبداً لتلك الآلة العجيبة، ولكن من أجل أن أظلّ مستمتعاً بالتجوال من

نافذة إلى نافذة، فقد أدمنت المكوث في البيت. كنت شبه مجبر على البقاء لوحدي. كانت العزلة عارمة تملأني وتمنعني من النهوض من فوق الكرسي. فيما كانت الشاشة الزرقاء، الفسيحة، المتماوجة تشعرني وكأني أنتقل بين السماوات العالية.

وذات يوم شعرت فيه بالتفوّق على نفسي، قلت: لا بد للمعلوماتي القابع في عزلته أمام شاشة حاسبته الذكية من أن يشارك لاعبين آخرين. وبما أنني لم أكن أملك رفاقاً بارعين أو حتى مهيئين لعالم المعلوماتية، فقد اخترت الدخول إلى «الإنترنت» بحثاً عن رفيق ماهر يعزف معي جزءاً من اللحن الذي كان يتناغم حولي ولكن على نحو أبكم.

ضغطت على عدة أزرار وأعطيت لنفسي اسم «بارادايز» ثم كتبت: «مطلوب لاعب أو لاعبة». ثم أضفت: «لاعب أو لاعبة يجعلني أو تجعلني أكثر خفة وانطلاقاً». بعد لحظات جاءتني عشرات الأسئلة الصغيرة: من أي عمر أنت؟ لاعب ماذا؟ ماذا تعني أكثر خفة وانطلاقاً؟ من أنت؟ هل أنت رجل معاق؟ هل أنت موسيقي أم بائع بيتزا؟ ما هي لعبتك المفضلة؟ هل أنت صياد أم لاعب بيسبول أو لاعب شطرنج؟ أم أنك سائح تريد أن تسافر، أن تتجول في بعض مدن العالم؟

تجمّع أمام عيني أكثر من لاعب. كان من بينهم طبّاخ وصياد وطالب وسائق تراموای خفيف وأستاذ فلسفة وصحافية. اخترت الصحافية دون تفكير. لقد وجدتها خفيفة الروح لأنها سألتني بسرعة عن عمري، بعد ذلك أفصحت لي عن اسمها. قالت إنها تدعى إيزابيل وإنها كانت تعمل في محطة تلفزيونية أوروبية وهي الآن تعمل في صحيفة يومية كمراسلة متجوّلة، وإنها مولعة بمعرفة الرجال الغامضين. قلت لها إنني أتخيّلها

جميلة وفاتنة لأنها صريحة جداً، وربما ثرثارة أو على أقل تقدير فصيحة، وإنني شاب لم أتجاوز الخامسة والعشرين إلا بقليل، وإن خبرتي بالنساء ما زالت متواضعة بل وتافهة (لقد أخفيت عنها عمري الحقيقي، فأنا قد بلغت نحو ٣٠ عاماً).

سحبتني إيزابيل إلى رحلة في شوارع باريس بعدما جهّزت كأساً من «الجين» الممزوج بالليمون و«شويبز» الأناناس ثم استرخت على مقعدها الجلد فيما كانت الشاشة التي أمامي تتداخل مع شاشتها الصغيرة التي وضعتها فوق ركبتيها. قالت لي: «أريد أن آخذك إلى شارع «مونمارتر» المليء بالفنانين والمثقفين والرسامين». بدأت الصور تقترب وتتزاحم كما لو كنت فعلاً سائحاً. سائحاً أميركياً يبحث عن حانات الجعة المكتظة بسراويل «الدجينز» والفتيات اللعوبات. هناك تناهى إلى سمعي ضجة شبيهة بضجة محركات السفينة، وسمعت إيزابيل تقول: «استعد لنذهب الآن معاً إلى هونغ كونغ. لا شك أنك تحب الشرق الأقصى». هكذا انتقلت بضربة زرّ من «مونمارتر» في باريس إلى ميناء مرسيليا للانطلاق إلى هونغ كونغ. كان الإيهام أكثر من رائع، وقد تملّكني إلى حدود الاستسلام. أصبحت في قبضة إيزابيل وهي تحرّك الأزرار على نحو متقن وسريع. صعدنا إلى السفينة لكن إيزابيل تردّدت بعدما أدركت أنني لن أستمتع برؤية الشاطىء المتوسطي. حرّكت زرّاً آخر فأتاحت لي مشاهدة ساحل مرسيليا الجميل والمتوهّج بالأضواء وأفواج العشاق. قالت إنها ضغطت على زرّ الصيف لتجعل الرحلة أكثر متعة وصفاء. كانت إيزابيل أكثر من ماهرة في تحريك الأزرار وإحضار الأجواء المنعشة. قلت في نفسي «لا بد أنها صاحبة تجربة عميقة في إدارة الرجال». ثم أحسست

فجأة أنها أغرقتني معها في نشوة لم أعرفها من قبل حين حدّثتني عن الموسيقى. وعرضت عليّ بعض المعزوفات الكلاسيكية لـ «ريتشارد شتراوس» و«موزارت» و«تشايكوفسكي» ثم نقلتني فجأة إلى الخمسينيات لتسمعني قطعة موسيقية ألّفها الموسيقار الأميركي «صمويل بابر» وقالت: «إنها موسيقى الناسك. وإن نصّ قصائدها نقشه رهبان من العصور الوسطى. وهي ألحان تبرز مدى عمق المشاعر المبهمة». بعد ذلك أسمعتني قطعة للموسيقار «جياكامو بوتشيني» ثم قالت لي: «إنه واحد من ستة مؤلفين موسيقيين كبار ظهروا في بداية القرن تمحورت أعمالهم حول نقطة ارتكاز القرن الجديد».

وسألتها: «وماذا تعني نقطة ارتكاز القرن الجديد؟ أو بالأحرى أين توجد هذه النقطة الارتكازية؟».

لم تهرب إيزابيل من السؤال، لكنها التفتت إليّ وهي تمسك بأحد صواري السفينة لتقول لي بغموض: «نقطة ارتكاز القرن هي تلك الرجفة التي نشعر بها حين تمتلىء عروقنا بالنبيذ المعتق».

أردت أن أقول لها إن إجابتها تدلّ على أنها فرنسية، ولكنها قاطعتني قائلة:

«نحن الآن في عصر الجرذان. إننا في سباق مع الجرذان لا ينتهي».

فهمت قليلاً مما تقصد، شعرت أنها أحالتني من غموض على غموض آخر. لكنها أوضحت بعد قليل:

«الجرذان كما تعرف هم التجار، هم المدخرون، هم الجمّاعون بحسب دورة الفيلسوف البنغالي «ساركار» التي اشتهرت أخيراً عندكم بأميركا».

أما أنا فقد أحالني سباق الجرذان بسرعة على مجرة الكومبيوتر الذي ما زلت أقبض عليه وألاعبه يميناً وشمالاً للحصول على إجابات أكثر رحابة من إيزابيل.

لم تكن إيزابيل بخيلة. فلقد ناولتني كأساً من الويسكي الأزرق حين أصبحنا في هونغ كونغ. وقالت لي: «إنه شراب الملوك». كان الجرذ طيّعاً بين يديها. وقد لبّى لها كل رغباتها، فأوقفتني معها على جسر عالٍ جداً يقطع قناة الميناء في هونغ كونغ. وبعد قليل أشارت لي بأن أنظر إلى تحت الجسر حيث لمحت سلحفاة تسكن في زاوية التقاء الأعمدة الحديد. قالت عنها إنها مسكينة. ثم استدركت قائلة: «لربما هي الشاهد الوحيد على كل الذين مرّوا من فوق هذا الجسر منذ أن بناه الإنكليز في بداية القرن».

بعد ذلك، أخذتني إيزابيل في جولة إلى سوبرماركت لبيع الحواسيب. رأيت هناك كيف أن العالم قد تحوّل إلى غابة يتقاتل فيها الذكاء البشري مع الذكاء الآلي. أبديت استعداداً كبيراً لسماع شروحات إيزابيل، ولكن في بعض الأحيان كانت تبدو لي أقلّ مهارة مني. قلت لها: إن العالم أصبح مجرة حواسيب إلكترونية لا تعرف النهايات، لكن عليها أن تتآلف بدل أن تبدي العزوف والمعاندة.

وسألتها كمن يختبر ذكاءها: ما الفرق بين آلات الأمس وآلات الغد؟ فإذا بها تجعلني مهتماً بإجابتها على نحو غير عادي. قالت:

- إن آلة الأمس تتقدّم نحو الغد بحجمها. إن كبير الأمس هو صغير الغد. ولكن بقوة لا تضاهى. وأضافت: «كان ماركس يعتقد أن مصانع النسيج ستتضخم في المستقبل حين يرتفع

الإنتاج ويزداد العمال، بينما الواقع أثبت أن آلات النسيج قد تصاغرت كثيراً فيما ارتفع الإنتاج إلى حدّ فاق فيه إنتاج زمن «ماركس» بنحو ألف مرة».

وقفنا أمام حاسبة من نوع «آي.بي.أم» تأملنا حجمها الصغير جداً. اقتربنا منها ونحن في غاية الانشراح. وبحركة خفيفة حرّكت إيزابيل الجرذ ثم ضغطت على ثلاثة أزرار. فعرفنا أنها قادرة حتى على تحقيق معادلات الصهر النووي. قلت لـ إيزابيل:

- ألا تعتقدين أن هذه الحاسبة خطيرة لو أنها وقعت بين من يوصفون «بالإرهابيين»، فأجابتني بلطف:
- ولكن لا تنس أننا سنصبح ذات يوم كلّنا إرهابيين.

هزّتني تلك الكلمة، لكنها لم ترعبني. جعلتني أشعر بالقوة، لكنها لم تحملني بعد إلى عالم الإرهاب. كنت آنذاك لا أزال طيباً وساذجاً، بل قُل مدجّناً. غير أني ومنذ تلك اللحظة أصبحت أفكر في الحدود الأخرى للعبة التجوال عبر نوافذ العالم بحثاً عن نقطة ارتكاز هذا القرن المأهول والفظيع ونحن نودّعه بخجل الذين لم يعرفوا غير العار في حياتهم!!

سألت إيزابيل: إلى أين سيقودنا كل هذا الذكاء الاصطناعي؟

فقالت: «ربما إلى التلاشي».

قلت لها: «وهل أنت متشائمة إلى هذا الحد؟».

هزّت كتفيها مبدية بعض التقزز من سؤالي، ثم قالت: ماذا يعني أن يكون المرء متشائماً. ألسنا كائنات متذمّرة ومضطربة، ولكننا نقبل في النهاية بأقدارنا كما تقبل القطط الجائعة بكل ما يقدم لها في آخر الليل؟ نحن مشغولون بالمستقبل، ولكننا نعيش هذا المستقبل منذ زمن طويل.

ألسنا الآن في هونغ كونغ نضحك على منجزات الأمس كم كانت غليظة وخشنة وضخمة وحتى بطيئة؟ ولكن يجب أن تعرف أننا سنهزأ ذات يوم من منجزات اليوم. غداً ربما نتحول إلى ذرّات، إلى بكتيريا اصطناعية، إلى أشعة ما فوق الزمن. لقد اخترع الإنسان من ظلام الأزمنة طاقة جعلته يتحكم في جزء من مصيره. والآن عليه أن يخترع أداة اختراق لتحقيق جميع رغباته.

توقفت إيزابيل قليلاً عن الحديث فسألتها:

ـ ماذا يعني لك تعبير «تحقيق جميع رغبات الإنسان؟».

أجابتني إيزابيل بهدوء بعدما لاحظت أن أسئلتي تشبه أسئلة طفل صغير، تبدو سهلة لكنها صعبة:

ـ إنني لا أعرف حتى رغباتي الخاصة. كل ما أعرفه أن الحاسبة الإلكترونية ستظل لزمن طويل متخلّفة عن مبدعها. ثمة رغبات حقّقها الإنسان بنفسه. وثمة رغبات أخرى حققها له العقل الإلكتروني. في الماضي لم نكن نعتقد أنه من الممكن صناعة بعض الفيروسات. الآن أصبح ذلك في علم الكيمياء أمراً بسيطاً. كذلك من الممكن الآن تحقيق تركيب الفكر أو الحب اصطناعياً.

أضافت إيزابيل تقول: إن التعقيد المتزايد في الاختراعات الصناعية قد يؤدي إلى قفزات نوعية لطبيعة الأشياء. وهذه الفرضية كانت ذات هشاشة في السابق. أما الآن فهي تكاد أن تصبح واعية بذاتها. وهي خطوة نحو تحقيق رغبات مبهمة وغامضة.

أوشكت رحلتي مع إيزابيل في شوارع هونغ كونغ على النهاية. وحين

غادرنا المطعم الذي تناولنا فيه أكلة أميركية خفيفة ذات مذاق آسيوي، قالت لي: «من الأفضل أن نعود إلى حيث كنّا. لقد تركت زوجي يتهيأ لرحلة داخل غابات كينيا».

لم تسألني إيزابيل عن اسمي طوال تلك الرحلة. ولكن عندما شاهدتها تمدّ يديها لتسدل الستار بيني وبينها، قلت لها بكثير من الاحتشام: «اسمي «دوغ» أو «دوغلاس». أنا شاب أميركي، ربما كنت من أصل إسباني. الوداع. سوف نلتقي في مكان آخر».

* * *

عدت من رحلة هونغ كونغ منشرحاً ولكن الجوع كان يمزّق أمعائي. فالأكل اللذيذ الذي أكلته مع إيزابيل في مطعم بمدينة هونغ كونغ كان أكلاً افتراضياً ولا شيء آخر. وأذكر أنني استمتعت بكأس الويسكي الأزرق، ولكني نسيت طعمه الآن.

عليّ الآن أن أتناول قليلاً من الأكل ثم أعود إلى السباحة في فضاءات الشاشة الزرقاء. دخلت إلى المطبخ الذي يقع بالقرب من غرفتي فلم أجد غير كعكات قديمة وجافة. وفتحت الثلاجة، فعثرت على بعض الأجبان القديمة. لم أجد أي قطعة خبز فكان عليّ أن أقلي بيضتين بسرعة. ثم أحضرت فنجان شاي برائحة الليمون. وهكذا كان يكفي للتحايل على الجوع الذي تملّكني. كان الوقت ليلاً. أما شقتي فكانت على نحو من الفوضى الذي لا يوصف. لقد ذهبت صديقتي كارولين إلى أمها لقضاء أعياد الفصح معها في «لويزيانا» قرب «المسيسيبي» الخالد. كنت فيما مضى ناشطاً ومتعاوناً مع كارولين في قضاء حاجيات البيت، ولكن جهاز الكومبيوتر قد جعل مني رجلاً كسولاً جداً، أو بالأحرى رجلاً يختبىء

كل طاقته لعوالم أخرى، مما يعني أني أصبحت رجلاً افتراضياً.

دراسة الطب لم تكن تستهويني إذ وجدتها مملّة وجافة. وانتقالي إلى كلية الفنون الجميلة كان لإرضاء والدتي فقط. زملائي بدوا لي جامدين وبليدين وليست لديهم أي ذرّة من الفنون أو الإبداع. أصبحت موزّعاً بين مسافات متفرّقة عبر عوالم متداخلة من الفضاءات والدول واللغات والديانات والمناطق والأصدقاء. حتى كارولين لم أفتقدها هذه المرة، بل طالما تمنيت لو تتأخر عند أمها أكثر ما يمكن. وجودها في ولاية «لويزيانا» ووجودي في فلوريدا في هذا الوقت قد يعطيني الانطباع بأني متحرّر من كثافتها، ولكن بما أنني أصبحت مشدوداً إلى حدّ الهوس بالعوالم الافتراضية، فقد شعرت في كثير من الأحيان بأنها تلفّني بذراعيها، وأنها قريبة مني إلى حدّ خنق أنفاسي. الآن بفضل الاتصالات المعلوماتية الحديثة أصبح بالإمكان إلغاء المسافة وتمزيق الغشاء المكاني ومسح كل النقاط الفاصلة ودمج الأجسام المتحركة وغير المتحركة. لا يهمّ من حيث المبدأ النقطة التي أقف فيها أنا. فهي نفسها التي تقف فيها كارولين الآن. فقد لا تكون جائعة مثلي، ولكن من المحتمل أن تكون قلقة مثلي.

ها أنني أعود ـ افتراضياً ـ إلى كارولين كما رأيتها في اليوم الأول منذ سنتين. سألغي كل المناطق البيضاء التي انتشرت على شاشة الذاكرة. ولأن الذاكرة تستريح حين يصبح الزمن متواصلاً بشكل متعاقب، فمن الممكن أن أتخيل أن لقاءنا كان خدعة من أجل أن نعيد إنتاج ما يحدث عادة بين رجل وامرأة. لا أفكر في الزواج ولا في الحب ولكنني أفكر بالتحديد في التوالد، أو في علّة ما لحدوث سلسلة من الآثار التي تدلّ على دمج الوقت أو الزمن. إن كل الأشياء المهمة وغير المهمة تحدث على

محور زمني واحد، وهذا ما يجعلنا نسبح في نهر واحد أكثر من مرة!!
لم تعد تكاليف التغلّب على المكان والزمان مرتفعة كما كانت في السابق. فالتركيبة الأساسية للأشياء قد انهارت كلياً. ولم يعد من الممكن أو من الضروري أن نتذكر كيف كنا أو كيف التقينا، بل صار علينا أن نفكر كيف سنلتقي وأين سنلتقي في المرات العديدة التي لا تزال فرضيات رحمية.

لا شك أن كارولين الآن تهمس في أذن أمها بأنها قلقة على دوغ وتسألها أمها ما إذا كان مريضاً أو مفلساً، فتجيبها بأنه «كسول. إنه لا يستطيع أن يقلي بيضة واحدة إذا كان يعيش لوحده».

وتعود الأم فتسألها:

- ولماذا لم يأتِ معك إلى هنا..؟

تجيب كارولين: رجوته طويلاً أن يصحبني، لكنه قال إنه مهموم بالتجول عبر نوافذ الكومبيوتر وإنه يحتاج إلى قليل من العزلة.

- أتراه قد انضم إلى نادي القراصنة الجدد؟ سألت الأم بشيء من الشغف. لكن كارولين لا تردّ على أسئلة لا تفهم محتواها. وأعادت الأم بإصرار سؤالها ثم شرحته كالتالي: إن كثيراً من شباب اليوم قد أصبحوا مولعين بالقرصنة على طريق الدخول إلى نهايات الآخرين في الحاسبات الإلكترونية. فهل يكون دوغ أصبح مولعاً بهذه اللعبة الخطيرة كغيره من الأولاد المندسّين في قلوب الحاسبات النابضة؟.

قال دوغ لنفسه: لو كنت أمام أم كارولين لرويت لها كيف زرت قبل حين هونغ كونغ مع الصحافية الفرنسية إيزابيل. ستغضب كارولين ثم

تعود إلى رشدها فلا تصدقني وتتهمني بالجنون، ولكن إذا دخلت معي في ما أسميه بسباق الجرذان، فإنها لن تبقى خلف الباب أبداً. وبما أن كارولين تجهل حدود المدى والإمكانيات للكومبيوتر، فإنها ستعمل في أعماقها لتحديد ما لا يستطيع فعله الكومبيوتر. وهذا ما يمكن أن أسميه (الاعتقاد) الثقيل والمعاكس.

انتصف الليل ولم ينم دوغ. كان منتشياً إلى أبعد الحدود. لقد اكتشف طريق الانفلات إلى ما يمكن أن يسمّيه بالمابعد أو العتبة الأخيرة. أصبح الكومبيوتر هو الحياة. وقال: إذا كان الإنسان قد استمر في الحياة، فلا يعني أن ذلك قد يتم بفضل الإيمان بالحياة فقط. إن المعارك الضارية مع الحياة هي التي جعلته يستمر. وكذلك عليه أن يستعد لمعارك أخرى في حياة افتراضية أخرى. أوَلَم تنتظر البشرية كل هذا الوقت لتحقيق بعض المعجزات؟!

٢

حين عادت «إيزابيل جيد» من رحلتها مع دوغ، وجدت زوجها مارسيل لا يزال في كينيا. كان غارقاً في مقعده الوثير وهو يستمتع برحلة صيد في البارك (المنتزه) الوطني بكينيا. كانت سيارة الجيب الأميركية الضخمة تنهب الطريق الرملية المتعرجة وهو يتوغل تارة إلى اليمين وأخرى إلى الشمال. كان حذراً من الوحوش التي تقفز أمام السيارة، بينما كانت الغابة تزداد كثافة كلما تقدّم إلى الأمام. زاد من سرعة السيارة حين انفتحت أمامه طريق فسيحة وعليها إشارات تطمئن السائق بأن لا خطر في هذه المنطقة. فجأة شاهد أسداً ضخماً كان واقفاً تحت شجرة ضخمة. وبحركة من مقوده ابتعد عنه ليجد أمامه مجموعة أخرى من الأسود. أراد أن يتراجع إلى الخلف فظن أن علامة «لا خطر» قد تكون خاطئة، غير أنه استمر في اختراق الطريق بأقصى سرعة للجيب. ثم ما لبث أن خفف من السرعة، فتناول رفيقه آلان البندقية وصوّب نحو النمر الواقف إلى جانب كومة من الحشائش ثم أطلق النار. وبسرعة ظهرت مجموعة من النمور الصغيرة.

استعد آلان لطلقة أخرى، فأصاب في الحين نمراً صغيراً ما لبث أن انهار بسرعة. ورأى مارسيل الدم ينفجر، لكنه استمر يطوي الأرض. وقبل أن يصل إلى مسافة الكيلومترين عاد إلى الخلف بحركة خفيفة. واستعد آلان مرة ثالثة لإطلاق النار، فعاجل نمراً آخر لكنه لم يسقط بل ظلّ يترنّح، ثم عاد فنهض وركض بأقصى سرعة باتجاه السيارة. كاد مارسيل (السائق) أن يفقد سيطرته على المقود، لكنه استطاع أن يتجاوز الخطر. فالنمر الجريح إذا لم يسقط يصبح أكثر خطورة وعدوانية. لكنه لم يتمكّن من اللحاق بسيارة الجيب التي استفادت من الطريق العريضة.

كانت تلك الرحلة تبدو أكثر إثارة لإيزابيل. فلو أنها تمكّنت من إقناع دوغ في هونغ كونغ بالركض وراء السلحفاة التي شاهداها معاً وهي تتعلق بإحدى زوايا الجسر المعلّق، فإنها كانت ستعرف مدى قدرة الطيارين الأميركيين على استيعاب مختلف الأوضاع أثناء المعارك في حرب الخليج.

أصبحت إيزابيل صحافية، مراسلة حربية، عن طريق المصادفة كما التحدي. فهي كانت تكتب في الموضة والفنون بعد مغادرتها لمحطة التلفزيون. وكانت تكتب برشاقة في ما يتعلق بموضوعات الأزياء وفنون الريجيم. وقد بنت ثقة كبيرة لدى قرائها، حتى أنها حين انتقلت لتعمل في حقل آخر، انخفضت مبيعات الصحيفة التي كانت تعمل فيها. وسخر منها بعض الزملاء إذ رأوا فيها امرأة ناعمة لا تصلح للذهاب إلى الجبهات. ولكن حين ذهبت لأول مرة للاطلاع على آثار معركة جزيرة (الفاو) بالعراق، أثارت إعجاب رئيس تحريرها. وهكذا حين لاحت الحرب من جديد في الخليج أصرّت على الذهاب لتغطية تلك الحرب

انطلاقاً من الجبهات المتقدمة والقواعد العسكرية المتحركة.

المصادفة التي ساعدت إيزابيل على أن تكون مراسلة حربية ربما بدأت مع علاقتها بزوجها مارسيل الذي عمل كخبير حرب في العراق أثناء الثمانينيات. فهو الذي شجّعها على تلك المغامرة. ومن خلال زياراتها إلى بغداد عرفت أن حياة العسكريين ليست بالفظاعة التي يتصوّرها الناس. أما التحدّي فيمكن تفسيره كالتالي: لما كانت إيزابيل امرأة جميلة وناعمة وتهتمّ بكل ما هو نسوي، فقد أرادت أن تثبت للآخرين، أنها بقدر ما هي أنثى بقدر ما هي قادرة على التوغل في عالم لا يوجد فيه إلا الذكور. إنه عالم الحرب.

ومن خلال مرافقتها لضباط فرنسيين كانوا يشرفون على قيادة العمليات الجوية التي يقوم بها الطيارون الفرنسيون، عرفت أن «الفيديو ديسك» يلعب دوراً مهماً في التدريبات. فالتدريب عبر «الفيديو ديسك» يجعل الخيال قادراً على مواجهة آلاف الاحتمالات التي لا يمكن أن يمنحها التدريب في الواقع. الأوضاع التي يعرفها الطيار وهو في الجو ثابتة ومحدودة ومعدة سلفاً. أما «الفيديو ديسك» فيحتوي على آلاف الصور والأوضاع والحالات والاحتمالات بشكل مستمر لا يعرف أية نهاية.

كتبت إيزابيل بدهشة عما اطلعت عليه، فبدت وكأنها تخاطب قرّاء مختصين في المعلوماتية. وطلب منها رئيس التحرير أن تكتب بأسلوب مبسط وواضح موجّه إلى جمهور عريض، فخصصت لذلك مقالاً جعلها ذات شهرة واسعة. شرحت مهمة الطيارين الملتاعين بنار الخليج، على أنها لعبة فيديو تشبه لعبة «البلاي ستايشن». وخاطبت الذين ينتظرون أخبار أبنائهم الطيارين بحرقة وخوف، بأن هؤلاء الطيارين قد خرجوا من مدى

الأعداء. وأن احتمال الإصابة في صفوفهم تكاد تكون صفراً. فقالت ما معناه: إن القتال يبدو وكأنه يدور في مكان آخر، أي في ميدان لا يوجد فيه الطيارون.

بدت إيزابيل أكثر من بطلة لجمهور القراء. فمعلوماتها تتطابق مع الأخبار التي تأتي من الجبهات. لم تسجل أية إصابة في أي طائرة غربية والحرب قد مضى عليها نحو ثلاثة أسابيع. كانت الأخبار تؤكد باستمرار ما تكتبه إيزابيل. نسي الناس الحرب حين اعتقدوا أن كل ما يجري هو عبارة عن لعبة «فيديو ديسك» تقودها حاسبات ضخمة انطلاقاً من فلوريدا أو من قاعدة شبكات معلوماتية أخرى في «دييغوغارسيا» بالمحيط الهندي.

وجدت إيزابيل أن كل شيء قد تغيّر. لم تعد الحرب هي الحرب التي خاضها جدها في اللورين، ولا هي الحرب التي تدرّب عليها زوجها في كاليدونيا الجديدة أو غوايانا، ولا هي الحرب التي لا يقدر على خوضها إلاّ الرجال. لقد توافرت أوقات كافية للتسلية للجنود. وحلّ الدماغ الإلكتروني محل الدماغ الإنساني. أما الشجاعة فهي شيء مفترض، يمكن كسبه عن طريق الأزرار. كان ذلك هو شرح أحد الضباط الذين يديرون الحاسبة الكبيرة للقاعدة الفرنسية. وإذ لاحظ شيئاً من السأم على وجه إيزابيل، عرض عليها نزهة في الجو فقبلت على الفور. لكنها اشترطت قائلة:

- على شرط ألا تأخذني فوق قواعد صواريخ صدام حسين. فأنا أم لطفل عمره ثلاث سنوات ينتظرني منذ نحو ثلاثة أسابيع.

طمأنها الضابط إلى أنها لن تتعرّض لأي مكروه. ثم قال على نحو غامض:

ـ أنت تطلبين نزهة في طرقات قليلة الازدحام مثل أي زوجين جديدين.

لم تعلق إيزابيل على ما قاله الضابط، لكنها أضافت:

ـ الساعة الآن هي العاشرة ليلاً، ولا أعتقد أنني سأستفيد من هذه النزهة إلا إذا كانت في النهار.

قال لها الضابط: إن الوقت لا يهمّ إن كان ليلاً أو نهاراً. يمكنك أن تستمتعي بهذه النزهة في أي وقت تشائين.

كانت إيزابيل تفكّر في زوجها مارسيل وابنهما بيار حين قررت أن تنساق خلف إغراءات الضابط. لقد قررت أن تثق فيه لأن ذلك هو طريق التوغل في الوهم على أنه حقيقة. فكرت كذلك في المقال الذي ستكتبه بعد عودتها من النزهة. ثم دهمها خوف من أن تتهم بالكذب من قبل قرّاء بليدين أو بالادّعاء من قبل زملاء حاسدين أو بالاستغراق في التخيّل من قبل رئيس تحرير بيروقراطي!. ثم قرّرت أن تؤجل ذلك إلى ما بعد النزهة.

استعدت إيزابيل للصعود إلى طائرة «ميراج ٢٠٠٠» بعد أن منحها الضابط كسوة خاصة بالطيارين. بدت وكأنها رائدة فضاء من الرائدات الروسيات، ثم تساءلت بينها وبين نفسها قائلة: كم يصعب ضبط الإنسان وترويضه؟ الآن سأفلت من قبضة الحاضر، وبعد حين سأفلت من قبضة المستقبل ولكن كيف لي أن أجعل قرائي يثقون بكل هذه القدرات؟!.

تعرف إيزابيل أن المصادفة ضرورية لزيادة وزن الصحافي، أي لشهرته. فهو في حاجة إلى مزاج رئيس التحرير وخداع القراء وكذلك إلى عناصر

أخرى لكي يصل إلى مركز القرارات الكبيرة. فلو أن طائرة فرنسية قد أصيبت غداً بعطل ما في محركها وسقطت في صحراء العراق، فإن نزهتها ستكون أكبر فرصة لكي تصبح إيزابيل أشهر صحافية. لا شك أن الصحيفة التي تعمل فيها ستكتب بالخط العريض: مراسلتنا الخاصة تنجو من عملية قتل مؤكدة، أو: مراسلتنا الخاصة تنزل بسلام بعد سقوط الطائرة المرافقة لها، أو: مراسلتنا الخاصة تؤكد أن الطائرة الفرنسية قد سقطت نتيجة عطل ميكانيكي، وليس نتيجة إصابة صاروخ. تأتي الأخبار من كل مكان وعلى نحو عشوائي، ويحار رؤساء التحرير ماذا يختارون من عناوين لتغطية الخبر. يجب أن يراعى مدى التأثير والصدمة كما يجب مراعاة سمعة التكنولوجيا الفرنسية وكذلك مراعاة الموقف السياسي من استمرار القصف. ثم يجب ألا تعطى فرصة للآخرين لكي يشمتوا بفرنسا. وفي لحظات قصيرة، تعدّ «الطبخة» لتنقل على شاشة التلفزيون التي تعكس المزاج العام للدولة والشعب.

فجأة يرن الهاتف في مكتب رئيس التحرير، يرفع السماعة فيسمع صوتاً خشناً وغاضباً يسأله:

ــ كيف تسمحون بنشر مثل هذه الأخبار؟.

تذكّر الصحافي النائم في بطن رئيس التحرير أن الديكتاتوريين يشبهون الديموقراطيين في تأويلهم للأخبار. لا يختلف سياسي ديكتاتوري عن سياسي ديموقراطي حين يتعلق الأمر بمخاطبة الجمهور من وراء ظهورهم. كل شيء مهما كان تافهاً إذا مرّ إلى الجمهور بدون الاطلاع عليه مسبقاً يصبح أمراً خطيراً، بل عملاً ضد الدولة. فالصحافي يعامَل عندما يرضي السياسي كخادم، أما حين يغضبه فيعامَل كجاسوس. إنه شخص تعس لا

يجد الراحة حتى مع زوجته. مرّت لحظات مثقلة بالخوف والندم على رئيس التحرير ثم أجاب مخاطبه على الهاتف قائلاً:

- سيدي، ربما أخطأت التقدير، ربما كان هناك تجاوز، يمكنكم إعطاء بعض التوضيحات وسوف نقوم بالواجب في الطبعة المسائية.
- لا جدوى مما تقوله، ما سببته من ألم لرئيس الجمهورية لا يمكن إصلاحه بسطرين.

بعد صمت قصير، عاد المسؤول يقول:

- كان في إمكانك الاستشارة قبل أن تنشر هذه الأخبار. ثم أغلق الخط.

لم يفصح المسؤول السياسي عما أغضب رئيس الجمهورية. لم يقل كذلك ما هي الأخبار التي حطّت من قدر الدولة. ثم هو لم يعطَ أية فرصة للنقاش لمعرفة ما القصد من كل هذا؟

يقرّر رئيس التحرير عدم نشر أي تقرير ترسله إيزابيل من الجبهة بعد اليوم. قال لنائبه:

- إننا نعيش في دولة ديموقراطية ولكن ما نتعرّض له لا يمكن أن يحصل إلاّ في دولة ديكتاتورية. وردّ نائبه:
- أعتقد أن الديموقراطيين أكثر شراسة في لعبتهم مع الإعلام. يحاولون أن يكونوا مختلفين ومتسامحين، ولكن هذا على صعيد الشكل فقط. إنهم وحوش حين يستعملون «بند المصلحة العليا». وأضاف نائب رئيس التحرير: خلال الانتخابات يجعلون منا نجوماً تضيء قامتهم أو تسبح في

مدارهم. وحين تنتهي حمى الانتخابات يكافئوننا بعبارات الوعيد والتهديد. أما الكسالى فيمكن أن يدفعوا بهم إلى المقدمة.

* * *

قالت إيزابيل وهي تنزل من درج الطائرة إن النزهة أعجبتها. ولاحظت مدى الرؤية الشاسع الذي مكّنها من السيطرة على المشهد من جميع الزوايا. لكنها استدركت تقول للضابط: إن رئيس تحريري سينال توبيخاً لو أنني كتبت عن كل هذا الخداع. لقد تأكدت الآن أن الخدعة في الحرب تطورت أكثر مما تطورت القوة النارية. ثم سألت الضابط:

ـ هل أنتم جادون في إطاحة صدام حسين؟

طأطأ الضابط رأسه ثم أجاب:

ـ قد ينكفىء على نفسه طويلاً، لكنه سينتظر الفرصة ليلعب من جديد مع لاعبين آخرين. إن اليأس هو القوة الأولى نحو الافتراض، أما الزمن في الشرق فهو أبدي. لقد قلنا له: إننا له بالمرصاد ولكننا لا نستطيع أن نجعله يقبل بالذهاب. مع ذلك يمكنني أن أعتقد أنه «ذهب» منذ سنوات.

٣

عادت إيزابيل من الجبهة وهي تشعر بالفخر لأنها استطاعت أن تكون مراسلة حربية ناجحة ثم لأنها، وهذا هو الأهم، كشفت خدعة الحرب التي يخافها كل الناس. وجدت باريس مغطاة بالثلج في ذلك اليوم البارد من أيام كانون الثاني/ يناير ١٩٩١، فاتجهت مباشرة إلى بيتها في منطقة «ني سيرسين». في اليوم التالي ذهبت إيزابيل إلى مقرّ صحيفتها، وحين دخلت على رئيس التحرير وجدته يسلّم عليها متثاقلاً وتساءلت عن مصير مقالاتها، فقال لها بخشونة:

- قبلُ ثلاثة أيام فقط تعرّضنا لمشكلة بسبب إحدى مقالاتك. لقد أخبرونا بأنها تتعارض مع المصلحة العليا. حاولنا أن ندافع عما نسمّيه بالشفافية، لكنهم أرغمونا على الصمت.

شعرت إيزابيل بالاشمئزاز من لهجة رئيس تحريرها الحاملة للنكران، لكنها أخفت غضبها وقرّرت أن تسأله:

- هل يعني هذا أننا كشفنا ألاعيبهم أم تراهم يمعنون في خداعنا عن طريق الابتزاز؟!

لم يفهم رئيس التحرير المعنى الخفي الذي دسّته إيزابيل في سؤالها، لكنه أجابها بغرور كبير:

- أنت تعرفين أن الصحافة هي بمثابة الوحش الذي يهزم كل السياسيين في نهاية المطاف.
- مع ذلك علينا أن نطأطىء رؤوسنا للعاصفة. قالت إيزابيل فأجبرته على التراجع قائلاً:
- إنهم يستطيعون أن يمنعوا عنا الإعلانات لمدة أسبوع واحد لكي نعلن إفلاسنا. ولذلك علينا معرفة أصول السباحة مع الحيتان الضخمة.

بعد ذلك انتقل رئيس التحرير إلى نقطة أخرى في محاولة لدغدغة إيزابيل. قال:

- قررنا في الصحيفة أن نصرف لك مكافأة مناسبة. ومن المهم أن أعترف أن صحيفتنا ارتفع عدد مبيعاتها بسبب تقاريرك الجريئة. ثم أضاف بصوت خافت:
- من الآن فصاعداً، ستصبحين من كبار المحررين في الصحيفة، يمكنك التركيز على كتابة مقالات من النوع الثقيل. يمكنك اختيار أي موضوع تشائين. ليس هناك موانع. وبما أنني أرى فيك قدرة على الجدل، فإني سأكون مسروراً لو اتجهت إلى إجراء حوارات ساخنة مع مثقفين وسياسيين وفلاسفة في قضايا العصر.

في الحين لاحت في رأس إيزابيل مجموعة من الأسماء الشهيرة لطالما تمنّت أن تُجري معها حوارات مطولة. فقالت وهي ترغب في توضيح أهدافها جيداً لرئيس التحرير:

ـ لديّ ترسانة كبيرة من الأسماء. ولكن أريد أن أعرف ما إذا كانت المساحة تستوعب شخصيات وأسماء أجنبية.

شعر رئيس التحرير بنشوة عارمة حين عرف أنه نجح في إقناع إيزابيل بمهمتها الجديدة في الصحيفة، فقال بسرعة:

ـ لن يتدخل أحد في اختيارك. وسنرحب بكل الذين سيقبلون بالحديث إلى صحيفتنا.

* * *

دخلت إيزابيل إلى مكتبها ثم فتحت دليل هواتفها فوقعت عيناها على رقم هاتف الموسيقار الشهير جواشيم سورات.

(لقد تعرفت إلى هذا الموسيقي الفيلسوف الذي اشتهر بسبب مزجه للسينفونيات الكلاسيكية مع الموسيقى الشرقية القادمة من مصر والهند والصين، داخل الطائرة أثناء رحلة كانت متجهة إلى القاهرة).

قال لها جواشيم سورات إنه لا يحب الصحافيين «لأنهم كثيراً ما يجعلون من أمثالي أشخاصاً مسطحين لا قيمة لهم في هذا الخضمّ اللامتناهي من التفاهات». لكنه استدرك يقول بتهذيب كبير:

ـ أنت صحافية مثقفة تعرف بلداناً كثيرة. ربما كنتِ مختلفة. ثم راح يسمعها أبياتاً عنيفة من الشعر الألماني. قال لها أيضاً: «إن الألمان ليسوا أمة شاعرة، لكنهم أعطوا لأوروبا شعراً قوياً ومتفجراً».

* * *

كتبت إيزابيل:

تركني جواشيم سورات في مطار القاهرة ذات يوم شبه تائهة بسبب عباراته القوية ومظهره المثير وحركاته الخفيفة. لم يقل لي في أي فندق سيسكن، لكنه قال إنه سيعزف في «أوبرا القاهرة» لمدة ثلاث ليالٍ. وعدته بحضور إحدى حفلاته. ولكن مواعيدي الكثيرة والتي تزاحمت بشكل غير متوقع لم تسمح لي بالذهاب إلى الأوبرا.

ها أنا الآن أمامه في مكتبه الكائن في الدائرة السابعة قرب قبر بونابرت ـ الأنفاليد ـ قلت له: في أي موضوع تريد أن نتحدث؟ فأجابني بسرعة: ما دمت جاراً لـ «بونابرت»، فإني أريد أن أتحدث في موضوع الحرب. لا شك سيبدو هذا لقرائك وكأنه أمر غريب: أن يتحدث موسيقي مثلي عن الحرب. هذه مفارقة عجيبة. ولكن كل سبق صحافي يبدأ من مفارقة.

ـ هيا، هل نبدأ؟

بسرعة أدخلني سورات إلى عوالمه وجعلني رهينة لآرائه. كثيراً ما أحبّ أن يستحوذ عليّ رجل قوي مثل سورات، ولكن هذا لا يحدث معي إلا أثناء العمل حين يجب أن أغلق خزّان عاطفتي.

طرحت عليه سؤالاً بدا لي تقليدياً. فقلت:

ـ هل صحيح أن القتال هو أصل كل شيء؟

تنهّد سورات، البالغ من العمر آنذاك حوالى نصف قرن، ثم قال وهو يختار عباراته بعناية فائقة:

ـ الفيلسوف اليوناني «هيرقليطس» هو الذي يؤكد ذلك. الحرب

فرضت نفسها كأفق مشؤوم للفكر. القرن العشرون أوضح لنا مرة أخيرة أن التعبئة الشاملة للحرب قد أصبحت أمراً عادياً. الحرب تبدو وكأنها هدف لا وسيلة. وهذا هو الخطر. إنها إعادة مستمرة لإنتاج المأساة. وكان نابليون يعتقد أن الحرب ضرورة للحياة حتى وإن حملت معها المأساة. وبهذه النظرة تطبّع الفكر الفرنسي وكذلك الأوروبي. الآن يستمر هذا الشكل المأساوي للحياة مع العالم الجديد. فالعنف المتوقع وغير المتوقع المنبثق عن تحالف التقدم التكنولوجي المتولّد عن الثورة الصناعية، والمتفاعل مع الكتل البشرية ورغباتهم وإرادتهم، هو العنصر المهيمن على الحياة في جميع مظاهرها.

ـ ولكن هل لا تزال الحرب من اختصاص الحكام كما كانت في السابق؟ سألت إيزابيل. ثم استعدت لسماع إجابة سورات فقال:

ـ الحرب والسلام سمتان من سمات السيادة. كان الملك ولا يزال هو الذي يقرّرهما. الملك هنا هو صورة أو هو شخص افتراضي. إن العسكريين هم الذين يفعلون ذلك. جاء نابليون ليحطم تلك الصورة، لكن مسألة الحرب ظلّت من الاستراتيجيات العليا. بعد ذلك جاءت التكنولوجيات لتزيد تلك الصورة تجريداً.

أصبحت الحرب فناً عنيفاً بيد العسكريين وشكلاً ديبلوماسياً بيد السياسيين. الضباط يجدون فرصة زمن الحرب ليزداد نفوذهم. وتصبح الدولة أكثر عسكرة. ومعنى هذا أن العسكري يهيمن على السياسي.

وتوضيحات الجنرال «كلاوسفيتش» أصبحت بمثابة التوراة بالنسبة إلى العسكريين.

كان القرن العشرون قرن حروب بامتياز. لقد جعل الحرب هي أساس العلاقات. بل بات واضحاً أن السياسة والحرب شيء واحد. فحين يبحث الرئيس عن المناسبات الاستراتيجية تصبح السياسة شأناً عسكرياً صرفاً. الحرب هي عمل عنيف لإرغام الخصوم على القبول بإرادة المنتصر. كان الجنرال الفرنسي «فوش» يتبنّى مفهوم العنف غير المحدود للحصول على موقع يصبح فيه العدو عاجزاً كلياً.. هذا المفهوم كان رحماً خصبة لما يسمّى بكليانية القرن العشرين في وجهه الشيوعي أو وجهه الفاشي أو وجهه النيوفاشي الزاحف مع العولمة.

لا أعتقد أن القرن المقبل سيكون أكثر رحمة أو أقلّ عنفاً. سيكون بلا شك قرناً عنيفاً كغيره، لكن بوسائل أخرى وباستخدامات أكثر شمولية. كل حرب هي في الواقع أداة عنيفة تستخدمها طبقة اجتماعية لبسط هيمنتها حسب «لينين»، أو لبسط هيمنتها على فضاء آخر حسب «كلاوسفيتش». هذا ما لن يتغير. لكن الذي سيتغير هو شكل الحرب التي لن يعود لها شكل محدد.

- وهل تعتقد سيد سورات أن شكل الحرب سيتغير مع أهدافها أو مضامينها بما يخفف من مأساتها؟

أجاب سورات بشيء من التركيز:

- الشكل الجديد لن يحد من المأساة. بل قد يزداد ثقل المأساة. رأيت أن الحرب في الخليج العربي قد أخذت على عاتقها أن تكون حرباً نظيفة، أو حرب الخسارة «صفر». وهذا يعني أنها

حرب نظيفة بالنسبة إلى الطرف الأقوى. الديموقراطيات الليبيرالية تقع في الازدواجية وهي تخوض الحرب تلو الأخرى. ولو تساءل السياسيون مرة على نحو من الجدية عن سبب الحرب العالمية الثانية، يكونوا كفّوا عن اللجوء إلى الحرب كأفق للتسوية السياسية. ما من حرب إلا وأعقبتها حرب أخرى. ثم إن درجات العنف لا محدودة. وبفضل التكنولوجيات الحديثة أصبح بالإمكان خداع العدو وإرغامه على القبول بالهزيمة دون أن يحارب. ولكن لو تواجه أو تقاتل عدوان من الدرجة نفسها، من المرتبة التكنولوجية نفسها، فسوف نكتشف مدى الدمار الذي يلحقه هؤلاء ببعضهم بعضاً وبغيرهم، وسوف ينتهي الخداع وتكشف الحرب عن موت السياسة، بل عن موت الحقيقة. إن الرؤية القصوى للعنف هي المقابل لعدم رؤية العنف كمنظم للمجتمعات الليبيرالية، إذ كثيراً ما تنقلب هذه الأخيرة وبشكل وحشي إلى نقيضها. الحرب هي التي تكشف في كل مرة عن النفاق الذي تعيش عليه الليبيرالية. هذه ميزة الحرب. لكنها ميزة مدمرة.

هنا رأت إيزابيل أنْ تقاطع سورات فقالت:

ـ ولكن ألا يكون للعنف المرئي منه وغير المرئي مخرج آخر غير الحرب؟ ثم ألا تملك المجتمعات الليبيرالية مخارج أخرى لمشاكلها ومآزقها غير إعلان الحرب؟ ألا يعني هذا أن الليبيرالية هي شكل آخر للشمولية؟؟

ـ هذا ما يسميه الفيلسوف الألماني هايدغر «بالمناطق المضطربة».
قال سورات بسرعة وصمت. وبعد برهة عاد يشرح فكرته:
كثيراً ما تلتقي التقاليد الثورية لتختلط بالفاشية مع النزاعات الاشتراكية حول اعتبار الحرب أداة لتحويل الطبيعة بواسطة التكنولوجيا، ولكن كيف يحصل ذلك؟ إن الإنسان الحديث هو الحيوان الوحشي للحداثة الذي يحثّه العصر على استخدام أقصى ما يملك من قوة لضمان ما يمكن من التكنولوجيا للسيطرة على أقصى ما يتيح له الواقع. إن تطور التقنية يشرح لنا أين وكيف سيلتقي العلم الحديث مع الدولة ليكونا في خدمة بعضهما بعضاً ضد الحريات. إن العلم غير المحايد كثيراً ما يدفع الدولة باتجاه العدوانية لأنه يمدها بقوى الشمولية. من هنا يظهر الطغاة. طغاة من كل نوع. فاشيون وأصوليون وليبيراليون. للاستحواذ على السلطة والتفرّد بالحقيقة. إن الطغاة يحتاجون للهيمنة المطلقة إلى أناس مختصين. أي علماء يمتلكون ثقافة السيطرة على مجمل الكائنات. كما أن التكنولوجيا هي التي تغذي النزعات الشمولية لأنها تسمح للطغاة بإلغاء الاختلاف بين الكائنات. لقد أوضح لنا التاريخ أن هدف التكنولوجيا هو الهيمنة المطلقة. هو الإمبريالية الكونية. والوحيدون الذين فهموا ذلك مبكراً باعتقادي هم جماعات السورياليين الذين تحسسوا الطبيعة الكليانية للتكنولوجيا.

لقد رفض السورياليون تحالف سياسة البورجوازية الجشعة والغنية، بدوافع

المردودية اللامحدودة واستغلال الطبيعة، والبشر، مع العلم الحديث، لأنه لحالف عدواني بطبيعته. كان بريتون يقول: علينا تجاوز تناقض العقلاني واللاعقلاني، الواقعي واللاواقعي بالحلم لإيقاف حلقات العنف غير المتقطعة. ولن يكون ذلك إلا بالتدمير الشامل لمنطق الدولة ومنطق العلم الحديث. هل علينا أن ندعو إلى الشعرية الإيروتيكية؟ هل علينا أن ننادي بانتصار الإيروسي؟. لا أدري. ولكن أعرف أن معارضي حرب الفيتنام قد رفعوا شعار «نعم للحب.. لا للحرب».

٤

قرأ جواشيم سورات ما كتبته إيزابيل عنه. لم يجد فيها تغييراً في أفكاره خصوصاً أنه أعجب بكثافة لغتها وقدرتها على تلخيص فكرة مبعثرة ومشتتة. لكنه لاحظ أن هناك بعض المقاطع لم تنشر. لم يغضب لأنه يدرك جيداً أن الصحافة لا تقول كل شيء كما يعتقد أغلب الناس، لكنها تقول الشيء الذي يروق للآخرين أن يقال في غالب الأحيان. إن طريقة القول والعرض والمخاطبة هي التي تجعل من هذه الصحيفة جيدة وواسعة الانتشار وذات تأثير، ومن تلك صفراء لا قيمة لها. وبما أن كل شيء يدخل في حيز السياسة منذ أن يصبح الكلام مكتوباً على الورق المباع، فإن السياسة، أية سياسة، يسارية أم يمينية، ديموقراطية أو كليانية تقتضي ضمان مصالح الدولة التي تمثلها في تصادمها وتعايشها مع دول أخرى. إن إمكانية التفاهم بين الصحافة والسياسة تذهب إلى حدود الخيانة، بل هي كثيراً ما تنتج تسويات دنيئة تولّد عنفاً أعمى. فالصحافي يشبه العسكري هنا. كلاهما لا استقلالية له. فهم، الصحافة والعسكر، يعيشون تحت تبعية فكر الدولة

المشخصَن عبر رجل السياسة إلى حدود الابتذال والمجرد إلى حدود الافتراض.

كان سورات يستمع إلى قطعة موسيقية ألّفها الفرنسي «فلوران شميدت» في بداية القرن العشرين تماوجت مع أصداء الشرق الحالم، وأثناء قراءته للحوار الذي أجرته معه إيزابيل، رأى أن أفكاره عن الحرب ربما لا زالت انطباعية. ثم رأى أن موسيقى «شميدت» السينفونية ذات الخيال الألماني النزعة، هي التي أعطته الانطباع بأن أفكاره تسبح داخل مهارة شميدت في قطعة «مأساة سالومي». وجاءته فكرة أخرى هي أن يقرأ مقال إيزابيل بصحبة المغني الإيطالي الشهير تيتو شيبا فلعل ذلك يجعل من أفكاره أكثر قوة واندفاعاً.

* * *

كان «شيبا» من أكبر المغنين في زمانه. اشتهر في نيويورك وسيطر على مسرح الأصوات القوية خلال النصف الأول من القرن العشرين. وحين بدأ شيبا يتوغل في أوبرات روسيني ـ حلاق إشبيلية ـ دهمت سورات قوة لا مثيل لها. اكتشف في الحين أن الأفكار لوحدها هشة، وإنما هي تكسب قوة نادرة بالموسيقى. اكتشف أيضاً أن الكلمات في الحرب ليست هي قنابل الحرب. قال لنفسه:

ـ الآن فهمت ما كان يعنيه «لينين» حين قال: «إن موسيقى تشايكوفسكي هي التي أنبأتني بقدوم الثورة الهادرة»!.

بعد ذلك قام سورات ليضع أغنية أخرى. اختار هذه المرة أغنية ورقصة شعبية يونانية عرفت باسم «سيرتاكي» التي تعتبر من فولكلور جزيرة كريت اليونانية. وكان قد عمّمها على العالم الموسيقي «تيودوراكيس» في

لهلم «زوربا اليوناني». أحس الآن أن أفكاره لا تساوي شيئاً من حيث الفاعلية. اكتشف أيضاً أن البحارة الإغريق وهم تحت تأثير نوبات موسيقى سيرتاكي يصبحون قادرين على هزيمة أكبر الجنرالات.

منحت مقالة إيزابيل لسورات فرصة الارتطام «بالمعنى الثاني» مرة أخرى، ذلك المعنى الذي يبحث عنه الموسيقيون بشغف. فالمرء يمكنه أن يتألم لشجرة سقطت بالقرب منه، لكنه من الصعب أن يتألم لمدينة أحرقت بكاملها في بلاد أخرى. ثم هو يمكنه أن يعني من خلال ما يقول بالكلمات شيئاً محدداً، لكن كلماته حين تمتزج بأجواء أخرى قد تحمل معاني أخرى. هي المعاني، المنفلتة والهاربة باستمرار. وهنا أدرك لماذا الناس لا يفهمون الشيء نفسه حين يسمعون الكلمات نفسها. أو لماذا لا تحيل الكلمات مستعمليها على المعاني نفسها، مع أنهم في أحيان كثيرة قد عاشوا وتربوا في المحيط نفسه.

كان لا يزال يفكر في الخروج إلى نزهة بالقرب من «شون دي مارس» حين رنّ هاتفه الجوال، لم يحاول التعرّف إلى الرقم الذي ارتسم فوق الشاشة الصغيرة، فردّ بسرعة. كان المتكلم إيزابيل. تمنت له صباحاً مضيئاً ومزاجاً رائقاً، ثم سألته:

- هل أعجبك المقال؟ لقد كان إخراجه جيداً. صورك أضافت إليه مسحة من القوة.. أليس كذلك؟!
- قرأته مرات عدة وفي وضعيات عدة. نعم. قرأته بنهم. ثم أضاف:
- لاحظت أن بعض المقاطع قد حذفت، لكن يبقى من المدهش أن يتحدث موسيقار عن الحرب.
- هذا بالضبط ما قاله لي بعض الزملاء، لقد هنأوني على نجاحي

في إخراجك من عالم الموسيقى والنوتات إلى عالم الحرب.

ـ وهل قالوا لك عني شيئاً آخر؟.

ـ نعم. نعم. قالوا إن الموسيقى هي التي جعلتك تبصر ما لا يبصره الآخرون.

ـ ربما. ربما. حين قرأت المقال على موسيقى انطباعية أحسست بأن أفكاري ضعيفة. ثم قرأته على أغنية «سيرتاكي» اليونانية، فوجدت أن الحرب جبانة ويمكن أن تهزم. ثم انتابني شعور بالبحث عن المعنى الآخر الذي لم أقله أو الذي لم أقدر على قوله بالكلمات.

ـ وبماذا يمكن أن تنصحني الآن سيد سورات؟.

ـ لدي فكرة جيدة لك. ماذا لو أجريت حواراً عن الموسيقى مع جنرال حرب؟ سيكون ذلك أمراً مثيراً. أعتقد أن الجنرالات لديهم أشياء كثيرة يقولونها غير الحرب. أعتقد أن جنرالات الحرب يتقنون الحديث عن أشياء أخرى أكثر ما يتقنون الحديث عن الحرب. إنهم يشبهون رجال الموسيقى. هم يصنعون الحرب. ونحن نؤلف الموسيقى. ولكن لا أحد منا يتقن الكلام عما يصنعه.

ملأتني الفكرة بنشوة عارمة. قلت لنفسي في الحين: لا بأس، ما دامت لم تأت من أحد الزملاء. ثم قلت لسورات بصوت جاد:

ـ أعدك بأنني سأفعل بنصيحتك. وسنرى ذلك معاً. لقد استهوتني فكرتك. ثم ودعته بكلمات ندية وطرية.

٥

سأعطي لنفسي اسماً افتراضياً، سميح عبدالغفار، وأسمح لنفسي بالقول: إنني متشائم بطبعي. فأنا أعتقد أن التشاؤم هو الاستعداد النفسي لتلقي الصدمات. وهو كذلك القوة الاحتياطية للنفاذ إلى الحقائق المعقدة حين يعوزنا الذكاء. أنتمي إلى الجيل الثاني من عصر الدولة العربية الحديثة. فأنا عصارة جهود طويلة ومضنية لآبائي وأجدادي الذين استيقظوا على رياح القرن العشرين وهي تتلاعب بخيامهم من مراكش إلى بلاد الحجاز. عرفت فيما بعد أنني منتوج لما يسمّى بمرحلة «محو الأمية» أو تعميم التعليم الذي لا زال يكشف عن مهازل لا تعد ولا تحصى، أقلّها الحجم المأهول للتقارير التي تتلقاها الشرطة في بلاد العرب!.

قيل لنا إننا نعيش عصر الحداثة. اندمجنا «بكليتنا» في لعبة الحداثة ثم اكتشفنا أننا قضينا سنوات ونحن نلعب في الوقت الضائع. فالحداثة الأولى التي أطلّت على العالم مع سقوط غرناطة واكتشاف أميركا، قد بعثرت ثقافتنا على طرقات كثيرة سار فوقها مكتشفون ومغامرون

ومبدعون دفعونا نحو التهميش. ثم جاءت الحداثة الثانية، ما بعد الحداثة، لتكشف مرة أخرى أننا نصل دائماً متأخرين. هكذا كنت غائباً. وحين أوشكت على الحضور، بدا لي أن المكان ما زال بعيداً. لا بل لم يعد هناك لي من مكان.

نحن الآن «كائنات افتراضية» قد لا تكون حاملة لأي ثقافة بما أننا لم نساهم في إنتاج لا الحداثة الأولى ولا الحداثة الثانية. نعيش في أمكنة متعددة افتراضية وكذلك في أزمنة افتراضية. يقال إن الإنسانية تدخل الآن إلى مرحلتها الثالثة من المعرفة. وهي مرحلة الشمولية الجامحة حيث تبدو الذاكرة الجماعية قد انفجرت مثل خلية عصبية. ولكن ماذا يعني ذلك؟ أتساءل هل نحن فعلاً جزء من الإنسانية المعولمة؟ سأفترض ذلك مبدئياً لأن الشمولي قد أصبح مهيمناً على المكان والزمان، ولأن الفوضى واللامتناهي قد سيطرا على فضاءات الثقافة والذكاء الجماعي، بشكل ينزع نحو الهباء.

في الستينيات سيطرت ثقافة «ألف ثورة وثورة» و«خطوة على طريق ألف خطوة»، وقد اندمجنا كما فعل شباب كثيرون. في السبعينيات، أصبحنا مع المستحيل الذي اخترعه السورياليون الأوائل ليكون في مواجهة الواقع البليد. في الثمانينيات، بدا لي أن ذلك «المستحيل» يمكن أن يكون واقعاً بالنسبة لآخرين. وفي عقد التسعينيات، أصبح المستحيل حقيقة افتراضية. سقط حائط برلين ثم سقط ذلك الحائط الفاصل بين التقنية التي لا تزال في التقليد مضاداً للثقافة وبين الثقافة التي عادة ما كان ينظر إليها على أنها مضادة للتقنية. بالإضافة إلى ذلك سقطت الحدود الفاصلة بين ما هو حقيقي وما هو افتراضي.

لن أصف تلك الثقافة الجديدة بثقافة المهووسين بالإعلامية، ولكنني سأسمي ذلك بالتحول الكبير الذي شهدته الثقافة في مرحلة ما بعد المكتوب. فما كنا نصفه بالإمبريالي والمهيمن، أصبح ينتمي إلى الكونية والعولمة. إن مدى التحكّم ليس واضحاً، كما أن قدراتنا على التوجيه والتحكم غير متوفرة ولكن ذلك التحوّل التقني يفيد بتحول في جوهر الثقافة ذاته. هذا الجوهر قد يبدو خاوياً وخالياً من أي مضمون ولكنه قابل وجامع لكل المضامين طالما هو يتحرك في فضاءات افتراضية لثقافات مفتوحة على آخرها، وهي توفر المعلومات والوثائق وحتى طرق المواصلات المتبادلة وغير المتزامنة للدلالات والرموز والكيانات وحتى الهويات.

لقد دمّر الكومبيوتر جزءاً كبيراً من الذاكرة الجماعية، وكانت المطبعة قد فعلت الشيء نفسه في عصر الحداثة الأولى. والآن، فإن الفضاءات الافتراضية ستدمر ما تبقى في قاع تلك الذاكرة. لهذا أقول:

- إننا نحن أبناء العالم الثالث، دخلنا إلى الزمن الافتراضي دون أن نمر بالزمن الحقيقي. وكنا قد دخلنا إلى عصر الحداثة الثاني قبل أن نعيش الحداثة الأولى. إن تدمير الأصل هو انتحار لبعض الثقافات. فثمة شعوب قد استبدلت أحرف لغتها بأحرف لاتينية في وقت ما. ثم اكتشف الأبناء والأحفاد أنهم بلا مرجعية، أو أنهم مرغمون على العودة إلى المرحلة الشفهية، مرحلة المجتمعات المغلقة والطائشة، وغير الواعية.

كانت الكتابة تعبيراً عن الوعي المدوّن ولم تكن تعويضاً للذاكرة. وجاءت الطباعة فكانت تعبيراً عن الوعي الجماعي والكوني. أي الإمبريالي، ثم ها

هو الرقمي أو الافتراضي ينبئنا بانبثاق الوعي المعلوم والمجسّد في المجتمعات الحديثة لما بعد الإمبريالي. حمل المكتوب ثم المطبوع إمكانية انتشار للذاكرة الجماعية بلا حدود. أما الافتراضي فقد يحمل اندثار الثقافة وجوهرها الأول. ومن الديانات إلى الدول. ومن الدولة إلى الإمبريالية. ومن الإمبريالية إلى شبكات العولمة أفصح لنا الزمن أننا سنسكن طويلاً داخل هشاشة المعنى ولا نهائية الشكل. لنعود ربما إلى ما قبل الديني، أو ما بعد الديني، أو إلى قلب الدين. بالأحرى إلى العصر الشفهي الجديد!

قد توفر لنا العولمة أمكنة اجتماعية عابرة للحدود. وقد ترفع من شأن ثقافات محلية وهامشية. ثم هي قد تعيد الاعتبارات للثقافات الثالثة المندثرة. ولكن هذا كله لن يعفينا من إعادة السؤال عن مقدار مساهماتنا في إنجاز ما يمكن أن نسميه افتراضياً بمستقبلنا.

الماضي لم يكن كله من صنعنا، الحاضر كان رجلاً أعمى يقوده الآخرون، والمستقبل قد صنع بكامله في مكان آخر وزمان آخر. فالقرن العشرون الذي حمل عصاه ورحل، قد قام بعقابنا كأب قاسٍ جداً، لأننا لم ننهض في وقت مبكر، ذلك الوقت هو القرن السادس عشر. أنا سميح عبدالغفار الذي لا يعرف حتى طريق العودة إلى أمه.

* * *

كانت حياتي الثقافية والسياسية عبارة عن خليط جميل وشهي وبشع من المراحل والأزمنة والمعارف والأزمات. حين كنت صغيراً لم يكن هناك من كان بمقدوره أن يتنبأ لي بهذا المستقبل، إذ كنت أختزن موهبة في إخفاء مقاصدي. كنت حذراً جداً ولا زلت. وقد ينظر الآن بعض أصدقائي على أنني رجل وجد حظه أمامه، غير أن عملي كدبيلوماسي ليس هو

الذي يضفي عليّ بعض السعادة. ففي أعماقي، أعماقي التي لا أقدر على فهمها، لا زالت توجد منطقة رافضة لهذا العمل الذي يحسدني عليه الكثير. وقد قلت مرة لصديق سألني ما إذا كنت فعلاً أشعر بالسعادة أو النجاح، بأن «الديبلوماسي العربي هو رجل مسكين، عليه أن يحافظ على أناقته في جميع الأوقات».

وعلى امتداد ربع قرن، انتقلت من حرب العصابات التي اندمجت فيها كلياً في مناطق عدة بالعالم، إلى العيش وراء جدران السفارات المزدانة بالنقوش واللوحات. منذ البداية كنت سياسياً حتى النخاع. وقد تبنيت أعنف الطرق لتحقيق أهدافي السياسية!. في الواقع لم تكن أهدافي الخاصة، ولكن فيما بعد وقد تقلبت في وضعيات كثيرة، بدا لي أن السياسة شيء آخر، شيء ربما تركته في الأحراش، ربما لم أهتد إليه إلى حد الآن. شيء له طعم آخر غير الذي عرفته في الماضي والحاضر. هذا الشيء المفقود هو الذي أوحى لي تأليف كتاب مثير «العرب وعصر الحداثة الثاني». كان كتاباً يحمل كثيراً من المرارة، بل كان سوداوياً جداً، تجاوزت فيه نفسي عن جدارة، كما قال بعض الصحافيين. لامني بعض الزملاء من الديبلوماسيين، على كل تلك الخيبة وعلى كل ذلك التشاؤم. وشكرني البعض لأنني كنت صريحاً وحاداً. كان خليطاً من المذكرات والتأملات والاستعدادات والقفزات إلى أزمنة أخرى. كتب أحد الصحافيين: «إن سميح عبدالغفار الذي عاش أكثر من زمن بدا في كتابه وكأنه بطل رواية». ثم شبّهني بشخصيات أخرى مثل الروائي الفرنسي «ستندال» التي اتسمت حياته دائماً بالهدوء والمقدرة على المراجعة وكذلك بالرغبة في الانفصال عن العالم الخارجي. كان عليه أن

يقول: «الرغبة في الانفصال عن نفسه». فأنا الآن قد أكون مندمجاً جداً مع العالم الخارجي، ولكنني أعاني من نقص في الاندماج مع نفسي حتى لأبدو منفصم الشخصية.

أعترف مرة أخرى أنني لم أخض معركة القرن الذي تركنا نتثاءب وراءه ككلاب هرمة!. لا أعرف بماذا أسمي تلك المعركة ولماذا أعتبر نفسي أنني كنت مقصراً مع أنني لم أتخلَّ قط كما بدا لي في وقته أنه الواجب تجاه العصر. خضت الحرب على نحو رغبت فيه وسعيت إليه وانسجاماً مع أفكاري السياسية والثقافية. ولم يكن ذلك من أجل مباركة الأسياد أو الله أو تسديد فاتورة عن عائلتي. ببساطة لقد كنت أعيش زمني بامتلاء ونشوة وانفتاح، ولكن ما كنت أتوق إليه لم يكن واضحاً لي في ذلك الوقت. وعندما بدأت الكتابة، عرفت أن رغبة الكتابة لدي أقوى من رغبة السياسة. أعطاني العمل الديبلوماسي وقتاً كثيراً لتحقيق رغبتي في الكتابة. أنا الآن قد أهزأ من نفسي كيف كنت أتخذ من «جورج حبش» و«فيدال كاسترو» و«سالم علي ربيع» و«بول بوت» و«سامورا ماشيل» رموزاً وعلامات مضيئة بل كنت أعتبر بعضهم قديسين وآباء روحيين لي. ولكنني لن أندم على ذلك شخصياً. ولو كتب لي أن أعود شاباً، فإنني سأختار الطريق نفسها. تلك الطريق التي عرجت بي من طرابلس إلى أنغولا إلى الفيتنام إلى لبنان. تلك الطريق التي أوصلتني فيما بعد لأتربع على سفارة بلدي في باريس.

كانت الثورة بالنسبة لي هي الهدف. بعد ذلك أصبحت الدولة هي الهدف. والآن في عصر العولمة لا أعرف ما هو هدفي بالضبط. لقد أصبحت أمقت السياسيين وأحتقر ادعاءاتهم وأشمئز من دناءاتهم. لقد

عرفت أن أشرفهم بإمكانه أن يحرق زريبة دجاج لكي يستولي على بيضة فاسدة. مع ذلك، فإنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر غير ملاطفة بعضهم ومجاملة بعضهم الآخر ومدح بعضهم الثالث، وهو البعض الأكثر دناءة. هل أقول إن السياسي رجل مجرم بطبعه؟ هل أدعي أنني لا أنتمي إلى ذلك النوع من السياسيين؟ فحين أجد نفسي وسط كوكتيل من ذوي الأقنعة والسوابق المشينة ينحبس الكلام في حلقي وأجد صعوبة في الابتسام ولا أجد إلا كائنات متلهفة على الشرب والأكل بشكل يعرّضها للسخرية. أحار في تصديق بعضهم كيف تمكن من المشاركة في قيادة انقلاب. ولا أفهم كيف أن الذي لا يعرف شيئاً عن تاريخ بونابارت، قد خاض أكثر من حرب وأصبح جنرالاً ثم أرسل كسفير لبلاده في باريس كمكافأة له. وعلى ذلك كنت أفضل الصمت، لأن مثل هؤلاء قد يجدون صعوبة في تصديقي بأنني كنت ذات يوم أحسن استعمال الأسلحة والمتفجرات وأجوب في معسكرات كثيرة وأشرف على قطاعات مهمة في جغرافيا الحرب الباردة.

.

ذات مرة حضرت إلى حفل ديبلوماسي بإحدى السفارات العربية. كانت المناسبة هي الذكرى العشرين لثورة التصحيح التي عادة ما تكون انقلاباً دموياً!.. ذهبت لوحدي. كانت زوجتي حبلى في شهرها السابع ولم تقدر على مصاحبتي، ثم إنني غالباً ما أفضل الذهاب إلى مثل هذه المناسبات لوحدي. وها أنني أحتفظ بتجربة مرّة من ذلك الحفل. لقد تعرّفت إلى أحد السفراء الأفارقة. بدا لي في البداية رجلاً مهذباً وقد حدّثني عن بلاده بشراهة. وبما أنني كنت قد زرت بلاده، فلم يكن قادراً على جعلي ساذجاً. أوحيت له بالإعجاب وناقشته في بعض المسائل. ثم

سألته ما إذا كان من قبيلة الرئيس. فقال بسرعة:

- كيف عرفت ذلك؟ أنت رجل ذكي جداً سيد عبدالغفار.

كدت أن أقول له «أنا أيضاً من «قبيلة» الرئيس»، ولكنني أجبته على نحو لا يجعله يفطن إلى مكري:

- عرفت ذلك من خلال أصدقاء لي.
- أوه سيد عبدالغفار، إنك تتردد في مصارحتي. قال السفير الذي كان يدعى «كانتا». ثم التفت بسرعة إلى سفير أفريقي آخر فحياه بسرعة ثم تقدم نحوه وهو يجرّني من يدي قائلاً:
- هل يمكنك أن تقول لي سيد عبدالغفار، ما إذا كان زميلنا كادوما من عائلة الرئيس؟!

ضحكت إذ لم أجد مقطعاً من الكلام في فمي. ثم قلت له حرفياً: يبدو أنني أزعجتك بسؤالي. إذا لم أخطىء في التقدير، فإنني أعتذر أمام زميلنا كادوما.

تدخّل كادوما بعدما حبّك كلماته جيداً فقال لكانتا:

- أظن أن السيد عبدالغفار يعرف جيداً أفريقيا. إنه من أفريقيا مثلنا. هل يغضبك أن تكون من عائلة الرئيس؟ أعتقد أن أغلب سفراء أفريقيا إما أنهم ينتمون إلى عائلة الرئيس، وإما هم معادون للرئيس. وبالتالي إذا لم تكن من عائلة الرئيس، فأنت من عائلة خصمه. هل يعجبك هذا؟.

تطوّر النقاش بيننا، فأصبح خصاماً. ارتفعت أصواتنا. حرصت جيداً أن تنتهي تلك المعركة بسلام. وعرفت أن الديبلوماسيين يتحمّسون كثيراً للمعارك الصغيرة والتافهة لأنهم قد فقدوا كل كرامة. إنهم يشبهون

النساء النائحات والمولولات لأتفه الأسباب. استطعت أن أجعل السفير كادوما إلى جانبي. غير أن كانتا استمر في التهجّم عليّ. سمعته يستعمل بعض العبارات المشينة من لهجته المحلية «البامبارا». لكنني تمالكت ولم أغضب. قلت في نفسي: ألهذه الدرجة ينحط مستوى الديبلوماسية؟ في هذه الأثناء، ولدت بداخلي رغبة في صفعه أو الانسحاب. ثم فضّلت الانسحاب. لمحت أحد الأصدقاء، وهو صحافي، يحييني فاقتربت منه. سلّم عليّ بقوة. ثم قال لي: رأيتك قبل حين منهمكاً في حديث عالي النبرة مع أولئك الأفارقة. لم أعلّق على كلامه بأي حرف. قلت له: «أنت تعرف أنني لا أتحمّل أن أكون في مكان زاخر بالحشود. هذا الحفل مزدحم جداً. وإذا لم أخرج بعد قليل، فإنني سأتعرض لآلام لا تطاق.

الشيء الذي أزعجني في ذلك الحفل إدراكي أنني كنت مخطئاً في تقديري لزملائي الديبلوماسيين. لطالما كرّرت لنفسي أن الديبلوماسي رجل مسكين مطلوب منه أن يحافظ على أناقته بأي ثمن، غير أنني غالباً ما أقبض على نفسي وأنا أرتكب خطأ التقدير المبالغ. كان ذلك ما يدور في ذهني حين قال لي الصحافي عبدالجواد أمين:

– هل تريدني أن أقدّم لك إحدى الصحافيات الألمعيات؟

لم أقل لعبد الجواد ما كنت أفكر فيه، بأن الصحافيين الجيدين لا يأتون للحفلات الديبلوماسية. ولكني تركته يقودني إلى زميلته دون أن يشعر بالتكلّف أو بالحرج. قال عبدالجواد وهو يخاطب زميلته بكثير من الانشراح:

– إيزابيل. هذا أهم ديبلوماسي عربي في بلادكم. إنه رجل مثقف. وستكتشفين أنه موسوعي فعلاً. كشفت إيزابيل عن

ابتسامة خفيفة ثم مدّت يدها لتقول لي:

ـ أتشرف بمعرفتكم، سيدي.

كنت لا أزال بعيداً بروحي عن ذلك المكان. لقد ضاقت نفسي بالهواء الفاسد. ولكن ابتسامة إيزابيل جعلتني أتباطأ في المغادرة. بحثت عن بداية مناسبة للحديث مع إيزابيل فلم أفلح. كنت كعاشق جديد يخاف أن تكون كلماته مبتذلة. يخاف أن تسقط كلماته في الطريق ولا تصل إلى أذن حبيبته. ثم عزمت على القول لإيزابيل:

ـ هل تعرفين بلدي؟

ـ نعم زرتها مراراً. أحب التسكّع في أحيائكم الشعبية. كثيراً ما ذهبت إلى هناك. فأنا مولعة بالشرق.

استمرت إيزابيل تتحدث إليّ وكأنها تعرفني منذ زمن طويل. أحسست أنني ربما وقعت على سيدة ثرثارة لا تعرف الصمت. ولكنها فجأة انعطفت نحو الصمت. ناولتني بطاقتها الشخصية، ثم استأذنت للمغادرة. وحينها قلت لعبد الجواد:

ـ عليّ الآن أن أهرب قبل أن يلتحق بي السيد كانتا. إنه ثقيل مثل فيل مريض..

* * *

عرفت من خلال ذلك الحفل أن دمي لا يزال ساخناً. وقد رويت في الصباح لزوجتي ما حدث لي. ولأنها لا تحب الأفارقة، فقد كانت مهيأة نفسياً لتعطيني بعض الحق. ولو أن الحادثة وقعت مع ديبلوماسي أوروبي، فإنها كانت ستبحث عن ثغرة في كلامي لتضع كل لومها عليّ. استمعت جيداً أو هكذا ظننت، ثم قالت وهي تضع أمامي فنجان قهوة سادة:

ـ لو ذهبت معك، ما كنت لتقع في مثل هذه المشاكلات.

ـ أنت التي لم ترغبي في الذهاب. كنت لا ترغبين أن يراك الناس حبلى.

ـ وأنت أيضاً كنت ترغب في ذلك. قل لي ألا تريد أن تكون لوحدك في هكذا مناسبات؟!

رأيت أن زوجتي قد نقلتني إلى موضوع آخر. فهي ككل النساء عامة لا يرين في أية مسألة إلا ما يجعلهن موضوعاً. ولو أنني قلت لها إنني قابلت البارحة «ماو تسي تونغ»، لسألتني ما إذا تحدث عنها. أعرف ذلك جيداً. ومع ذلك أجد متعة في الحديث إلى زوجتي وأنا أترشف قهوة الصباح معها. بعد ذلك لا تنفتح شهيتي عليها إلا في صباح اليوم التالي.

أعدت عليها ما حدث معي مع السيد كانتا، فمنحتني ما اعتقدت أنه يكفي لغروري قائلة:

ـ أنت تعرف الأفارقة، لكنك لا تتعلم. ثم ذكّرتني بأكثر من حادثة مع أكثر من سفير أفريقي.

وجدت في لهجتها وكلماتها بعض الغطرسة والعنصرية. فقلت:

ـ يا امرأة، المسألة ليست لأنهم أفارقة، بل لأنهم ديبلوماسيون. ديبلوماسيو آخر القرن.

خرجت من البيت بسرعة. كان السائق في انتظاري منذ نصف ساعة. لم تكن لديّ مواعيد هامة في ذلك اليوم. وفي الطريق هاتفتني السكرتيرة لتشعرني أن برقية مستعجلة قد وصلت. ثم سألتني ما إذا كنت سأتأخر؟ قلت لها بسرعة: أنا في الطريق إلى المكتب. راودتني فكرة مفادها أن يكون السيد كانتا قد نفخ في المزحة ونقلها إلى رئيسه، وأن رئيسه قد

يكون احتج لدى رئيس بلدي. وقلت في نفسي ـ من يدري؟ الديبلوماسيون يشبهون الأطفال. غالباً ما تحمرّ عيونهم وتمتلىء بالدموع حين يتعرضون لمجرد المزاح من أقرانهم.

في الحقيقة، قبضت على نفسي خائفاً من إمكانية استدعائي لتوجيه توبيخ لي. ظللت خائفاً طوال رحلة الطريق. ولكني حين قرأت البرقية، وجدت أنها تتعلق بأمر آخر. لقد طلبت مني الرئاسة تقريراً مفصلاً عن المفاوضات السرية التي كانت تجري آنذاك بين الفلسطينيين والإسرائيليين في أكثر من عاصمة أوروبية!

لم تكن لدي أية معلومات. أصدقائي السفراء العرب كانوا لا يعرفون شيئاً عن ذلك الموضوع. ولو أن أحدهم كان يعرف بعض الشيء، فإنه سيسرّب بعض الأسئلة الخفية لجمع أكثر ما يمكن من المعلومات. كانت علاقتي جيدة بالسفير الفلسطيني. سألته بصراحة ما إذا كان يعلم بهذه المفاوضات، فاستغرب ذلك ثم وضع أمامي حججاً وأسباباً مقنعة بأن ما سمعته مجرّد شائعات. السفير الأردني استغرب هو أيضاً وقال لي:

ـ الأميركان لن يسمحوا بذلك. إنهم حريصون أن يتم كل شيء في بيوتهم وتحت أعينهم.

استخدمت كل علاقاتي الصحافية والديبلوماسية غير أنني لم أحصل على أية معلومة تدلّني على أن هناك مفاوضات سرية بين الفلسطينيين والإسرائيليين. كنت لا أزال أحتفظ ببعض الصداقات من الصف الأول في الفصائل الفلسطينية. أيضاً لا أحد منهم أخبرني أنه يعلم شيئاً عن هذه المفاوضات. كانوا جميعاً متّفقين، أن الفلسطينيين لا يقدرون على إخفاء الأسرار مهما كان نوعها. وأن الإسرائيليين لا يغامرون بأية

مفاوضات مع أناس لا يحفظون الأسرار ثم أن الأميركان لا يسمحون باللعب من وراء ظهورهم.

مع ذلك كنت أحس أن هناك شيئاً ما. لا أعرف من أين أتتني تلك اليقينية. ربما لثقتي الكبيرة في مدير جهاز المخابرات ببلدي. فهو رجل دقيق جداً، وله مقدرة على شمّ الأخبار. يسمونه بـ «القط الفارسي» ليقظته وقوة حاسة الشم لديه. فكّرت أن أغامر بكتابة تقرير مفبرك أضمنه بعض المعلومات الخاطئة حتى أبدو في عيون رئيسي على الأقل أنني مطلع وأن قنوات اتصالاتي جيدة. ازددت قناعة بتلك الفكرة حين فكرت بأن الرئيس ربما كان يريد أن يضعني أمام اختبار إذ كان دائماً يعتمد عليّ في ما يتعلق بشؤون القضية الفلسطينية!. وفجأة قلت لنفسي: ربما كان ينصب لي فخاً. ربما كان يريد أن يدفعني نحو الكذب. وعندها يجلدني في المكتب أمام مستشاريه. ولم يأت الليل حتى كتبت تقريري الأول الذي لم يتجاوز الصفحتين. ثم لخصت كل شيء في ثلاثة سطور: إن اتصالاتي الأولية لم تقدني إلى أية معلومة لحدّ الآن. أعتقد أن الأجواء لا تسمح بهذه المفاوضات السرية. وإذا كانت هناك مفاوضات فهي لا تزال بين يدي رجال من الصف الثاني. بعض السفراء العرب استغربوا ذلك. ربما حصلت على معلومات جديدة في أقرب وقت.

بعدما أرسلت تقريري، جاءتني فكرة اعتقدت أنها قد توصلني إلى معرفة بعض الأشياء. والفكرة ملخصها: أن أجعل صديقي الصحافي عبدالجواد أمين يقنع صديقته وزميلته الفرنسية «إيزابيل جيد» بإجراء حوار مع أحد الشخصيات الفلسطينية القيادية: ثم أجعله يوحي إليها ببعض الأسئلة.

تحمست إيزابيل للفكرة كما أخبرني عبدالجواد، لكنها قالت إن السياسة

لم تعد تستهويها. وإذا أتيحت لها فرصة إجراء حوار مع أحد الزعماء الفلسطينيين، فليكن التركيز على موضوع آخر غير السياسة. اقترح عليها عبدالجواد أن يكون التركيز على موضوع التسامح وتطهير الذاكرة من الآلام. أعجبتها الفكرة. ثم قالت:

- سيكون الحوار مزدوجاً. نصفه الأول مع قائد فلسطيني. ونصفه الثاني مع قائد إسرائيلي. سأجعلهما يتحاوران فوق ورق صحيفتي.

استغرق إنجاز الحوارين أكثر من أسبوعين. فقد سافرت إيزابيل إلى إسرائيل ثم ذهبت إلى تونس. كان الحوار الإسرائيلي مع رابين شخصياً. أما الحوار الفلسطيني فكان مع عرفات لا غيره. وحين ظهر الحواران، بدا كل منهما وكأنه يقول للآخر: «لنبدأ عهداً جديداً. لقد جرّبنا كل شيء ولم يعد أمامنا إلا الحوار». قرأت ما جاء في أجوبة عرفات ورابين بعناية فائقة. عثرت على بعض العبارات اللينة. بدا لي أن عرفات كان يخاف من أن يتعرض لعملية خداع. كما بدا لي رابين وكأنه يطمئن خصمه على أن من يكون جاداً في الحرب، لا بد أنه جاد في السلام. تكلم الاثنان عن «سلام الشجعان». وأكثر عرفات من ذلك الوصف. وقال إنه واثق بأن إسرائيل لديها ديغول. وعلى هذا الديغول أن يكشف عن نفسه وشجاعته. وكعادة عرفات الذي يرفع من صوته حين يكون مهيأً للقبول بأسوأ الاحتمالات، شدّد على «أن السلام الذي يريده شعبه هو السلام الذي يعيد كل شيء إلى نصابه. وأن أية مفاوضات قد تفشل إذا لم تضع جدول أعمال محدداً أمامها، وإذا لم تظل في الكتمان إلى حين الخروج بنتيجة».

كان ذلك كافياً بالنسبة لي لكي أجزم أن مفاوضات ما تجري في مكان ما. ولكن في أي مكان يا ترى؟ هذا ما لم أعرفه حتى كان الإعلان الرسمي عنها. أما رئيسي فقد عرف ذلك قبل الإعلان عنها. بيد أن ما أراحني أكثر هو أن رئيس مخابرات بلادي لم يكن يعرف أكثر مني. وأن الرئيس لم يخبره بأي شيء.

* * *

في كل مرة يطلب مني مثل هذه التقارير، أشعر بالقرف والاحتقار لنفسي يدهمني. فأنا سفير، ولكني سفير متمرّد أو بالأحرى سفير غير محترف إذ لا زلت أعتبر أن ما أكتبه من تقارير وأرسله عن طريق الشفرة أو أدسّه في الحقيبة الديبلوماسية يشبه كثيراً تلك التقارير التي ترفع إلى الشرطة يومياً. طرحت على نفسي أصعب سؤال، وهو ما إذا كنت بصدد خيانة نفسي وتاريخي؟ صحيح أنني موظف سام في هذه الدولة التي أمثّلها في أهم عواصم أوروبا: باريس، وهو امتياز كبير، إذ إن هناك سفارات لا يذهب إليها إلاّ المحظوظون من الديبلوماسيين. وصحيح أن الزمن قد تغيّر. وأن التقارير التي أكتبها ليست من نوع الوشايات، وإنما هي تقديرات وضع أو وجهة نظر أو استشارة أو فكرة مشروع. ومع ذلك، فإن نزعة التمرّد ضد الدولة تستيقظ بداخلي حالما أجد نفسي جالساً ومنهمكاً في كتابة مثل تلك التقارير.

كنت أتمتع بجميع امتيازات البورجوازيين، إذ عملت في الرئاسة برتبة مستشار. كانت أفكاري كثيرة وأحياناً كانت تزعج الرئيس لأنه يجدها قوية، لكنه لا يجد الوقت لمناقشتها. أحياناً كان يقول لي: «إن فكرتك جيدة. ولكن يصعب الأخذ بها أو تنفيذها». وأحياناً يقول لي إن

• «حماره القانوني وجد فيها ثغرات». كنت مستشاراً جيداً كما كان يقول لي، لكنه لم يأخذ طوال ثلاث سنوات من العمل معه في القصر الجمهوري من أفكاري إلا فكرة واحدة تتعلق بإعادة العلاقات مع السودان حتى نتمكّن من مراقبة نشاط الأصوليين. كان هم الرئيس أن يحارب هؤلاء الذين يسمّون بالأصوليين. كان لا يفهم كثيراً في عالمهم أو تاريخهم أو توزعهم الجغرافي، لكنه كان يخافهم كثيراً ويرهب من نشاطاتهم.

تلك الامتيازات استمرت بحوزتي وأنا سفير في باريس. كنت مولعاً بالحياة الجميلة واللذيذة، ولكن مركزي لم يكن ليسمح لي بارتياد المقاهي والمطاعم مثلما كنت أرغب. كنت أعرف أن سائقي الخاص يتجسّس علي إذ هو مكلّف بهذه المهمة في الأساس. فقد كان يتلقى أوامره مباشرة من السكرتير الثاني في السفارة المكلّف بأمن السفارة وإدارة خلايا مخابراتنا في أوروبا الغربية. كان السكرتير الثاني هو المسؤول عن كل شيء بما في ذلك الإدارة المالية. لم يكن ليزعجني ذلك البتة. فأنا بطبعي أتسامى فوق التفاهات، بل لأقل لم يكن يعنيني أن أتدخل في كل كبيرة وصغيرة. كنت أنظر إلى نفسي دائماً كبطل. بطل ينظر من الأعلى. بطل يتهكّم على كل ما يعتبره الناس الآخرون نجاحات أو علامات قوة.

هكذا تحوّل البطل إلى كاتب تقارير مبهمة. في البداية حين كنت مستشاراً في القصر، كنت مكلّفاً بكتابة خطابات ركيكة ومكرّرة وغارقة في الإنشائية. حتى الأرقام التي كنت أزج بها في الخطاب، كانت غير دقيقة، إذ كان على الرئيس أن يظهر للشعب في كل مرة أن الأرقام لا تكذب مثلما تكذب الكلمات. ومع ذلك، فإن الأرقام إذا كانت لا

تكذب، فهي أصلاً كانت كاذبة. إن الرجل المشاغب والمثقف الجدلي ومحارب حرب العصابات وحامل مشاكل العالم الثالث على ظهره الذي كنته في السابق، لم يبق منه سوى رجل شبيه بعبد دون سلطة. خارج القصر كانوا ينظرون إليّ على أنني من الرجال المؤثرين في الرئيس والموجهين لسياسة بلادي، غير أن الحقيقة كانت عكس ذلك تماماً. لم أكن أحسن فعل أي شيء سوى الاشتراك في إعداد خطب الرئيس. كنت مستشاراً من بين عشرة مستشارين. كانوا يصفوننا بأننا الوزارة الفعلية التي تقرّر كل شيء أو هيئة أركان الرئيس التي تخطط لكل شيء. وكان الوزراء يحسدوننا على تلك الامتيازات، امتيازات الاتصال بالرئيس في أي وقت نشاء، غير أن ذلك ليس صحيحاً. فنحن لا نراه إلا نادراً. وشخصياً كنت لا ألتقي معه إلا حين تقترب مناسبة وطنية ما. فهو رجل لا يحب النقاش ولا الجدل. كانت العبارة تعوزه، ثم إنه لا يمتلك أية موهبة في فن القول. كان يقنعنا بالإسراع إلى غلق أي موضوع أو ملف يوشك أن يحدث ضجة أو جدلاً. في الحقيقة كان يرغمنا على ذلك بكلمة واحدة فيقول: «كفى. كفى. سنتحدث في ذلك الموضوع عندما يحين الوقت».

فكّرت ذات مرة في تقديم استقالتي، وعرضت الفكرة على زوجتي فعارضتني وأوحت لي أنني إذا فعلت ذلك فإنني سأكون في صف الأغبياء. ثم عرضت الفكرة على أحد أصدقائي المخلصين، فسألني عن السبب؟

- في الحقيقة لا أملك سبباً موضوعياً سوى أنني أصبحت أشعر بالملل وأحياناً أشعر بأنني أقوم بخيانة مبادئي.

ـ وسألني: وما هي هذه المبادئ التي تقوم بخيانتها؟

هنا أيضاً قلت: إنني لم أعد أعرف كيف أسميها. كنت أعتقد أنني سأشارك في صناعة صورة جديدة للبلاد، لكنني أصبحت مورطاً في صناعة صورة للرئيس فقط.

صمت صديقي قليلاً ثم قال:

ـ الكل يحاول أن يصنع صورة له. أنت نفسك تبحث عن صورتك القديمة. أنت أيضاً لا زلت سجين الصورة التي صنعتها لنفسك. ثم راح يقنعني بعدم التفكير في الاستقالة. «ففي نهاية المطاف سيقبل الرئيس استقالتك ويضعك في الرف لتجد نفسك بعد برهة رجلاً لا يصلح لأي شيء. أنت الآن لن تعود إلى الغابات. لقد انتهى عصر حرب العصابات. ثم إن لا رجال من حولك، وبالتالي فسوف تذهب إلى العزلة أو إلى الجلوس في المقاهي. وربما ستذهب إلى السجن».

كنت قد بدأت أفقد طريق العودة إلى الماضي. لا بل لم يعد ذلك الماضي يغريني رغم أنه يدغدغني وينفخ في كبريائي عبر حنين دافئ ونغمات هامسة. ولكن من ناحية أخرى، فإني أعترف بأنني كنت معذباً. فالمستشارون لدى الرؤساء العرب، هم عاطلون عن العمل بمرتبات عالية وبرتبة وزراء. دخلت في حالة من الالتباس القاسي. كنت أعتقد أن الرئيس على استعداد لإحياء مصالحة سياسية وثقافية وبدء عهد انفتاح جديد. غير أنني اكتشفت أنه رجل بلا مشروع محدّد. فلا هو رجل تخطيط بعيد المدى ولا رجل تكتيك ماهر. كان يحسن تحيّن الفرص كما كان يحسن تصيّد الرجال. وكان قادراً على إخضاع هؤلاء لإدارته

وجعلهم بلا همم عالية بعد أن يمتص عصاراتهم في أعمال تافهة أو في الانتظار الذي لا ينتهي. كل رجل سياسي يحلم باليوم الذي يدخل فيه مركز القرارات الثقيلة. وأنا كنت أحلم بذلك اليوم. فالثورة بالنسبة لي كانت أسلوباً، وكانت قطيعة مع الوصاية ومع الأب. ولكن حين دخلت إلى القصر الرئاسي، شعرت باليتم كما لم أشعر به في مكان آخر. صحيح أنني حطمت جميع التماثيل التي عبدتها في السابق حين كنت لا أزال مولعاً بالماركسية. وصحيح أنني مزّقت كل الصور الجميلة التي نسجتها لأبطالي. ولكن حين بتُّ مستشاراً شعرت وكأنني مجرم قام بقتل أبيه ومبادئه من أجل إرضاء حاكم متجبّر ومتعجرف. باختصار، لم أعد أصلح للعمل في قصر لا يصنع إلا الأكاذيب إلى جانب رئيس لا يتقن إلا إخضاع الناس مع مستشارين تعاهدوا مع الشيطان على ألا يقتربوا أبداً من الحقيقة أو الشجاعة.

أبديت كسلاً غير معهود. أصبحت أفتعل الغيابات. ثم أصبحت متطرفاً في كتابة الخطابات. ابتعدت عن الإنشاء وكذلك عن الأرقام باعتبارها حشواً القصد منها التجريد من أجل دفع الناس إلى تصديق ما لا يصدق: وصادف أن وجدت ذات يوم حزمة من التقارير تتحدث عن المنجزات الوطنية وإلى جانبها توصية بكتابة خطاب لا يستغرق إلقاؤه أكثر من نصف ساعة، مع ملاحظة تقول: «إن الرئيس الفرنسي سيكون على مائدة الرئيس في ليلة الخامس من أيلول/سبتمبر ١٩٩٥».

كان الرئيس الفرنسي آنذاك هو فرانسوا ميتران لا غيره. فهو رجل محب للثقافة والمحاججة والخوض في الأمور الملتبسة. كما أنه أحد السياسيين النادرين القادرين على ارتجال خطبة متماسكة ذات أسلوب قوي. وبناءً

على تلك الخلفية أردت أن أكتب خطاباً مملوءاً بالاستشهادات التاريخية والثقافية.. وفعلاً، فإن ميتران وهو يستمع إلى الترجمة الفورية قد هزّه الإعجاب بأن صفّق أكثر من مرة. قلت آنذاك وأنا أشاهد الرئيس الفرنسي وهو يصفق:

ـ ها أنني نجحت في إثارة أكثر رجال فرنسا لؤماً. إنه لا يصفق لأحد. ولا أعتقد أنه يفعل ذلك من فرط الإعجاب.

في مساء اليوم التالي استدعاني الرئيس وشكرني على ما بذلته من جهد في ذلك الخطاب ثم قال لي:

ـ سيد سميح، ما رأيك في الذهاب إلى سفارتنا في باريس؟

لم أرَ في ذلك الاقتراح غير كلمة «باريس». شعرت بالراحة ولم أشعر بالإبعاد. شعرت بالتحرّر والخفة ولم أشعر قط بالتهميش أو المنفى. قلت في نفسي: ما دمت أنا عاجزاً عن فعل أي شيء في هذا القصر، فلماذا لا أجرّب السفارة؟ أنا هنا شبه عبد لمزاج ورغبات الرئيس. أما هناك فقد أستعيد حريتي وأصبح سيداً.

٦

حين عادت إيزابيل جيد من تونس، أحست أنها قدمت خدمة «للسلام». لم تهتم في السابق بما يسمّى بالسلام في الشرق الأوسط. ولكن ما قامت به مؤخراً حين التقت كلاً من رابين وعرفات وقد نجحت في دفعهما إلى الحديث عن السلام، جعلها تتحمس لإنجاز كتاب عن العالم العربي. هناك ثلاث أفكار مركزية قد سيطرت على إيزابيل وهي تفكر في إنجاز ذلك الكتاب. الفكرة الأولى هي المد الأصولي في العالم العربي الذي راح يضرب بقوة على أبواب أوروبا. الفكرة الثانية كانت تتعلق بمستقبل الديموقراطية في العالم العربي. أما الفكرة الثالثة فتتمحور حول الطغيان في الشرق الأوسط، أي تركيبة السلطة في العالم العربي. بعد تفكير طويل، بدا لإيزابيل أن بالإمكان أن يكون الكتاب شاملاً للأفكار الثلاث. ويمكن أن يحمل العنوان التالي: «العرب: الأصولية، الطغيان والديموقراطية». لم تكن إيزابيل لتهتم بالعالم العربي لو لم تقم بجولات طويلة في مصر والعراق والمغرب واليمن والجزائر، ثم إن علاقتها العاطفية بهذه القطعة من العالم ربما تعود

بالأساس إلى زوجها الأول الذي كان جزائرياً. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الكتب غالباً ما تضع صاحبها على درب الشهرة. وإيزابيل تريد أن تدخل إلى عالم المشاهير بأي ثمن. لا ينقصها لا الجمال ولا الفتنة ولا الذكاء. ولا حتى تلك الكمية الضرورية من السذاجة التي يختزنها المشاهير.

حين طلقت عبدالرحمن العنابي، الجزائري، العربي المسلم، بدت وكأنها ولدت ثانية إذ نزعت عنها حملاً ثقيلاً. لم يكن زواجها إلاّ مغامرة من مغامرات فتاة كانت تريد أن تتحدى تلك الثقافة التي كبلتها بمعايير ورؤى لا تمت للعصر بأية صلة. ظلت حزينة لبعض الوقت لأنها كذلك فقدت تلك الرغبة في امتلاك عالم آخر من خلال زوجها عبدالرحمن، غير أنها تجاوزت ذلك الحزن منذ أن ارتمت في مغامرة السفر والصحف. زواجها الثاني كان من مارسيل وهو الضابط المتقاعد وقد تمّ التعارف في حرب الخليج. فهذا الرجل أحبها لمدة طويلة ولم تعره أي اهتمام ولكن مع الوقت أصبحت تعطف عليه. كانت تعرف أن أسوأ شيء بالنسبة لأمرأة مثلها أن تتزوج رجلاً بسبب الرحمة. ومع ذلك فقد فعلت ذلك الشيء الأسوأ. كان مارسيل على استعداد لكي يتنازل أمامها عن كل شيء. كان تقريباً بلا شخصية بالرغم من أصوله العسكرية، بل كان ميالاً بطبعه إلى الاستسلام أمام النساء القويات (رغم تاريخه العسكري). أما هي فلم تكن تحب ذلك النوع من الرجال الذين يبدون تهذيباً مبالغاً فيه يخفي ضعفاً لا مثيل له.

علمها عبدالرحمن بعض القسوة لما يتمتع به من بطش وجبروت طبعا شخصيته. كما علّمها القدرة على الخضوع لإرادة من نحب. لكنها مع

المعاشرة أصبحت غير قادرة على تحمل كل تلك القسوة. حاولت الابتعاد عنه في مرات عديدة لكنها كانت تعود إليه حالما يحضر أمام عينيها. ولشد ما كان يفزعها أن ترى عبدالرحمن، ذلك القاسي إلى حد النقمة يبكي أمامها لأنه أوجعها، تبكي قليلاً ثم تحضنه قائلة:

– ألهذه الدرجة أنتم قادرون على جعلنا ضعفاء بدرجة ضعفكم؟ ألهذه الدرجة أنتم أقوياء وضعفاء في الوقت نفسه؟

يصمت عبدالرحمن ويعود إلى حالته الأولى، حالة الرجل القوي، الرجل الذي استعاد رجولته، أو الطفل الذي استعاد لعبته.

وسألته مرة وهي تشد على يده:

– هل أنا إنسان أمامك يا عبدالرحمن أم مجرد لعبة؟

غرق عبدالرحمن في صمته المعتاد. كان يحمي سلوكه الغريب بالصمت. كذلك كان يخفي ضعفه في الصمت. ثم إن كلماته تصبح غير مركّزة حين يضطر إلى كلام لا يرغب في قوله. لكنه في هذه المرة تكلم على غير عادته فقال:

– الناس ينقسمون في نظري إلى فئتين. فئة تتلقى الأوامر وأخرى تصدر الأوامر. من ناحيتي ما زلت أوجد بين الفئتين في المنطقة الرمادية. ولذلك فإن كلامي لن يكون له أي معنى ما لم يملك القوة لكي يتحول إلى أوامر.

* * *

كانت إيزابيل تتحدث إلى جواشيم سورات في بيته أمام ثلاثة من أصدقائه الموسيقيين، حين اعترفت أن كتابها عن «العرب: الأصولية، الطغيان والديموقراطية» كان ثمرة زواجها الأول من الجزائري عبدالرحمن.

ولا بد أن أحد الجالسين قد علق في خاطره:

ـ ما دام لم يزرع في أحشائها طفلاً عربياً، فقد زرع في دماغها كتاباً عن العرب.

لا أحد من الحاضرين قد قرأ الكتاب. فهو لا يزال أصلاً مجموعة من الأفكار والهوامش والتخطيطات غير المنجزة. وباستثناء سورات الذي كان علم بمشروع ذلك الكتاب، فإن الآخرين الذين راحوا ينصتون لإيزابيل وهي تتحدث بشهوانية مفرطة عن كتابها بدا لهم أن الكتاب موجود في الأكشاك. وسألها أحد أصدقاء سورات، الذي كان جالساً إلى جانب البيانو.. ذلك الذي يمكن وصفه بأنه كان أكثر المتحمسين للإطلاع على كتابها:

ـ هل يمكن أن تكون للكتابة وظيفة وجودية هي التعويض عن ثقل الحياة وشماتتها أو نكرانها العبثي؟

كان السؤال مصوغاً على نحو مكتنز وغامض. وربما كان حاملاً لسخرية خفيفة ودافئة، فتولى سورات شرحه على النحو التالي:

ـ إن صديقي فرانسوا يريد أن يعرف ما إذا كان الإبداع بشكل عام هو تعويض على فشل ما في الحياة؟.

ربما قالت إيزابيل لنفسها: كم هذا مزعج. إنه يريدني أن يعود بي إلى قصة قديمة. وربما علقت: «هذا الرجل إما أنه استفزازي لبق وإما أنه حشري نزق». ثم راحت تقول:

ـ ما نعرفه خلال العمل، أي عمل، هو قيمة مضافة. أما ما نعرفه بعد العمل فهو قيمة مكتسبة. لا أدري ما إذا كان أولاً عبدالرحمن هو صورة نمطية عن العرب. أعتقد أنه نموذج

خاص. حين عرفته لم يكن يفكر بطريقة مختلفة عني. فهو قد ولد وتربى هنا في فرنسا. لم يأت جاهزاً من الضفة الأخرى. كل ما كان يوجد في رأسه قد اكتسبه هنا في فرنسا. ربما تعرّض لصدام ثقافي. ربما شعر باليتم، ربما أنا التي جعلت منه شخصاً آخر. شخصاً ساخطاً ومتذمّراً.

بدت إيزابيل في عين فرانسوا امرأة صريحة. أما في عيون الآخرين فقد بدت ثرثارة أو ساذجة. ولو أن سورات لا يعرفها جيداً، لقال: «إنها فعلاً امرأة مضجرة وضجرة وحاملة لعقدة ذنب». تنهدت إيزابيل قليلاً ثم عادت لتقول:

ـ حين نتعرض إلى الخدوش في الحياة، يمكن أن نعرف إن كنا أصحاب نفوس وضيعة وفظة أو أصحاب نفوس نبيلة!!

كانت تريد أن تستمر في الكلام، غير أن سورات نطق قائلاً:

ـ كان طرياً حين كان شاباً يافعاً. ولما نضج الرجل بداخله، استرجع الجد الذي صودر منه حين كان طفلاً يلعب. هذه الجملة أعتقد أنها تنسب إلى الفيلسوف «نيتشه». وقبل أن تعلق إيزابيل، قال فرانسوا بخبث:

ـ أعتقد أن نيتشه قال أيضاً: «حيث لا يلعب الحب أو الحقد دوراً في حياة المرأة، تكون المرأة فاترة».

كان الصديقان الآخران قد راحا يدردشان حول برنامجهما المسائي. قال الأول: لا بد أن أتناول العشاء الليلة مع ستيفاني. أما الثاني فقال: سأحضر الليلة مسرحية «هاملت» التي تعرض حالياً بمسرح الـ «شاتيليه». ولم ترغب إيزابيل في أن تفتح دفتر حياتها الخاصة لكي تجعل منه

موضوعاً للجدل، فنهضت واقفة وهي تقول:

ـ سيد سورات، لا بد لي أن أذهب الآن. إن مارسيل ينتظرني في البيت على العشاء. وأعتقد أنه عاد الآن من رحلته الأفريقية. إنه مولع بعالم الكومبيوتر كما تعرف.

حين استعدت إيزابيل للخروج قام الجميع لتوديعها. وقال لها فرانسوا:

ـ لقد هزتني طريقتك في التفكير.

إقترب منها الرجلان الآخران اللذان لم تسمع صوتهما، فقال الأول: أنا بول، تشرفنا بمعرفتك.

ثم قال الثاني: أنا كريم، من المغرب. إنك امرأة رائعة. أما سورات فقد سار معها إلى الباب وهو يحيطها بوقاره النبيل. ذلك الوقار الذي قد يبدو على أنه مكر لو أن عبدالرحمن أيوب زوج إيزابيل السابق قد نظر قليلاً في عينيه، فعبدالرحمن يملك نظرة ثاقبة وموهبة في تشريح الأشخاص الذين يقابلهم. وهو كثيراً ما كان يوبخ إيزابيل لأنها تبدو له ساذجة. بل هي أكثر من ساذجة لأنها تتوهم أنها على دراية بنوازع الرجال. والآن وقد تزوجت مارسيل، فهي تعتقد أن ذلك النوع من الرجال هو الذي يناسبها في الحياة حتى وإن كان لا يناسب ذوقها الجمالي. لقد تعبت من عبدالرحمن الشكاك، الماكر، المتأهب دوماً والنزق دائماً. تعبت من رجل يفكر في جميع الاتجاهات على نحو ماكر. ولولا طلاقها منه لما تمكنت من العمل في الصحافة.

كان ما تفكر فيه آنذاك، وهي على عتبة الباب وسورات الخمسيني يرمقها بنظرات ناضجة لكنها مبحوحة، هو نفسه الذي نطق به سورات وهو يقبل يديها كما يفعل النبلاء، أو كبار المبدعين:

ـ لو أنك لم تغامري بالطلاق من عبدالرحمن، فإن عملك كصحافية سيكون مستحيلاً.

تساءلت لبرهة في داخلها: كيف يمكن لهذا الرجل أن يقرأ أفكاري؟ ثم أجابت نفسها كما تجيب النساء عادة: «لا بد أنه يحبني». ثم اختفت داخل المصعد.

غالباً ما يفشي أصحاب الشخصيات القوية أسرارهم لا بألسنتهم، ولكن بعواطفهم الجياشة، فهم يملكون طريقة خاصة في إشاعة السعادة، أي جزء من السعادة التي تحط على أكتافهم، كما لو أنهم يعرفون أنها ستفر بعد حين بعيداً عنهم. وهكذا حين عاد سورات ليجلس أمام البيانو، لاحظ عليه فرانسوا الثلاثيني الذي لا يعوزه الذكاء ولا النزق، «إنه مغمور بسعادة ما.. إنه رجل أصبح تحت قبضة حواسه المرتابة. إنه رجل مأخوذ إلى أكثر من حالة». وقبل أن يتكلم فرانسوا، قال بول لسورات:

ـ ماذا ستعزف لنا اليوم سيد سورات؟

كانت الموسيقى هي العالم الآخر الذي ينقذ سورات من السقوط في ألاعيب الحياة. فهي الشيء الوحيد الذي يجعله متوثباً كنمر. أما الآن، فإن غياب إيزابيل قد جعله هو الآخر متوثباً وحاداً وسامياً في الوقت نفسه. لذلك أراد أن يتحدث عما تحدثه الرصانة العميقة من غليان في نفوس الكبار، لكنه قال:

ـ سأسمعكم اليوم قطعة كلاسيكية لموزارت. هي رباعية خاصة عزفها على البيانو تقليداً لبيتهوفن.

خلال العزف، أحس سورات أنه تسامى عن اللذات الحسية. لم يعد ينتمي إلى ذلك العالم المتكالب. ثم وفجأة، وكمن أحس بإرهاق

مفاجئ، توقف عن العزف للحظة ثم عاد يقول:

ـ ما رأيكم في سماع جزء من «النشيد الماسوني».. لا. لا. سأعزف لكم الموشحة الدينية التي تنشد على جثة الميت والتي ألفها «موزارت» قبل موته بقليل.

كان سورات يريد أن يدخل إلى عالم الموسيقى، لكنه كان واضحاً أنه غير قادر في تلك اللحظة أن يتغلب على جسده. ولأول مرة يكتشف فرانسوا وهو يفكر في داخله «أن الحب أقوى من الموسيقى». لكن سورات نطق بذلك على طريقته:

ـ أعتقد أن الموسيقى ليست أقوى من الحب.

٧

أذكر جيداً ذلك اليوم الذي خرجت فيه من شقتي بدون عودة. كان يوم سبت متأجج بالغضب.

قلت لإيزابيل:

– لن أعود إلى هذه الشقة بعد اليوم. سأبحث عن صيد آخر، صيد كبير.

بعد يومين هاتفتها قائلاً: «يمكنك أن تذهبي إلى المحامي وتطلبي الطلاق». ثم عزمت على السفر إلى السودان. لم يكن القرار قراري لوحدي. كنت قد وقعت تحت ضغوط كثيرة خارجية وداخلية لكي أسافر إلى السودان. فقد خابرني صديقي يزيد رضوان من الباكستان أكثر من مرة وطلب مني التوجه إلى الخرطوم مباشرة «لأن الجماعة في انتظاري». بعد ذلك خابرني من قطر وقال لي: «أريدك أن تذهب حالاً. سأعود بعد أسبوع إلى باريس ولكن أرجو أن تكون قد سافرت. كل شيء جاهز». خطر ببالي وأنا أصعد سلم الطائرة المتجهة إلى القاهرة، أنني أغادر أرض طفولتي إلى أرض أجدادي الأولين. لم أزعج نفسي بالبحث عن

مبررات، غير أن مثل هذه الأمور لا تعالج بهزة كتف أو بطرد الحقائق من ذهني. إذ صحيح أني لست فرنسياً بالمعنى الكامل للفرنسي، ولكن من هو الفرنسي الذي يدعي أن دماءه فرنسية مئة في المئة؟. فأمي التي تقول إنها فرنسية ولطالما افتخرت بانتمائها إلى أهل الغال، كانت في الحقيقة حفيدة لأحد الجنرالات الألمان الذي يحمل اسماً منتشراً بكثرة في ميلانو: «سبيردجو». أما أمها فهي تعود إلى «الباسك»، وهؤلاء لا يمتُّون بأية صلة عرقية أو ثقافية لا إلى الفرنسيين ولا إلى الإسبان.

إن أمي الفرنسية وولادتي على أرض فرنسا وكذلك لغتي الأولى الفرنسية.. كل ذلك لم يقنعني بأنني فرنسي، وذلك لسبب واحد اكتشفته فيما بعد، ولأقل متأخراً، هو أنني مسلم. فأنا ابن مهاجر جزائري مسلم ظل يعتقد إلى آخر يوم في حياته «أن فرنسا إمبراطورية كبرى شاركت شعوب كثيرة في صناعتها. لكنها تظل دائماً أصغر بكثير من الإسلام». ويمكن لأي مجادل أن يقول لأبي «ولكن كيف تجرؤ على مقارنة بلد بديانة؟» إلا أن منطق أبي يبدو لي اليوم أكثر تماسكاً. فإذا كنت أعرف اليوم أن إسلاميتي أكبر من فرنسيتي، فإن أبي يعرف منذ البداية أن فرنسا قد تتسع لبعض المسلمين، لكنها لن تتسع أبداً للإسلام!.

كانت دراستي للفيزياء قد أبعدتني عن قراءات كثيرة. أبعدتني عن قراءة التاريخ وقراءة الأديان وحتى الآداب. كنت تقريباً عالماً أعمى حين أصبحت مهندساً في الفيزياء النووية. تخرجت من أعرق جامعات فرنسا في العلوم، جامعة «دورسيه». كنت أعرف عن تاريخ فرنسا أكثر بكثير مما أعرفه عن تاريخ بلادي الأم الجزائر. بعد تخرُّجي بسنة واحدة، صادف أن التقيت بصديق من المغرب الأقصى اسمه علي. وهذا العلي هو الذي

سيدخلني عالماً آخر من المعرفة حين جعل علومي الفيزيائية غير عمياء. كنت أعرف الكلام باللغة العربية ولكني لم أنجح إلا متأخراً في نطق حروفها على نحو صحيح. كنت أتكلمها بصوت خفيض من فرط حيائي وعدم إتقاني لتراكيبها. شيئاً فشيئاً راحت اللغة العربية تسري في كياني. كانت في البداية مجرد كلمات وتعابير بسيطة ثم أصبحت تلك الكلمات تأخذ طريقها لتصبح حكاية مثيرة بداخلي. وعلى الرغم من أن المنفعة المتأتية من إتقان اللغة العربية كانت قليلة، إلا أنني أصبحت مدمناً على القراءة بها بصوت عالٍ، مدمناً على سماع الأغاني العربية، وكذلك مدمناً على سماع تجويد القرآن.

بدت لي القاهرة في ذلك الشتاء الدافئ على عكس ما كنت أتصور. لم أجدها جافة أو وسخة أو كسولة كما يتصوّر أي رجل يعيش في الغرب. كانت ناشطة وظريفة وحاضنة لجمال لا ينتهي وأناقة لا تضاهى. فمنذ أن خطوت أولى خطواتي في شوارع القاهرة، تيقنت أنني وقعت في ما يسمى بورطة المبدعين، حين يعشقون المدن كما لو أنهم يعشقون النساء.

مع ذلك كان عليّ أن أغادر القاهرة إلى الخرطوم بعد يومين. وهناك سأغمض عيني قليلاً من شدة الرياح التي استقبلتني وأنا لا أزال في المطار. كانت معدتي توشك أن تخرج من فمي، حين قال لي أبو العباس:

– إن سحر هذه البلاد سيكشف عن نفسه حالما تهدأ هذه العاصفة. أهلاً بك في السودان يا عبدالرحمن. ثم راح يسألني:

– كيف حال باريس، كيف حال الأهل، كيف حال الجماعة؟

ام امه إلا بكلمة واحدة ظللت أعيدها طوال الطريق:

- جيد، جيد، جيد، جيد.

و ...باب الفندق الذي بدا وكأن أبّهة الإنكليز قد غادرته من زمان، قال لي أبو العباس: ستنام الليلة هنا في هذا الفندق. وغداً سآتي لأصطحبك إلى الجماعة. كان المساء لا يزال بعيداً. فكّرت في الغد كم سيكون ثقيلاً في هذا الفندق الموحش. جاءني «غارسون» فحمل حقيبتي إلى الغرفة ...دون أن يمر على الاستقبال. ثم طلب مني أن أسير وراءه.

ام ...ذلك «الغارسون». كان سواده قاتماً. سألته ما إذا كان من ...فلم يجبني. ثم سألته ما إذا كان يفهمني حين أحدثه، فابتسم ولم ينطق بكلمة. قلت في نفسي: «هذا الغارسون إما أنه رجل أمن وإما أنه لا يعرف اللغة العربية».

... تلك اللحظة أصبحت الخرطوم تضغط عليّ بروائحها وشوارعها ...المغبرة ومساجدها المتواضعة. لم أعرف نوعية المشاعر التي كانت ...، ولكن حماستي للانخراط في مغامرة سياسية كانت تفوق كل ...، كانت هي طاقتي ضد اليأس وضد البلادة وكذلك ضد الانتظار. ...مضى اليوم الأول ولم يأت أبو العباس. ثم توارى اليوم الثاني ولم يأت أحد يسأل عني. وفي اليوم الثالث، وكان يوم جمعة، جاءني منذ الصباح رجل آخر غير أبي العباس، فقدّم لي نفسه بسرعة قائلاً:

- أنا اسمي طلحة. اعذرني، كان لا بد أن أحضر بالأمس لكن لا عليك. الزمن في الخرطوم يبدو وكأنه لا يتقدم أو أنه يتقدم فوقها. اليوم سنصلي معاً صلاة الجمعة ثم نتحدث في كل شيء. في الحين شعرت أن تواطؤاً عذباً قد ولد بيني وبين

طلحة. كل ما كان يقول لي كان يقوله بصدق. هكذا أحسست.

كان طلحة رجلاً في الأربعين. نحيفاً وطويلاً وأنيقاً وصاحب ابتسامة أخاذة. صوته كان دافئاً وليس به أية غلاظة. كان يبتسم مع كل كلمة يقولها. ثم كان يستغفر الله بعد كل جملة يقولها. سألني عن خدمات الفندق إن كانت جيدة.. ثم وكمن انتبه إلى أنه قد يكون ارتكب خطأ، قال:

ـ السودانيون يخدمون جيداً في كل فنادق الدنيا، إلا في فنادقهم.

ازداد إعجابي بطلحة إذ وجدت فيه رجلاً غير متعصب لبلاده كما يفعل جميع العرب. «كانت الوطنية اختراعاً أوروبياً»، هكذا قال لي فيما بعد حين أصبحنا أصدقاء في المعسكر، فقلت له:

ـ منذ اليوم الأول شعرت أنك تختلف عن الآخرين.

في المعسكر الذي كان يعرف بمعسكر أبي ذر الغفاري، والذي كان يبعد على الخرطوم حوالى ٤٠ كلم، تعرفت إلى عشرات الأصدقاء الآخرين الذين جاءوا من ليبيا واليمن والمغرب وتونس والجزائر ومصر، وغيرها. كنت أتساءل أحياناً ما إذا كنا جميعاً ولدنا أو جئنا لهدف واحد.. وذات يوم سألت طلحة الذي كان يلقي علينا دروساً في الجهاد السياسي وأصول الدين وسير الصحابة والاستعداد للتضحية:

ـ هل ترانا نسير في الطريق الصحيح؟

أجابني طلحة بقسوة إذ خاف أن يكون الشك قد تسرّب إليّ مع التعب أو الملل:

ـ يا عبدالرحمن خليك رجل عاقل. وهل نحن نعبث؟ إن الله لن يعثر جهود مجاهديه متى كان هؤلاء مؤمنين بأعمالهم.

وبعد أن مرّت لحظات ـ أظنه كان خلالها يبحث عن كلمات مناسبة ـ أضاف يقول لي بهدوء:

ـ إن أخوة كثيرين قد أخذوا طريقهم إلى أفغانستان والجزائر والشيشان والبوسنة. لا تيأس نحن في حاجة إليك. الإسلام كله في حاجة إليك يا عبدالرحمن. أو ـ لست عالم فيزياء؟.

* * *

في الطرف الآخر والداكن من مدينة باريس، وتحديداً في الدائرة العشرين المحاذية للضاحية الصناعية الشمالية، يوجد جامع كبير يسمى «جامع الدعوة». ولكن مسلمي تلك المنطقة من الجيل الثاني كانوا يسمونه «جامع ـ ستالين غراد» على اسم محطة المترو المجاورة. وباعتقادي فإن ذلك الجامع هو أكبر جوامع باريس، أو لنقل فرنسا على وجه التعميم. هناك، في ذلك الجامع القديم والمهيب، أصبحت أحمل لقباً آخر. كان اسمي «عبدالرحمٰن العنابي»، فأصبح «عبدالرحمن أيوب». ثم غدا بعد فترة «أبو يحيى». أعجبني اسم أيوب إذ كان سهل النطق، كما أعجبتني كنية «أبو يحيى» لأنها تحمل معنى الحياة. كان الشيخ إبراهيم هو الذي أطلق علي تلك الكنية، قال لي في البداية: «أن يحمل المرء اسماً ثانياً هو أن يتوكل على الله ليبدأ جهاده. آباؤنا يطلقون علينا الأسماء التي تناسب ذوقهم ومركزهم وثقافتهم وأصولهم. أما الحياة فتطلق علينا الأسماء التي يختارها لنا الله». وضعني الشيخ إبراهيم منذ الوهلة الأولى تحت سطوته. قال:

- إني أبارك فيك هذه المواظبة على الصلاة. إن هذا لا يقوم به إلا عاقل أو عالم.

عرفت فيما بعد أن الشيخ إبراهيم كان أحد رجال جبهة الإنقاذ الجزائرية في فرنسا. فحين وجد ميتاً أمام مترو ستالين غراد، دب الذعر بداخلي، غير أن ذلك الذعر ما لبث أن تحول إلى طاقة للتحدي عندما تحولت جنازته إلى مظاهرة عارمة سار فيها مسلمو العرب وإفريقيا وآسيا وأوروبا جنباً إلى جنب وهم يهتفون بالقصاص.

بعد ذلك أصبح «جامع الدعوة» محاطاً بأكثر من سيارة أمن. بدا أنه تحول إلى مصيدة، لكن عدد المصلين ازداد.. وأصبحت صلاة الجمعة ترعب الأمن الفرنسي إلى حد إعلان الطوارئ في تلك المنطقة. كان «جامع الدعوة» من حيث المساحة فسيحاً بالرغم من واجهته المسطحة والخالية من أية كتابة تجعل التعرّف إليه أمراً صعباً. فالبناية عبارة عن مستودع تمّ شراؤه في نهاية السبعينيات بأموال دولة خليجية كما يقال. كان الطابق الأول مخصصاً لقاعة محاضرات ومكتبة صغيرة وقاعات متوسطة الحجم لإعطاء الدروس في العربية وأصول الدين. أما الطابق السفلي فهو ذاته الجامع، أي المسجد. وهو فضاء شبيه بالكهف تقدر مساحته بألف وخمسمئة متر مربع تقوم في وسطه أعمدة متناسقة إلى حد ما. وأما السقف فكان يدل على أن المسجد الذي نصلي فيه اليوم ربما كان قاعة حفلات في الماضي القريب. فالبقع السوداء ذات الشكل المستطيل هي بلا شك آثار للوحات اقتلعت من مكانها. ومنبر الإمام (المحراب) الذي كان الشيخ إبراهيم يدعو من فوقه كل يوم جمعة إلى نصرة الإسلام في كل مكان من كشمير إلى الشيشان، ربما كانت المنصة

التي يقف فوقها المغنون فيما مضى لتأدية وصلاتهم.

في أيام الجمعة يأتي عدد كبير من المراهقين للصلاة، أغلبهم من أبناء المغرب العربي ومن مصر أو من بلدان أفريقية في جنوب الصحراء. ولا يخلو المشهد من شباب من أصول فرنسية. تختلط الأزياء والثقافات والأعراق في موكب مهيب. ويحرص كل منهم على الظهور في لباسه التقليدي، وهكذا نحصل على لوحة زاهية جداً تحت سماء باريس الداكنة. الجلابيات البيضاء مع البرانس البنية والسوداء مع القفاطين الزرق مع قمصان أفريقيا المزركشة. ويمكن أن نضيف إليها قمصان التزلج التي يرتديها عادة الجيل الثاني وسروايل الرياضة والمعاطف الملونة فنحصل على مهرجان من الألوان.

يبدأ المصلون بالتوافد على القاعة السفلى في حدود منتصف النهار فيصطفّون في صفوف مستقيمة متراصة قبالة المحراب وقد يمّموا وجوههم باتجاه مكة، وذلك في خشوع وتبجيل. النساء لا يصلين مع الرجال لكن وجودهن مسموح به في قاعة الاجتماعات بالطابق الأول ليتابعن الصلاة عبر شاشة تلفزيونية ضخمة. وعندما يدخل الإمام، يقف جميع المصلين الذين يزيد عددهم في العادة على ألفي شخص تبجيلاً له واستعداداً لأداء الصلاة. الإمام، بقامته النحيفة ولحيته المهذبة بعناية وبرنسه الأبيض وكشطته البيضاء ذات الخطوط الصفراء، لم يكن متقدماً في العمر. بل أراهن أنه من مواليد أوائل الستينيات. كان فصيحاً ومتشبعاً بفن الخطابة ومزدوج اللسان. نصف الخطبة يلقيه بعربية جميلة ومهذبة وذات تناغمات متوازية، والنصف الثاني يلقيه بفرنسية واضحة وذات مقاطع متناسقة. هذا الإمام الذي عرفت أن اسمه محمد التلمساني، كان يعمل

كمحام في باريس، وقد تخصص في قضايا المهاجرين. وربما لسوء حظه، فقد ورد اسمه في لائحة المطرودين من فرنسا إلى بوركينافاسو، بعد حملة مداهمات قام بها البوليس الفرنسي إثر عملية قتل جماعي راح ضحيتها مواطنون فرنسيون في الجزائر. قرأت في الصحف أن محمد التلمساني رجل خطير. وقال وزير داخلية فرنسا القوي آنذاك، بأنه «مضطر للقبض على الذين يمثلون خطراً على بلادنا». بعد جهود طويلة قام بها رجال دين كاثوليك، عاد الإمام التلمساني إلى باريس، لكنه لم يعد إلى مسجد الدعوة. وجاء إمام آخر سرعان ما نسجت حوله حكايات مذهلة. فهو حسب بعض الذين عرفوه، ابن حركي جزائري يتعاون مع البوليس الفرنسي وليس فيه نفع للمسلمين. تراجع عدد المصلين، لكنني واصلت الذهاب في أيام الجمعة للصلاة وراء ذلك الإمام الجديد، وكان يدعى «عبدالله بوهالة» على ما أذكر. وجدته رجلاً يتمتع بفن الإقناع. وحين سمعته يقول: «لا بد لفرنسا أن توقف دعمها لنظام الجنرالات في الجزائر»، أحسست أن هذا الرجل ضحية دسائس ووشايات كانت تصدر عن مكتب وزير الداخلية مباشرة.

في إحدى المرات، وبعد انتهاء الصلاة، شاء الإمام أن يتحدث إلى بعضنا، وكنت أحدهم. وذلك كان عن طريق المصادفة إذ كنت أقف في الصف الأول من المصلين. وفي ومجرى اعتراضه على ما يجري في الجزائر قال الإمام: «إن البلاد تحترق. إن جنرالات فرنسا يريدون القضاء على الإسلام هناك. أما البوليس هنا فيريد استيعابنا أو ما يسمى باندماجنا بعد أن نكون قد تخلينا عن هويتنا. أي بعد أن نكون قد أصبحنا خرقاً بالية». سأله أحد الواقفين بالفرنسية:

ـ ماذا عسانا أن نفعل سيدي الإمام؟ إننا نقدم التنازلات تلو التنزلات.

أجاب الإمام على نحو مهذب: من السهل أن نجعلهم يدركون بأن السياق لا يسمح بذلك. من حسن الحظ أن ديننا لا يمنعنا من التكيف أو التأقلم أو بدرجة أعلى من الاندماج.

ورأيت أن أجادله في ما قال فتكلمت وأنا أختار كلماتي بعناية:

ـ الدين في بلد مثل فرنسا، رغم كونها تعتبر كبرى بنات المسيح تاريخياً، ليس له وزن في الدولة. وهذا قد يصدم معتقدات المسلمين. أو بالأحرى هذا ما يجب علينا فهمه.

نظر إليّ الإمام بعينيه الحادتين ثم قال:

ـ اسمع يا أخي.. ولكن ما اسمك الكريم أولاً؟

أجبته: «دكتور» عبدالرحمن (أضفت لقب دكتور قصداً).

ربما أزعجته كلمة «دكتور»، لكنه تكلم إليّ بحماسة:

ـ أخي عبدالرحمن، حين نطالب بوضعية للإسلام مماثلة للبروتستانت أو اليهود، فلا يعني ذلك أننا نريد أن نجعل من الدولة الفرنسية دولة إسلامية. إننا فقط نريد بناء مساجد جديدة لنتخلص من الأقبية القذرة. نريد إدخال بعض التحويرات على برامج التعليم. نريد كذلك الاعتراف بنا كمجموعة مختلفة لا كمجموعة مشبوهة. وليس من الضروري أن يكون الأسلوب عنيفاً. ولكن الحوار سيجعلنا أكثر تميّزاً، وأكثر قوة..

كانت تلك الدردشة مع الإمام ضرورية جداً بالنسبة لي كي أتأكد

بنفسي مَن يكون هذا الإمام الجديد. بدا لي أنه صاحب منطق. وهو يذهب مباشرة إلى ما يريد قوله. ثم إنه رجل على قدر كبير من الثقافة. أذكر أن تفسيره لقيمة الحجاب لدى المسلمين قد أعجبني. فهو بحسب رأيه رمز ثقافي وليس دينياً. وهو يعكس الاختلاف بين المفهوم الغربي للجمال الموروث عن الإغريق والمفهوم الشرقي للجمال القائم على التجريد، حتى أن الخط كان أرقى أشكال الفن..

٨

يمكن أن أحدّد تاريخ تمردي الثقافي ببداية عقد التسعينيات. كانت الشيوعية تتساقط مثل الأشجار اليابسة. لقد جفت ينابيع ذلك الزخم الأيديولوجي الذي عرفه القرن العشرون. لم يعد هناك ما يغري على التغيير. بدا كل شيء وكأنه وهم. من ناحيتي رأيت أن «السيناريو الشيوعي» قد انتهى وقفز السيناريو الليبيرالي ليصبح هو معيار النجاح. غير أنني كنت أبحث في كل ذلك عن المعنى. كان المعنى بالنسبة لي مزدوجاً وهو الحرية والمساواة. لا شك أن البشرية كانت دائماً تبحث عن ذلك المعنى المزدوج لكنها لم تبلغه. ربما وجدت شيئاً من المساواة والعدالة في النموذج الشيوعي. وربما حققت جزءاً كبيراً من الحرية في النموذج الليبيرالي. لكن ذلك المعنى المزدوج لم يتحقق قط لا في الشرق ولا في الغرب. انتصرت الحرية على المساواة، فبدت متوحشة وذات نزعة شمولية. ولو أن المساواة نجحت فإنها كانت أيضاً ستكون جافة وشمولية.

في تلك النقطة، النقطة التي بدت لي بعيدة عن الإنسان، ولد بداخلي ما

يمكن أن أسميه بصراع الثقافات. فأنا لست عربياً ولست فرنسياً، عندما أذهب إلى الجامع أشعر بارتياح لأن الناس يصافحونني بحرارة كما لو كنت صديقاً لهم. أما عندما أذهب إلى البناية التي أسكن بها منذ سنوات، أشعر باليتم والبرودة لأن لا أحد يقول لك «صباح الخير» أو «مساء الخير». شيئاً فشيئاً اكتشفت أنني مسلم وفقط. ثم اكتشفت أن المسلمين في فرنسا يوجدون في أسفل الهرم الاجتماعي، وأن أسباب ذلك معقدة، دينية وسياسية وعرقية. ففرنسا علاوة على أنها لم تتمكن من بلورة سياسة للقضاء على الفروقات الاجتماعية، فإنها كذلك لم تخرج قط عن فكرة الدولة المركزية. صحيح أن الدولة ليست دينية، ولكنها في النهاية تفكر مسيحياً. وبالتالي فهي تنتج أفكاراً دينية مضادة للإسلام سياسياً ودينياً.

كنت أعتقد في السنوات الماضية أن المسلمين هم الذين لا يريدون الاندماج في الثقافة الفرنسية أو المجتمع الفرنسي. ولكن الحقيقة بدت لي اليوم على نحو مغاير وهي أن الدولة الطاغية بمسيحيتها لا تريد للمسلمين أن يندمجوا لأنها لم تقبل في أي يوم من الأيام هؤلاء المسلمين إلا كمهاجرين، أي كسكان مؤقتين. لم أكن بطبعي متشائماً ولا متطرفاً، ولكن ممارسات الفشل المتراكمة جعلتني أفكر في ما لا يفكر فيه أناس كثيرون. بدا لي أن حرباً أهلية يمكن أن تندلع في غضون سنوات قليلة. فالمنظمات الإسلامية بدأت تتكاثر على نحو لم تتخيله أجهزة البوليس. لم تكن كلها متطرفة، فبعضها يريد الحصول على فتات فقط. بعضها كان يحمل شعارات تطالب بحقوق وواجبات المواطن المسلم. بعضها كان يدعو المسلمين إلى أن يصبحوا فرنسيين أكثر للحصول على حقهم

في الانتخاب. بعضها الآخر يريد أن يدق مسماراً بين المسلمين والمسيحيين في فرنسا. وباعتقادي، فإن الدولة لم تنتبه إلى مثل هذه الموجات العارمة من الإسلام الناشط فقط، بل هي لم تدرك أن حيادها هو الضمان البعيد المدى لعلمانيتها. أدركت أن العلمانية الفرنسية كانت شكلاً بلا محتوى. فمنذ أن تتدخل الدولة في تنظيم شؤون المسلمين، فهي تعلن عن حضورها الديني. قد تكون نجحت في مخاطبة الكاثوليكي على طريقتها وكذلك الحاخامية الكبرى أو الاتحاد البروتستاني، لكنها تفشل في مخاطبة المسلمين على هذا النحو لأن المسلمين لا يملكون هيكلاً كهنوتياً.

ورغم أنني لم أكنّ أيّ ودّ لما يسمون بالأصوليين في الجزائر، بلاد أجدادي، إلا أني كنت أرفض رفضاً مطلقاً دعم فرنسا للنظام العسكري. كان الفرنسيون لا يريدون الديموقراطية للجزائريين. وكان ذلك واضحاً من خلال ألاعيبهم المزدوجة. لذلك كان عليهم أن يدفعوا الثمن باهظاً، لم يكسبوا لا هؤلاء ولا أولئك. ثم كان عليهم أن يقدموا أضاحي من أبنائهم بسبب سياستهم الهجينة القائمة على الوصاية. ليست ثقتي في الثقافة الفرنسية هي التي تهدمت، ولكن روحي الإسلامية بدت لي أنها تحتاج إلى الإنقاذ. وفجأة ظهر أمامي ذلك الرجل الذي سيأخذ بيدي نحو آفاق أخرى، بل نحو القطيعة.

كان يزيد رضوان شاباً وسيماً قد اعتاد أن يصلّي الجمعة في جامع الدعوة. كان يدرس الطب ثم انقطع عن التعليم فجأة وراح يعمل في سوق الخضرة بالجملة. كنت قد التقيت به أكثر من مرة في جامع الدعوة حين دعاني إلى فنجان قهوة قائلاً لي:

- عرفت أن اسمك عبدالرحمن منذ أن رأيتك تتحدث إلى الإمام. ثم أضاف:
- أنا اسمي يزيد، يزيد رضوان.
- أهلاً بك سيد يزيد، قلت له ثم أردفت:
- حضرتك من الشرق، هل أنت مصري؟
- نعم. نعم، هذا واضح من لهجتي.

في مقهى «الفيغارو» الذي لا يبعد كثيراً عن محطة «ستالين غراد»، جلسنا أنا ويزيد لنجد أنفسنا منهمكين في جدل مثير حول الإسلام. أوضح لي يزيد، وهو على قدر كبير من الجاذبية، أن ما من أحد يستطيع تعريف الإسلام تعريفاً دقيقاً، سواء بصفته ثقافة أو بصفته حضارة أو حتى بصفته ديناً.

أضاف يزيد وقد ازداد جاذبية، أن الإسلام يشهد تأويلات عدة. وكل مسلم يعتقد بأن تأويله هو التأويل الصحيح. وهذا ما يجعلنا معرضين لكل أنواع الاضطهاد. فحتى البوليس الفرنسي أصبح من حقه أن يقوم بتأويل ديننا.

قلت ليزيد وأنا أشجعه على كسب ثقتي:

- ولكن نحن حين نأتي إلى «جامع الدعوة» كمسلمين ينتمون إلى عدة بلدان وأعراق، فنحن نؤكد لهم أننا هنا.

نظر إليّ يزيد نظرة جادة، فأدركت أنه يريد أن يعرض عليّ أمراً مهماً. غير أنني جعلته يؤجل ذلك حتى لا أشعره بأني رجل مستعجل. فتواعدنا على أمل لقاء آخر.

أصبح يزيد من أهم أصدقائي.. لم أكن أخفي عنه أفكاري ومشاغلي.

حتى حياتي الخاصة أصبح يعرف الكثير عنها. بدا لي أنه مثقف وواع ومستقيم. ثم إنه كان منفتحاً إلى حد كبير ومحباً للكومبيوتر وشغوفاً بالإنترنت مثلي وأكثر. ربما دراستنا العلمية، هو في الطب وأنا في الفيزياء، قد جعلتنا أقرب إلى التفاهم، ولكن أفكارنا في الحياة وشغفنا بالمستقبل وحماستنا للإسلام كلها ساهمت في مدّ جسور الثقة بيننا. كنت قد خرجت من أزمة الطلاق للتو، حين تعرفت إلى يزيد. أما هو فلم يكن متزوجاً. سألني ما إذا كان لي أبناء من زوجتي السابقة، وحين نفيت ذلك قال:

ـ الحمد لله. أن ضميرك لن يتعب، ولو تعب قليلاً لبعض الوقت.

كنت أجده عذباً في الكلام، فهو أكثر فصاحة مني. حتى فرنسيته كانت مهذبة وكان يعرف كيف يركّب جملاً في غاية الدقة ويخترع تعابير في غاية الخفة. كان يهاتفني باستمرار وكنت أجده مختصراً في كلامه. قال إنه لا يحب الثرثرة على الهاتف. لكنه كان محباً للحديث حين نلتقي. أصبحت أذهب إلى بيته بعد أن دعاني لأكثر من مرة. كان بيته على حافة ساحة «الريبيليك» (الجمهورية). وهو عبارة عن أستوديو يتكوّن من غرفتين مع مطبخ صغير وبيت حمام ضيق. كانت غرفته ملأى بالكتب. قال إنه يقرأ بنهم، فهو عاشق للسيرة النبوية. وكذلك لسير الزعماء والكبار في هذا العالم. عناوين كثيرة استوقفتني وأنا أقلّب كتب يزيد المكدسة على نحو فوضوي وعلى مدى مساحة الأستوديو. قال إنه يقرأ بشهية، لكنه يقرأ كذلك بانتقائية. كان غيفارا ولينين وحسن البنا والترابي والخميني وابن تيمية وسلمان رشدي ونجيب محفوظ وبروكلمان وأندريه

ميكال وكولن ويلسن وبيرك وغارودي وديغول والقذافي ينامون جميعاً على أرضية أستوديو يزيد وإلى جانبهم روايات بوليسية وأخرى تاريخية ودواوين شعر ومذكرات وكتب تفاسير للقرآن. أعطتني عناوين مكتبة يزيد فكرة واضحة عن أنه متعدد المناهل ومطلع على جميع التيارات الفكرية. سألته ما إذا كان قد قرأ كتاب سلمان رشدي: «الآيات الشيطانية» فقال بطلاقة:

- علينا أن نقرأ كل شيء. ما كتبه سلمان رشدي يعتبر دناءة صغيرة في حق الإسلام بالمقارنة مع ما كتب خلال الحروب الصليبية القديمة والحديثة. ثم أضاف:
- إن الغرب مصاب بالنسيان. أو لنقل إنه قام على مبدأ النسيان.

رأيته قد تحمّس للنقاش حين أشعل سيجارة وفتح النافذة، فقلت له متسائلاً:

- هل تراه يريد أن يخترع عدواً آخر بعد أن قتل الشيوعية؟ كنت أقصد الغرب، وقد فهمني يزيد جيداً.
- ربما، كتاب سلمان رشدي كان عبارة عن المانفستو الأول لتلك المعركة. ثم أضاف يقول: بعدما هزم الغرب الإلحاد، وجد نفسه في الفراغ فاتجه إلى فتح معركة مع الإيمان والله.

أردت أن أعارضه في ذلك وقد تجمعت لديّ فكرة مفادها أن الغرب قتل الله في القرن التاسع عشر، قبل أن يقتل الإلحاد في القرن العشرين.. لكنه استدرك قائلاً وموضحاً:

- بعدما اعتقد الغرب أنه قتل الله في القرن التاسع عشر، استيقظ على حقيقة مفادها أن القرن العشرين قد قام بعقابهم. وهكذا

انهمك في محاربة الإلحاد بلا هوادة. أما الآن فهو لا يعرف إلى أين يتجه. إن «آيات شيطانية» قد يكون فاتحة كما قلت لك، لتلك المعركة مع الإسلام. وسلمان رشدي ليس في هذه الحالة إلا حصان طروادة، ذلك الحصان الخشبي الذي سيغزون به الإسلام من الداخل.

بدأت أحسّ أنني وقعت تحت إغراء يزيد حين قال لي ذات يوم «إن نبوءة نيتشه حول قتل الله، قد عزّزتها الجهادية الإسلامية على نحو مفارق حين قامت ببعث الله حياً». أضاف يزيد يشرح لي:

- ربما كان نيتشه على حق عندما قال إن الإنسان هو الذي قتل الله وكان يقصد أن العقل والاختراعات العلمية قد وضعت حداً لمنطق القدر. ولكن مهووسي السياسة والمتعصبين والسطحيين والمبتذلين هم الذين فهموا نيتشه على خطأ. إن فقدان مجتمعات ما بعد العصر الصناعي للمعنى الجمالي للإيمان مثل الصلاة والشعائر والميثولوجيا قد أحدث قطيعة بينهم وبين الله. ولكن تلك القطيعة لا تزال شكلية. فهي جمالية ليس إلا. أي أن منطق رؤية الجمال قد تغير. والدليل على ذلك أن المسلمين ليسوا وحدهم في معركة ضد جنوح السفينة نحو الهلاك. إن حلفاءهم كثيرون في جميع الديانات.

كنت أستسلم لتحاليل يزيد بعذوبة. وكان يكرر عليّ باستمرار أن المهووسين مهما أُوتوا من قوة، فإنهم لن يكون بمقدورهم صناعة دين جديد أو قتل دين قديم. كان يملأني بكلماته ويزيد من حماستي بتعابيره الخارقة والجامعة.. وكان يعرف أنه استحوذ علي. كان حديثنا في شؤون

المسلمين قليلاً أو لنقل غائباً. ولربما اعتقد أن الوقت لم يحن بعد أو أنني غير مستعد لتبني أفكاره. كنت متأكداً أن يزيد ليس رجلاً عادياً. ولكن قرّرت ألاّ أفاتحه في أي شيء ما لم يعرض عليّ ما يفكر فيه بالضبط. كان واضحاً أنه قام بعملية سبر لأغواري لتقييم معدني وقناعاتي واتجاهاتي السياسية. وهذا ليس بالصعب على رجل بذكاء وثقافة يزيد. كنت أحفزه على الكلام وأجعله منطلقاً ومنبسطاً بهدوئي واستيعابي. وأظنه كان يجد متعة في مصاحبتي خصوصاً أنه يجدني باستمرار متشوقاً للقائه. وسألني ذات يوم:

ـ عبدالرحمن، هل أنت عاطل عن العمل؟

قلت له بسرعة:

ـ منذ بضعة أشهر فقط. كنت أعمل مع شركة كبرى متخصصة في صناعة الأفران النووية. لقد تخلّوا عن خدماتي لأن هذه الشركة نقلت جزءاً من معاملها إلى النرويج.

ـ وهل تعتقد أن هذا السبب يجعلهم يتخلّون عن مهندس مثلك؟ سألني يزيد باستغراب.

ـ أسبابهم قد تكون كثيرة، لكنهم غير مضطرين للإفصاح عنها.

لم يقتنع يزيد بإجابتي فعاد يسألني:

ـ هل كانوا يعرفون أنك مواظب على صلاة الجمعة في جامع الدعوة؟

قلت: لا أعرف بالضبط. لكن مهندساً مثلي يعمل في الأفران النووية، لا بد أن يكون مراقباً.

ـ هذا قليل، قال يزيد ثم أضاف:

ـ يجب أن تحمد الله أنهم لم يغتالوك. لو كنت مهندساً نووياً لما اقتربت من المساجد البتة حتى لو كنت في بلاد إسلامية.

هل هذا إيمان كله أم سذاجة؟

هنا حرّك بداخلي يزيد بارانويا من الدرجة الخفيفة، بارانويا تصيب كل من يسعى إلى الشهرة، ويبحث عنها كل من يعتقد في نفسه أنه رجل مهم. ولكن يزيد سوف لن يكتفي بتحريك البارانويا، بل سيعمل على تغذيتها حتى يجعلني رجلاً يشعر بالاضطهاد المستمر، ذلك الاضطهاد الذي يقودنا إلى القطيعة الدائمة مع محيطنا الحالي والراكد.

* * *

تعلمت جيداً أن لا أتحدث عن اختصاصي أو مكان عملي لأي كان. فعقد العمل يحذرني من إفشاء أية أسرار. ولا يحدّد هذا العقد نوعية تلك الأسرار، ولكن ما يتعلق بالأبحاث التي نجريها أو الاكتشافات التي نتوصل إليها أو حتى الاجتماعات التي نعقدها أو العلماء الذين نستقبلهم أو الأسفار التي نقوم بها كلها أمور تقع تحت بند «سر المهنة». كنت تقريباً مثل روبو. بل إن زملائي كلهم يشعرون بأنهم مجرد روبوات. لا أسرار لنا. يجب أن نكون رجالاً صامتين، مهذبين وفقط. هذا القانون يظل سارياً حتى بعد مغادرتنا للعمل، لمدة تراوح بين ٣ و٥ سنوات، وهي المدة الكافية حسب تقديرهم لكي تصبح أسرارنا بلا قيمة.

في البداية دخلت للعمل في مركز صغير قرب مدينة «شاربورغ» على المحيط الأطلسي. ثم انتقلت إلى مركز أكبر منه، وهو عبارة عن مخبر ضخم قرب باريس تابع لجامعة العلوم «دروسيه». في الحقيقة لا أملك أية أسرار خطيرة، فأنا أعرف جزءاً صغيراً من حلقة صغيرة في ما يتعلق

بالأبحاث التي كنا نجريها. كانوا يقسموننا إلى فرق صغيرة ومنفصلة، الواحدة لا تعرف الأخرى. أما العلاقة فلم تكن ثابتة إذ يحدث أن يخرج أحدنا من الفريق الأول ليذهب إلى الفريق الثاني أو الثالث. الآن وقد مضى على إنهاء عقد العمل أكثر من سنتين، فإني أستطيع القول إن المهمة الأساسية للأبحاث العلمية التي كنت أشارك فيها كانت تتعلق بإيجاد ما يسمى بطاقة الاندماج النووي التي تعتمد على مصدر لا ينفد من الطبيعة، هو مادة الديوتيريوم المتوافرة بكثرة وبلا نضوب في البحار والمحيطات وكل المسطحات المائية.

كان الهدف كما حددته الدراسة الأولية أن تصبح فرنسا المزود الأول لطاقة الاندماج النووي في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، وذلك بأسعار زهيدة قد تجعل الكهرباء شبه مجانية. كانت فرنسا من أول الدول أو أكثرها اعتماداً على الطاقة النووية. وقد دللت على أنها متقدمة في هذا المجال إذ استطاعت أن تقوم بتجارب مثمرة لتنويع مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة، كالطاقة الشمسية وطاقة الهيدروجين وطاقة الرياح وطاقة أمواج البحر والطاقة الحرارية المستخرجة من باطن الأرض وطاقة الانشطار النووي ثم طاقة الاندماج النووي. وهذه الطاقة هي التي كنا نعمل على الوصول إليها من أجل أن يبزغ فجر جديد على الأرض لنوع جديد من الطاقة الجبارة والمذهلة.

كان إيماننا قوياً بأننا سنصل ذات يوم إلى هذا الفجر الجديد. وإذ آسف اليوم لأنني غادرت العمل قبيل ميلاد ذلك الفجر، فإنني متأكد من أن النتائج حين يكشف عنها ستكون مذهلة جداً. فهو نوع من الطاقة يتفوق على جميع الطاقات الأخرى، نوع رهيب كنا اتفقنا على تسميته «طاقة

المادة المضادة» لأنها مادة غير قابلة للنضوب أبداً. انطلقت أبحاثنا من نظرية اكتشفها عالمان آسيويان هما لي ويانغ إذ افترضا أن لكل مادة نقيضها. وأن نقيض المادة يؤدي إلى إفناء المادة. كان ذلك في بداية القرن. ثم أضاف البريطاني باول ديراك في الثلاثينيات من القرن العشرين شيئاً جديداً لتلك النظرية حين اكتشف أن لكل ذرّة في هذا العالم توجد ذرّة مضادة لها مساوية لها من حيث القدرة والقوة. وأن المادة المضادة يمكن اختراعها صناعياً. ومع التطور المذهل للتكنولوجيا النووية، تمكّن أحد العلماء الألمان وهو تيدور هانش في أواخر الثمانينيات من اختراع جهاز لإنتاج المادة المضادة مستخدماً عنصر الهيدروجين.

كنت أقوم بشرح تلك النظرية على نحو مبسط ليزيد رضوان حين قال لي والإعجاب بادٍ في عينيه:

ـ كنت أعتقد أنك لست بهذا المستوى.

ـ لأنني لست ثرثاراً.

ـ لا. ليس هذا يا عبدالرحمن. أنت تعمل في اختصاص خطير. ما كنت أعتقد أن الفرنسيين يقبلون بدخول غريب إلى مطابخهم السرية. إنهم منغلقون. إنهم أمة مغلقة. فهم في النهاية ليسوا مثل الأميركان.

بعد ذلك عاد يزيد ليسألني بحرقة:

ـ وإلى أين وصلتم في أبحاثكم المتقدمة لحظة غادرت العمل؟

أحسست أن يزيد كان متشوقاً لمعرفة المزيد إذ لمست فيه حباً للعلم والاكتشافات لم أجده في أي عربي التقيته في باريس لمدة طويلة، وحينها عدت أقول له:

- التجارب التي قمنا بها حتى بدايات عام ١٩٩٢ حبلى بتجارب مذهلة. أعتقد الآن أن النتائج أفضل بل وربما تكون قد اكتملت. لكن لا أعرف متى سيبدأ الإنتاج. كان الطريق الذي اخترناه في البداية هو أن نتوصل إلى إنتاج هذه الطاقة المضادة من خليط مضاد البروتون ومضاد الإلكترون، لكن بعد فترة اكتشفنا أن تلك الطريق لا تؤدي لأية نتائج. فاتجهنا إلى محاولة إنتاجها عن طريق إفناء المادة الطبيعية. أعتقد أنهم، أي الفرنسيين، لم يكونوا يجرون تلك الأبحاث لوحدهم. فبعد تقديرات جديدة، كان عليهم أن يشاركوا الأوروبيين ولا سيما الألمان والنرويجيون، تمّ ذلك حين اكتشفوا أن الألمان كانوا يجرون الأبحاث نفسها. إن حلم اكتشاف المادة المضادة قد يكون أصبح الآن واقعاً وقد تفتح غداً الجريدة لتقرأ خبراً عن اكتشاف تلك المادة المضادة. ولكني أعتقد أنه تمّ ذلك من خلال جهاز أكثر تعقيداً مما كنا نتصور. وأذكر أنني حين كنت أعمل في المخبر النووي، كان رأيي أن الوقت ما زال مبكراً لأن الحاسوب الإلكتروني الذي بإمكانه أن يسيطر على ظهور الذرات الهيدروجينية الذي لا يستغرق أكثر من ٤٠ جزءاً من مليار من الثانية، لم يخترع بعد، لكي نتمكن من إجراء القياسات لظهور واختفاء الذرات على نحو خاطف. استعملنا جهازاً مغناطيسياً له قدرات هائلة، غير أن ذلك لم ينفع. هل تمكنوا من إحضار ذلك الحاسوب؟ لا أعرف. ربما الألمان وبالتعاون مع السويسريين والنرويجيين كانوا يسيرون هم

أيضاً في الطريق الصحيحة. هذا الجهاز حسب ما عرفت، قادر على صناعة قنابل نووية صغيرة في وقت أقصر بمئتي مرة من الوقت الذي تستغرقه الأفران المستخدمة في الصين أو حتى في فرنسا.

هنا انتفض يزيد كمن كان ينتظر مفاجأة مذهلة، فقال:

ـ أفهم من كلامك أنك قادر على صناعة هذه القنابل. هل هي بسيطة إلى هذا الحد؟!

لم أكن أحب أن أزرع لا الأمل ولا الشك في قلب يزيد. كان واضحاً أنه ينتظر مني إجابة واضحة وإيجابية لكي يفرح، لكنني اخترت ألا أجعله يهتز أمامي، فقلت:

ـ صديقي يزيد، إن صناعة مثل تلك القنابل سهلة. ولكنها ليست أحذية لكي يصنعها شخص بيديه. إنها تحتاج إلى أبحاث ومخابر وحواسيب سرية ومخابئ وأهداف. وهذا كله يمكن تلخيصه في المال والرجال.

أضاف يزيد شيئاً ثالثاً فقال وهو يعود إلى توازنه:

ـ والدول أيضاً.

آنذاك عدت أشرح ليزيد أهداف تلك الدول التي تبحث عن المادة المضادة فقلت له: إن الهدف من وراء ذلك هو تسخير المادة المضادة في خدمة الفضاء. فالمركبات الفضائية المستقبلية التي تنطلق بطاقة المادة المضادة يمكنها أن تبلغ نجوم الكون ومجراته البعيدة ثم تعود منها في أوقات وبسرعات قياسية مذهلة تقارب سرعة الضوء. وباعتقادي، فإن الأوروبيين قد يفاجئون الأميركان والروس معاً في مجال الفضاء. وإذا ما

حلفوا نتائجهم المرجوة من المادة المضادة، فإنهم سيظهرون قريباً على كوكب الزهرة أو المشتري قبل غيرهم. ومن هناك قد يصبح في الإمكان حلب طاقة النجوم والمجرات إلى الأرض وهي طاقة غير قابلة للفناء.

كان يصعب عليّ أن أقول أكثر لأنني لم أعد قادراً على الذهاب إلى أبعد من ذلك، ثم ربما لأن يزيد لم يعد يستوعب أكثر من ذلك. فقد أشبعته بشرح ممل إلى حد قررت فيه أن أشفق عليه إذ وضعته في درجة عالية من الانتباه والحيرة. والمهم عندي من كل ذلك، هو أنني أقنعت يزيد بأنني رجل مهم جداً، رجل لم يجد لا الرجال ولا الأموال.

* * *

قال لي يزيد، ونحن أمام مسجد الدعوة، وكنا قد أتممنا صلاة الجمعة:

ـ الليلة سأدعوك على العشاء، ولكن في مطعم، فأنا أعزب مثلك.

لم أمانع ولم أتردد في القول: «على بركة الله».

ـ إذن أين تحب أن نلتقي؟

سألني يزيد ثم أضاف: يمكنك أن تمر على البيت. وحين تصل إلى مستوى العمارة فسوف تجدني في انتظارك.

أحسست أن يزيد يريد أن يفاتحني في موضوع هام. كانت تلك الليلة ممطرة. وقد صادفني زحام شديد في شارع «فولتير» وأنا ذاهب إلى ساحة «الريبليك» قادماً من ساحة «الناسيون»، فخفت أن أصل متأخراً. غير أن انسياب السير في آخر الشارع قد دفعني دفعة واحدة ليضعني أمام العمارة التي يسكن بها يزيد. وجدته واقفاً على باب العمارة. نظرت في الساعة فإذا بي أصل قبل الموعد بخمس دقائق.

– هذا أمر مهم في زحام باريس: أن تصل في الوقت. قال يزيد وهو يقفز إلى داخل السيارة.

سألته: إلى أين؟

فقال. ما رأيك لو نتعشى في أحد مطاعم «بال فيل». هناك سنجد ما يعجبك. الأخوة اليهود يطبخون جيداً ما يُناسب أذواق الأخوة المسلمين. ثم إن لحمهم حلال.

– لا يهم، أينما شئت. المهم أن نجلس معاً.

في الطريق إلى «بال فيل» مازحني يزيد قائلاً:

– نحن المسلمين لا نحب من اليهود إلا أكلهم.

قلت له: يقال عندنا في الجزائر أكلهم لذيذ وفراشهم نتن.

قال يزيد: إنهم يخترعون مثل هذه الوصفات حتى لا يجعلونا نتزوج بناتهم. ثم أضاف:

– حين تتزوج بنات اليهود، يكون أبناؤنا من أتباع اليهودية. إنها الديانة الوحيدة التي تورث عن طريق الأم.

قلت ليزيد: وهل تعتقد أن ذلك هو ما يجعل اليهود قلة في العالم، بالرغم من أن اليهودية جاءت قبل المسيح بحوالى ألف عام وقبل الإسلام بنحو ألف و٦٠٠ عام؟

أنهينا ذلك الحديث حين تخطينا عتبة مطعم «لافيراندا». استقبلنا صاحبه ذو الكرش المنتفخ بابتسامة عريضة وهو يرحب بنا بصوت عال. ثم طلب منا أن نتبعه إلى آخر القاعة حيث أجلسنا على طاولة بعيدة إلى حد ما عن الزبائن، إلى درجة أنني اعتقدت أنه يعلم بما يدور في رؤوسنا. وقلت

ليزيد:

هل تأتي باستمرار إلى مطعم «لافيراندا»؟

فقال: هذه أول مرة. ثم سألني: هل لاحظت شيئاً. فقلت له:

ـ اعتقدت أن صاحب المطعم يعرفك من قبل. فهو قد أجلسنا بعيدين عن الزبائن، فلكأنه كان يعرف أننا نبحث عن مكان معزول.

ـ أنت شكاك يا عبدالرحمن، قال لي يزيد ثم أضاف: هذا أمر جيد. شيء جميل أن يكون المرء حذراً ولكن لا تجعل من الهواجس تخنق روحك. أدركت انفعاله وتأثره، فرأيت أن أحدثه عن شيء آخر لا أن أوضح له الأمر وأدافع عن نفسي. وكان من المناسب أن أقول له:

ـ يزيد، أنت صديقي. أشعر أنك تريد أن تفاتحني في موضوع خطير لكنك لا تزال متردداً.

بعد برهة صغيرة، وقبل أن يأتي النادل إلى طاولتنا، نظر يزيد من حوله ثم قال وكأنه يطلق عياراً نارياً:

ـ هل تريد أن تذهب إلى السودان؟

فهمت في الحين ما كان يقصده يزيد. لم أطلب منه أي شرح أو توضيح، لكنه وجد نفسه مضطراً إلى طمأنتي إذ قال:

إن إخوتنا هناك سيكونون على غاية من السرور بقدومك. ستجد هناك كل شيء من أجل أن تكون رجلاً صالحاً للدين والدنيا. قبل بضعة أيام سمعتك تتأسف لقلة المال والرجال. يمكنك الآن أن لا تتأسف أبداً. لقد أخبرت إخوتي في لندن والخرطوم، بأني عثرت على كنز من العلم والنباهة

والثقافة والاستقامة. وهم الآن يستعجلونني في إرسالك إلى الخرطوم.

كان يزيد لا يزال يمدحني وينسج عني صورة زاهية حين رحت أتخيل أنني فعلاً رجل قادر على تشكيل لوحة خالية من البؤس. فكّرت قليلاً في ما لو خيّبت ظن يزيد. ثم فكرت في ما يمكن أن تكون عليه الحال في السودان، إذ كنت أدرك أن الحماسة وحدها لا تفعل شيئاً، كما أن حب المغامرة الخالي من الخوف أو الضعف غالباً ما يؤدي إلى الهلاك. غير أن يزيد أعاد عليّ السؤال نفسه بالصيغة نفسها حتى لكأنه كان يضغط على لساني لكي يتحرك ويقول: نعم.

ـ عبدالرحمن، هل تريد أن تذهب؟ سألني يزيد.

بسرعة قلت له:

ـ إذا كنت ترى في ذلك جدوى فلماذا لا أذهب ؟!

أحسست أن يزيد تنفس الصعداء، وأنه نجح في مهمته. أي نجح في تجنيدي وإدخالي إلى العمل السري الواعي لمناصرة ما كان يسميه بالثورة الإسلامية. في الوقت نفسه كنت على وعي كامل بأنني لست رجلاً مخدراً أو مخدوعاً. فأنا كنت أبحثُ عمن يأخذ بيدي إلى عالم الثورة. وبين ذهاب الغارسون وإيابه، كان يزيد يخترع كلمات إضافية ليجعلني أكثر راحة. كان يقول لي: أنت رجل متميز. سيكون وضعك متميزاً. سوف يكون الأمر مختلفاً معك. إنهم في حاجة إليك. هناك ستعرف كم هم في حاجة إليك. ولو أنني كنت طفلاً أو مراهقاً لقام ليربت كتفي من فرط زهوه. ثم فجأة قال لي:

ـ هل تريد أن تسافر بجواز سفرك أم أحضر لك جوازاً آخر؟

هكذا وضعني يزيد على نار ساخنة. لم أكن على استعداد لأغامر بأية

إجابة في تلك اللحظة. كان علي أن أقلّب ذلك العرض جيداً. ثم كان عليّ أن أعرف ما إذا كان مجرد مزحة يريد يزيد من خلالها أن أتذوق طعم المغامرة، لذلك كله اخترت أن أجيبه:

- سأخبرك فيما بعد. لا أعرف الآن، عليّ أن أفكر. ثم أريد أن احتفظ باسمي. إني أحب اسمي «عبدالرحمن».
- ألا يشكل هذا خطراً على شخصك. أنت تعرف أن الأسماء مجرد علامات يمكن تغييرها دون أن نصاب بالضياع أو الهذيان. قال لي يزيد ثم أضاف:
- يمكنك أن تختار اسماً مشابهاً لاسمك. قل لي ما رأيك في عبدالرحمن بن عوف. إنه شخصية إسلامية مثيرة. كان مقاتلاً جيداً لنصرة الإسلام والمسلمين.

فتحت يدي لأقرأ الفاتحة ففتح يزيد يديه وراح يقرأ معي. بعد ذلك قال لي: لقد عمّدتك. أبوك أعطاك اسماً جميلاً لكي تصبح رجلاً جيداً وأنا أعطيتك كنية جميلة لكي تكون مقاتلاً جيداً. خلال ذلك كنا نأكل. لم نتوقف عن الأكل. اكتشفت أن يزيد يكثر من الأكل. بل هو أكول. لكني لم أكتشف أي أثر يدل على أنه أكول. لقد كان نحيفاً جداً حتى خلته لا يأكل أبداً. أحسست أنني أتعرض لعملية اغتصاب للمرة الثانية في حياتي. فقلت ليزيد:

- ليكن اسمي الجديد عبدالرحمن الأنصاري. إنه اسم مناسب جداً. ولا يثير أية شبهات. أما كنيتي فلتبق: أبو يحيى.

٩

مهما كانت درجة الثقة بأنفسنا، فإننا لا نعرف متى نقع تحت طائل الإغراءات. أحياناً إغراءات صغيرة وتافهة وهابطة، ولكنها قابضة حتى على الأرواح الكبيرة. كنت أعتقد أنني بلغت درجة من الفطنة والوعي والرهافة والحصانة ضد غش النفس، ولكن بعد ثلاثة أشهر من وجودي في السودان، أحسست أنني وقعت في المصيدة. أي في المنطقة المخصصة «للصيد الكبير» في عمق أعماق الأدغال الموحشة. بسرعة فكّرت في إنقاذ نفسي ولكن ضمن منطق الصيد. فأنا ذهبت إلى هناك لكي أعرض عليهم خبرتي في صنع المتفجرات الصامتة والعازلة. لم أكشف ذلك ليزيد رضوان، لكن منذ أن قررت السفر إلى هناك، بدا لي أن أهم هدية أقدمها لأولئك الرجال الذين يعدون الإسلام بالنصر والانتشار هو أن أجعلهم يستعيدون الثقة بأنفسهم. التقيت بأكثر من ضابط متخصص في المتفجرات.. عرفت فيما بعد أن مهمتي لن يكون لها أي حظ، جميعهم أعربوا عن استحالة

ذلك. شكروني على حماستي وجهودي وقالوا لي إن فقدان المواد الأولية التي تستعمل في صنع هذه المتفجرات، يجعلنا ندور في حلقة مفرغة.

أهملت الموضوع من ذهني.. وقلت لنفسي: ربما أخطأت، وربما ليس هذا هو المكان الذي يجب أن أتوجه إليه. بعد مدة أمسكت عن الكلام. لم أعد أتحدث إلا نادراً. فكرت كم كنت مجنوناً. وتساءلت هل يليق بعالم مثلي أن يعرض خدماته على رجال لا يعرفهم جيداً في معسكر يقع في غابة بعيدة ومعزولة، تحكمها قوانين «مزاجية» وزجاجية!! لم أفقد إيماني بالانتماء إلى العمل الجهادي. كنت فقط معترضاً على ما أصبحت أسميه بالانفلاش والتسيّب. بدا لي أن معظم الأخوة قد فقدوا الحماسة وباتوا مثل رهائن. الخروج من المعسكر كان شبه مستحيل إذا كنت لا تعرف أحد الضباط الكبار. رأيت أن اليأس لا ينفعني. كنت لا أزال أفضل من الجميع نفسياً. وبدلاً من أن أستسلم للسقوط في الحضيض، أصبح عليّ أن أنهض عالياً. فحين يكون المرء وحيداً في تلك الغابة يتمنى لو كان يملك بضعة كلاب للصيد المدربة جيداً ليدفع بهم إلى أعماق الغابة. وهذا بالضبط ما كان عليّ أن أفعله.

في تلك اللحظة نسيت يزيد. لم أحقد عليه ولم أشعر بأنه خدعني. فهو قد قام بمهمته دون نقصان. كان مكلفاً بتجنيد المجاهدين وإرسالهم إلى السودان، وهذا ما فعله معي. قلت لنفسي: هو كان يريد أن يرسل بعلماء إلى مناطق صيد خطرة. أما أنا فعليّ أن أجد الشجاعة والفطنة لكي أبدأ رحلة الصيد الكبير. فلو أنني استسلمت مثل الآخرين الخائبين، فإنهم سيضيعون قدرتي على النظر إلى البعيد، سيدمرون جهاز الحصانة الذي بداخلي. كنت على قدر كبير من الإيمان. ولما كان الإيمان يحتاج

إلى جرح لكي يكون عميقاً وعظيماً، فقد زاد إيماني بمهمتي الجهادية.. لكن بشرط، وهو شرط وضعته كجبل فوق ظهري. ذلك الشرط هو ألا أكون متساهلاً أو متسامحاً مع الغباء. قلت: لا بد للمرء أن يعمل كل ما في وسعه لكي لا يكون ضحية الرذائل. قلت أيضاً: إن حب الحقيقة هو جهاد الإنسان على الأرض. أما الحقيقة نفسها فربما لا توجد إلا في السماء.

كان شيئاً فظيعاً ومرعباً أن أرى شباباً يافعين قد تحولوا إلى كومة من العصي اليابسة. كانوا لا ينضبون من الكلام. أما عيونهم فهي تلمع مثل النجوم في الليل لأنهم على حرقة للانطلاق. كان بعضهم لا يخفي أنه وقع في الأسر، أسر السياسيين ومساوماتهم الرخيصة والنذلة. بعضهم الآخر كان يفضل الصمت رغم العذاب النفسي. آخرون كانوا يحتاجون إلى من يقودهم إلى طريق أخرى. يقال إن العبيد يريدون المطلق، لكنهم لا يفهمون سوى لغة الطغيان. كدت أن أصدق ذلك لولا قناعتي بأن الألم لا يتحمله إلا النبلاء.

تساءلت، كيف يمكن لسلب الإرادة أن يكون على هذه الدرجة؟ وكيف يمكن للمجاهد، الذي نذر نفسه للتضحية أن يكون أسيراً أو عبداً لغيره؟ وطبيعي أن يستدعي مثل هذا السؤال سؤالاً آخر هو: كيف يكون الخلاص؟ مهمة الخلاص بدت أنها أصبحت مزدوجة. الأولى الخلاص من هذا المعسكر الجاف الكئيب، ثم الخلاص مما أعتقد أنه الفساد. خفت أن يكون العصاب الديني الذي يصيب الإنسان البائس قد تمكّن مني واستحوذ عليّ خصوصاً أن مثل تلك الأسئلة غالباً ما تقترن بالتوحد مع الذات والامتناع عن الكلام وبعض الغثيان. كنت قرأت أن العصاب يأتي

مقروناً بتلك الحالات. وهو ليس إلا تعبيراً عن شهوات مكبوتة قد وقع دفنها في اللاوعي وفجور بات نوعاً من التوبة، توبة العاجز واليائس. ولكن بما أنني لا أزال باحثاً عن الخلاص، فإن ذلك ربما لم يكن هو العصاب وإنما هو القرف. القرف في أعلى درجاته. القرف من الخيانة. القرف من الدجل. القرف من الادعاء وكذلك القرف من العيش داخل الخرافة. لذلك إذا كنت لا أتكلم فأنا ما زلت قادراً على القراءة.

كنت أتصفح كتيباً صغيراً كتبه الدكتور الترابي حين اقترب مني شاب قد لاحظ علي قلقاً مفرطاً مع التزام انضباطية مبالغ فيها كما قال لي فيما بعد:

قال لي ذلك الشاب:

ـ هل تعجبك كتابات الدكتور؟

قلت له: أجده ذكياً وانتقائياً.

ـ وماكراً. أضاف ذلك الشاب الذي قال بعد برهة صمت:

ـ أنا من تونس. وأنت؟

ـ أنا جزائري، جئت من فرنسا.

ـ إذن لا شك أنك تعرف يزيد رضوان!

ـ نعم أعرفه. إنه رجل لطيف.

ـ لقد زرع فيك كل الآمال. إني أعرفه. إنه حاذق في نسج الخرافة بخيوط المعرفة.

ـ هل أنت نادم على المجيء إلى هنا؟

ـ أشعر أنني جئت في رحلة صيد. ضحك ذلك الشاب التونسي، وبدا لي نبيهاً وفطناً ثم قال لي:

ـ لتنادني منذ اليوم بتومرت.

ـ هذا الاسم لا يمكن أن يفكر فيه يزيد. إنه اسم مغاربي. هكذا قلت له ثم أضفت:

ـ لتنادني أنت منذ اليوم بالشيخ. الشيخ عبدالرحمن الأنصاري أو الشيخ أبو يحيى.

وعاد تومرت ليسألني ما إذا كنت أشعر بالندم لأنني موجود في هذا المعسكر. قلت له:

ـ الحقيقة تبتعد عنا كلما اقتربنا منها.

هنا قال لي تومرت:

ـ إننا جوالون في هذه الدنيا. كلنا جوالون.

فقلت له:

ـ ولكننا باحثون عن هدف. عن صيد كبير.

ـ وإذا اقتربنا من ذلك الهدف، يكون الموت أيضاً قد اقترب منا. قال تومرت.

في تلك اللحظة، شعرت وكأن تومرت قد ضايقني لأنه كان ينطق بعبارات مضادة لمزاجي. قلت لنفسي ربما تلك طريقة للدفاع عن النفس من التحقير. ربما تلك حماقة رجل يريد أن يخفي غيظه. ربما كان يعاكسني ليثبت امتيازه. كنت قد دخلت إلى الصمت حين أعاد لي تومرت الكتاب الذي كنت أتصفحه ثم قال قبل أن يختفي:

ـ كم يكون المرء أنيقاً أن يحظى برجل يعاكسه في هذا المعسكر؟ أليس كذلك يا شيخ عبدالرحمن!.

* * *

لم أكن أريد أن أظل جزءاً من لعبة اليانصيب التي تدار في ذلك المعسكر المليء باليائسين والحالمين، أو من لعبة الروليت السياسية التي كان يديرها الترابي مع المعسكر وأصحاب البترودولار والمخابرات الأجنبية. لقد قررت أن أقاوم. ومن لم يتعلم وهو في الثلاثينيات من عمره يبقى طوال حياته في العتمة، ويجعل من نفسه كائناً صغيراً يعوم في الفراغ. كان الفراغ بالنسبة لي كفيزيائي شيئاً مخيفاً ومهلكاً. فالمادة كل مادة لا تحب الفراغ. والفراغ يحصل حين نضوب تلك المادة، تلك الطاقة المشعة باستمرار في أجسادنا وعقولنا. أحياناً تجعلنا المصادفة نسقط في الفراغ، ولكن ما إن نرتمي في الهوة الساحقة حتى تتفجر بداخلنا طاقة أخرى بديلة. كنت أفكر أنني لم آت إلى السودان لكي أصبح رجلاً بائساً، حين ذهبت أبحث عن تومرت في الجناح الغربي للمعسكر حيث يوجد حوض سباحة مملوء بالأوساخ والغبار وحتى بالضفادع. فجأة، التفت نحو صوت يناديني من الخلف. التفت بحذر فوجدته ـ تومرت ـ وهو يرتدي بدلة رياضية. اقترب مني مسلّماً ثم قال: كنت أركض. لقد ركضت مسافة كيلومترين هذا الصباح. يجب ألا نركن إلى الكسل.

بسرعة قلت له: غداً سأبدأ معك الركض. ثم سألته:

ـ هل تركض لوحدك أم معك آخرون؟

ـ نحن مجموعة تتكوّن من أربعة أشخاص جئنا في أوقات متفاوتة إلى هذا المعسكر، ثم أصبحنا مدمنين على بعضنا بعضاً. أنا من تونس وخالد من مصر. أما حمزة وأبو بكر فهما من ليبيا. كان معنا أخ خامس من البوسنة يدعى سلمان لكنه سافر منذ نحو أربعة أشهر. لقد ذهب إلى البوسنة على

رأس مجموعة من الأخوة العرب لأداء واجبهم تجاه الإسلام.

ـ وهل أنتم متفقون فيما بينكم؟

لا أدري لماذا طرحت ذلك في تلك اللحظة. ولكن حين وجدت أن صيغته غامضة قلت موضحاً لتومرت:

ـ أقصد هل أنتم مرتاحون في هذا المعسكر؟!

ـ أحياناً نشعر بالملل. أحياناً لا تعود الأمور واضحة أمامنا. وأحياناً نشعر أننا نساق مثل قطيع.

ـ هل ثمة ما يجبركم على هذا؟

ـ لا أعرف. ولكن يجب أن تعرف أن الانتقال من مكان إلى آخر ليس مجرد رغبة. إنه قرار. هذا القرار لم يصدر ربما حتى الآن.

أضاف تومرت يقول بشيء من الحكمة:

ـ إذا كان أحدنا يعتقد أنه بلغ الذروة بمجيئه إلى هنا، فإنه سيصاب بالإحباط. أما إذا اعتبر ذلك محطة على الطريق، فإنه سيجعل من نفسه شخصاً فاتناً.

وجدت في كلام تومرت اتزاناً وفطنة ولكني لمست كذلك مرارة. فسألت وأنا أضغط على كيس المرارة:

ـ كأنك تقول لي لا حول ولا قوة إلا بالله. كأنك تقول لي: جئنا نعم، لكن متى سنرحل؟.. هذا بعلم ربي.

ـ هل تريد أن ترحل من هنا؟ هل تركت شيئاً ثميناً في باريس يا عبدالرحمن؟ سألني تومرت. ثم علّق يقول، وقد عاد إلى المستوى المنخفض من المعنويات، ذلك المستوى الذي يصبح

معادلاً لتوازننا في الهواء حين نركض بسرعة ١٠٠ كلم في الساعة:

ـ ليس كل ما نفعله هو بإرادتنا. إرادة الله فوق الجميع.

انخفضت قليلاً لأتساوى معه في الوزن وقلت له:

ـ هذا صحيح. يجب ألا نشفق على أنفسنا في هذه الحالة، الشفقة على الذات خيانة لمبادئ الله.

في لحظات سريعة ونحن نسير بالقرب من مجموعة الآبار التي يتدرّب عليها من يهيئ نفسه لقتال أعداء الله والإسلام، ارتفع تومرت إلى مستوى معنوياته السابقة فقال وهو يشير بيده ناحية الشرق:

ـ هناك.. هناك كل شيء يأتي من هناك.

فهمت أنه يقصد الخرطوم التي تقع شرق المعسكر. فهمت كذلك أن القرارات تصدر هناك. ثم فهمت شيئاً آخر هو أن تومرت ينتظر شيئاً ما، فسألته:

ـ هل أنت تنتظر شيئاً من الخرطوم؟

ـ أنتظر جواز سفر.

ـ هل هو محجوز؟

ـ لا لقد فقدت جوازي بعد ثلاثة أيام من قدومي إلى هنا.

أحسست أنني قد أقع في الورطة نفسها ثم أنني قد أكون أكثرت من إظهار الجروح لدى تومرت. وبما أنني كنت حريصاً على ألا أبدو متذمراً أو ضعيفاً أو نادماً أو عصبياً، قلت لنفسي: كفى. كفى نبشاً في لحم تومرت، ثم لا إرادياً عدت لأسأله:

ـ هل الإخوة الآخرون ينتظرون هم أيضاً جوازات سفرهم؟

ـ لا، قال تومرت. ثم أضاف:

ـ إنهم ينتظرون ساعة السفر. لقد تطوعوا للذهاب إلى أفغانستان. أكملنا تدريباتنا منذ فترة. سلمان ذهب إلى البوسنة، أما نحن فوقع اختيارنا للذهاب إلى أفغانستان.

وإذ همّ تومرت بالعودة إلى الكلام، قاطعته قائلاً:

ـ هل أنتم الذين اخترتم الذهاب إلى أفغانستان؟

تردد تومرت في الإجابة ثم عزم على قول الحقيقة:

ـ نحن وهم.

ـ هم. ردّد تومرت «هم» مرتين أو أكثر ثم قال: ستعرف فيما بعد.

ـ وهل تعتقد أنني سأظل هنا إلى أن أعرف هؤلاء «الهم»؟

ـ لا. لا أقصد ذلك. أنت تختلف عنا. لقد سمعت أنك رجل عالم. عالم مختص في النوويات. أنت تثير شغفاً كبيراً لديهم.

ـ هل يعني هذا أنني رجل خطير؟.

ـ لا أفهمك. خطير إذا نظرنا من زاوية كونك عالماً في ميدان حساس. ثم قد تصبح أكثر خطورة إذا شعروا أنك على درجة من التذمر أو الارتياب.

أزعجني جواب تومرت ودفعني إلى الارتياب من نفسي. ثم إلى الإحساس بأنني وقعت في هوة سحيقة. ولأنني تعلمت كيف لا أتكلم على الألوان مثل العميان أو ضد العلم كالنساء والفنانين كما يقول نيتشه، فقد واجهت تومرت بالحقيقة، ولكن من زاوية أخرى، حين قلت له:

ـ أنا أعتبر نفسي في مرحلة الصيد الصغير. ربما غداً سأصبح في مرحلة الصيد الكبير. فهل تريد أن تخرج إلى الصيد معي؟

لا أعرف إذا كان تومرت فهم مقاصدي. ولكنه قال لي:

ـ سأخرج معك إذا كنت أكثر حذراً. إن هذا المعسكر كثيراً ما شهد عمليات بيع وشراء رخيصة جداً. إن الإحساس بالأخلاق، لا يعني أن الأخلاق النبيلة هي السائدة.

* * *

نمت متأخراً في تلك الليلة، كنت على قلق كبير، قرأت أكثر من مئة صفحة من رواية «عالم صوفي» للكاتب الدانماركي «جوستاين غاردر» التي ترجمت للتو إلى الفرنسية والتي اشتريتها من مطار أورلي حين كنت متوجهاً إلى الخرطوم عبر القاهرة. أعجبتني تلك القدرة العجيبة التي بسط بها المؤلف تاريخ الفلسفة أمام طفلة تتدرج في عامها الخامس عشر. إنها رواية يمكن أن تقرأ أكثر من مرة، ثم هي تقرأ بداية من أي صفحة. وأخيراً فهي تقرأ كما لو أنها كتاب يجمع كل الكتب. آنذاك، في تلك الليلة الثقيلة، المهمومة والمتكاسلة، عرفت حقاً لماذا كانت رواية «عالم صوفي» أكثر الكتب مبيعاً في كل أوروبا عند صدورها.

في الصباح، شعرت بشيء من الراحة. فكّرت بأن الحياة أكبر من هذا المعسكر. بل أكبر من السودان كله. فكرت كذلك بأن المصائب تتضخم أمامنا حين نكون معلقين من أهدابنا بخيار واحد، خيار بائس يساوي خيبة أمل وحرماناً أو خطوة نحو الانتحار. فكّرت كذلك في إيجاد طريقة للرحيل من هذا المعسكر مهما كانت المصاعب. باختصار، فكرت في العواقب كلها وقلبت خيارات عدة، لكنني لم أفكر قط أنني سأجد

عند ظهر ذلك اليوم مبرراً كبيراً لكي أجعل تومرت ومن ثم أصدقاء تومرت يقتنعون بضرورة الخروج من هذا المعسكر.

ذهبت لأشرب شاياً عند تومرت في غرفته الصغيرة التي كان يشاركه فيها حمزة. وهناك وجدتهما يستمعان لنشرة الأخبار من محطة الـ «بي .بي .سي». منعاني من الكلام وقد أشار كل منهما بطريقته عليّ بالجلوس والصمت. كانا منشغلين بنشرة الأخبار إلى حد جعلني أستحضر كل حواسي لأفهم ما حدث بالضبط في العالم. بعد انتهاء النشرة التي لم أسمع منها سوى خبر روتيني عن المعارك في البوسنة، دهمني تومرت قائلاً:

– لقد سلّموا كارلوس. قالها تومرت بشيء من النرفزة. ثم أضاف حمزة:
– نعم لقد سلموه إلى الفرنسيين. إنه الآن في سجن «لاسنتيه» الفرنسي، هل تصدّق!.
– نعم أصدق. هذا ما يجب أن نتوقعه. السياسيون العرب تجار روبافيكيا. كارلوس ليس الأول ولن يكون الأخير.

بعد لحظة من الصمت المرير، استعدت شيئاً من الصحوة فقلت:

– كارلوس حيوان! كان عليه أن يفهم. لا تقولوا لي إنه لم يجد مكاناً يذهب إليه. الأنظمة الشيوعية سقطت، لكن كارلوس قد أخطأ حين جاء إلى هنا. ستقولون لي إن البلدان العربية الأخرى قد طردته أو تنكرت له. نعم، ولكن كان بإمكانه أن يذهب إلى أكثر من مكان.

أضاف حمزة:

ـ لا يزال هناك مقاتلون شيوعيون في هذا العالم. هناك شيوعيون في المكسيك بمنطقة شياباس، هناك شيوعيون في كولومبيا.. الشيوعيون ما زالوا يحكمون في كوبا وفي كوريا. نعم الشيوعية تداعت ولكن الشيوعيين لم ينتهوا.

لم أكن شامتاً بكارلوس بقدر ما كنت غاضباً على الذين سلموه إلى فرنسا مقابل حفنة من الدولارات وحزمة من الأسلحة الخردة. لذلك عدت إلى القول:

ـ اليوم سلّموا كارلوس، وغداً سيسلمون آخرين. إنهم يجمعون المجاهدين لكي تتم مقايضتهم بمصالح صغيرة وأنانية. لو كانوا صادقين في ما يعلنون لما ارتكبوا هذا الخطأ الشنيع. أضاف تومرت وقد هدته تلك الخيانة:

ـ هذه ليست لا من أخلاق العرب ولا من أخلاق المسلمين.

ـ هذا ليس ديننا يا عبدالرحمن، قال حمزة وكأنه يعلن انتفاضة على نفسه.

ـ يبدو أن القوانين أقوى من الدين لدى السياسيين. قلت لحمزة ثم أضفت:

ـ هذا فساد، علامة انحطاط، خيانة. فلنسمّه بما نشاء، ولكن ذلك لن يرحمنا من الوحش إذا تمكّن منا. نحن في غابة صيد. نحن حيوانات معروضة أمام الصيادين والوحوش والخيبات.

وكان لا بد أن أركّز على نقطة الخلل الأصلية في موضوع تسليم

كارلوس. رأيت أن الضرب على وتر الوضاعة والخيانة والفساد سيكون مفيداً. وهكذا قلت لكل من تومرت وحمزة:

- ثمة أمر يعزّ عليّ فهمه وهو كيف يكون الإنسان نبيلاً ثم يمارس الوضاعة بهذا الشكل؟ يصعب عليّ تصور كائنات بشرية تجهد نفسها في إيهام الغير بأنها تعمل لصالحهم بينما هي متأهبة دائماً للخيانة ومتربصة لاقتراف كل الموبقات. انظروا ماذا حدث؟ هذه فضيحة. ما حدث لن يساعدنا على مجابهة الذين يتهموننا بالزندقة والصلف والغرور. فجأة سألني حمزة:
- ما الذي يجب أن نفعله الآن؟ هل نعلن العصيان؟ هل نحتج؟ هل نهرب من هذا المعسكر؟ هل ننشق؟

بدا لي حمزة أكثر استعداداً من تومرت لفعل أي شيء من أجل غسل هذا العار. غير أن تومرت ذهب إلى أبعد من ذلك وكأنه لم يشأ أن يسجل عليه أنه متهاون أو مهادن، فهبّ قائلاً:

- أفضل شيء أن ننسحب بصمت. الواحد تلو الآخر. باستطاعتي أن أقنع أكثر من ثلاثين عنصراً. وإذا تمكنّا من الانسحاب، فإننا سنجعل من الذين سلموا كارلوس يندمون على فعلتهم هذه.
- كيف سيتم ذلك؟ قلت لتومرت وأنا أتحسس المصاعب والعراقيل وحتى التصفيات الجسدية.
- نكتب رسالة إلى الأخوة في لندن نسلمها إلى الأخ أبو عمر الذي من المقرر أن يسافر غداً إلى تركيا، ومن هناك يضعها في

البريد لتصل إلى الشيخ شاهين في لندن.

ـ ومن يكون الشيخ شاهين؟ سألت تومرت فأجاب بسرعة:

ـ هو المسؤول الأول على «خلايا الجهاد» في بريطانيا. إنه الرجل الذي باستطاعته أن يخرجنا من هذا المستنقع إذا اقتنع برسالتنا. سوف يتكفل يزيد رضوان بباقي المهمة بعد أن يتشاور معه. وبعدها سيكون كل شيء على ما يرام. سيخترع أية حجة. سيقول مثلاً إنه يطلبنا على وجه السرعة لمهمة عاجلة في مكان ما. أضاف تومرت يوضح لي:

ـ الأخ أبو عمر مكلف بمهمة خارجية، وهو رجل جيد ومتفهم، بل ومتعاطف معنا.

ـ إذن علينا أن نكتب رسالة جيدة. علينا أن نجعله يقتنع بضرورة سحبنا، هكذا قلت لتومرت وحمزة. وبعد أخذ ورد اتفقنا أن يكتب كل منا نص رسالة، ثم نجلس لنناقش تلك النصوص ثم نستخرج نصاً واحداً مميزاً ومتستراً، بليغاً وكاشفاً وقاسياً يرغم شاهين على اتخاذ قرار سريع وحاسم ويضع الأخوة أمام مسؤولياتهم لو تقاعسوا أو تأخروا.

١٠

كانت إيزابيل قد استعدت جيداً لمحاورة الجنرال الروسي السوفياتي السابق يفغيني بازوف. أخذت معلومات وافية عن تاريخ الموسيقى في روسيا من جواشيم سورات واستمعت إلى أسطوانات روسية تعود إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ثم أعدّت محاور الأسئلة التي ستعالجها مع بازوف. فهذا الجنرال الذي قضى أكثر من نصف حياته في مهمات حربية أغلبها خارج بلاده مثل أنغولا وكوبا وأفغانستان، قد أعجب بالفكرة التي شرحتها له إيزابيل على الهاتف قبل يومين من الموعد على النحو التالي:

ـ سيد بازوف، أنت رجل عسكري، أعرف أنك كنت عضواً بارزاً في الـ «كا. جي. بي»، ومن خلال كتابك الأخير الذي ترجم للعديد من اللغات تحت عنوان «أزمنة الطوق» عرفت أنك محلّل استراتيجي ومثقف كبير وخبير في العلاقات الدولية، ولكني أريد في هذا اللقاء أن تتحدث لي عن الموسيقى فقط. لقد اخترت أن تحدثني أنت بالذات عن

الموسيقى ليعرف القراء أن الجنرالات لهم عوالمهم الداخلية. أجريت في السابق مع الموسيقي جواشيم سورات حواراً عن الحرب، والآن أريد أن يحدثني جنرال عن الموسيقى، فما رأيك، يا سيد بازوف؟.

لم يطل الجنرال بازوف التفكير لكي يعطي موافقته قائلاً:

ـ هذه تجربة جديدة بالنسبة لي. هل تعتقدين أنني سأكون قادراً على إمتاع القرّاء؟

ـ أعتقد أنك ستكون ممتعاً وماهراً.

ـ إذن لنر ما ستكون عليه النتيجة.

أقفلت إيزابيل سماعة الهاتف. ثم قامت لتجلس أمام الحاسوب لتضرب على ثلاثة أزرار وتكتب:

ـ Yahoo.Massenger.ami.DOG.

ـ هل أنت مشغول الآن يا دوغ؟

ـ أنا الآن في جولة داخل البيت الأبيض.

ـ هل كلفت بإطفاء حريق؟

ـ لا، لا، أنا أتجول. أتفرج. إنهم يذبحون الرئيس. قريباً سيسلخونه.

ـ سأعود إليك، بعد قليل. يمكنك أن تتمتع بجولتك. ولكن ما رأيك لو تعرج على مكتبة البيت الأبيض لترى معي من يكون يفغيني بازوف بالنسبة للأميركان. إنه عميل سوفياتي سابق في جهاز الـ «كا .جي.بي» يحمل رقم ٥٠٩ حسب ما جاء في كتاب «أزمنة الطوق» أو ربما «تطويق الأزمنة».

ـ لا أعرف إن كنت نجحت في الترجمة.

ـ لا يهم، قالت إيزابيل، إن كان دوغ مشغولاً، فموعدي مع الجنرال يفغيني بازوف لم يبق عليه غير ساعتين. وهما بالكاد تكفيان لترتيب هندامي ومسافة الطريق. فهو قد اختار أن يقيم في باريس في شارع «فوش» ككل أغنياء العالم الثالث والعالم الاشتراكي السابق. ثم قالت أيضاً: يحق لجنرال سابق أن يسكن في شارع يحمل اسم جنرال. ربما هذا يجعله أكثر اطمئناناً.

كان الرجل الذي فتح لها باب الشقة هو الخادم والسكرتير الخاص لبازوف. كاد أن ينسى الكلام في حلقه من شدة التلعثم وهو يعتذر لها عن تأخير السيد بازوف لمدة نصف ساعة. لم تنزعج إيزابيل، بل وجدت في ذلك التأخير فرصة لترتيب أفكارها والاطلاع على مكتبة الجنرال.

أكثر الصور التي أثارت إيزابيل منذ الوهلة الأولى، تلك الصورة التي ظهر فيها يفغيني بازوف واقفاً أمام العجوز بريجينيف وهو يضع على صدره نيشان الشجاعة. إلى جانب تلك الصورة، علّق على الجدار صورة أخرى تجمعه مع العجوز تشيرينينكو وثالثة مع غروميكو. واقتربت من الزاوية الشمالية فرأت صورة أخرى لبازوف وهو يصافح رئيس وزراء إيطاليا السابق أندريوتي وأخرى وهو يسلّم على الزعيم فيدال كاسترو. وأخرى مع منغستو هيلاميريام وغيرها مع الرئيس الأنغولي دوس سانتوس. واتجهت إلى زاوية اليمين فرأت بازوف العسكري وهو في وضعيات متعددة، واقفاً إلى جانب دبابة في كابول، مستقبلاً بعض العسكريين في أنغولا، وصاعداً إلى طائرة تيبوليف في أحد المطارات. لم تركّز إيزابيل

على عناوين الكتب بقدر ما حدّقت في الصور واللوحات الزيتية. في زاوية أخرى من المكتبة وقفت إيزابيل مشدوهة أمام ضخامة تلك المكتبة الموسيقية التي يملكها الجنرال بازوف. شرائط وأسطوانات وصفائح «سي.دي» وحتى كاسيتات فيديو. بدا بازوف لإيزابيل متورطاً في حب الموسيقى منذ زمن بعيد. وإلى جانب ذلك فهو لا شك أنه متورط في حب المعلوماتية. فهو يملك جهازي كومبيوتر، واحد صغير محمول من نوع «توشيبا»، وآخر ثابت من نوع «كومباك». لم تجد إيزابيل أي أثر للرشاشات أو المسدسات أو الرصاص. كانت تعتقد أن تحف جنرال لا بد أن تحتوي على بعض القطع الحربية الأنتيكا. غير أن ذلك لم يكن له أي أثر. وجدت كؤوساً أنيقة ومزركشة مصنوعة من كريستال أوزبكستان. وسلحفاة مصنوعة من الزبرجد الفارسي أو الأفغاني، إلى جانب قطع من الأحجار الثمينة المجلوبة من الحبشة وتماثيل ومنحوتات جميلة وصغيرة لأقنعة وحيوانات من أنغولا. رأت كذلك تمثالاً صغيراً من المرمر لكاسترو وإلى جانبه علبة «سيجار» من الخشب البلنز تعود إلى القرن الماضي.

كانت إيزابيل تفكر في حياة بازوف المثيرة حين دخل السكرتير ليقول لها:

ـ لقد وصل السيد بازوف. لم يتأخّر طويلاً.

في تلك اللحظة ظهر يفغيني بازوف. كان واضعاً على رأسه قبعة.. نزعها بسرعة ثم تقدّم ليسلم على إيزابيل. لم يكن بديناً كما تخيلت إيزابيل ولا أصلع. ثم إنه لم يتجاوز منتصف العقد الخامس.

قال:

ـ لم يكن بالإمكان أن آتي قبل الآن. معذرة. معذرة. لسنا قادرين على أن نكون في أكثر من مكان في الوقت نفسه.

ـ كنت مستمتعة بالتجوال في مكتبتك، هذا شيء مفيد. قالت إيزابيل. ثم أضافت بسرعة:

ـ قد يكون وقتك محدوداً. هل تريد أن نبدأ حوارنا سيد بازوف؟

وقبل أن أنطق بسؤالي دارت في رأسي (قصة هذا الجنرال، وهي قصة تستحق أن تروى. فهو من أصول أوكرانية مثل خروتشوف، لكنه يعتبر من الحلقة الحديدية في جهاز الـ «كا.جي.بي». في عهد (أندروبوف) كُلِّف بمهام خطيرة عدة: أشرف على أمن عمليات خارجية كبيرة مثل عمليتي أفغانستان وأنغولا، خطط لعدة عمليات تجسسية في الغرب، ونال عدة ميداليات من زعماء الكرملين ومن آخرين من أصدقاء السوفيات. غير أن ذلك التاريخ العسكري للجنرال بازوف المليء بالنشاطات المريبة والحركة المستمرة لم يمنعه من قراءة الروايات والاهتمام بالموسيقى والذهاب إلى المسارح والأوبرات.

قلت لبازوف على نحو استفزازي:

ـ 'كيف قبلت أن تتحدث عن الموسيقى. ألم يخالجك شك بأنني غير جادة معك؟

ـ اعتبرت ذلك نوعاً من اللعب. لم أفكر في أكثر من ذلك. تدركين أنني رجل عسكري ورجل مخابرات سابق في جهاز عتيد ومخيف، ولكن يجب ألا يذهب عن بالك أننا لا نخطئ أو أننا غير ساذجين أحياناً. سأروي لك حكاية قصيرة،

حكاية عشتها في كوبا حين كنت أشرف على أمن قواعد الصواريخ لكي تتأكدي من أنني رجل ساذج أو لأقل: رجل حالم. كنت عائداً من الريف، وبالتحديد من مزرعة لقصب السكر، حين أوقفتني مجموعة من الشباب والفلاحين وعرضوا عليّ عدداً من زجاجات البيرة. اشتريت بعضها طلبت من السائق أن يضعها في صندوق السيارة. حين وصلنا إلى البيت، اكتشفنا أن الزجاجات كانت معبأة بسائل لونه يشبه البيرة، لكن لم يكن إلا بولاً. لقد حدث هذا، ولم أغضب كثيراً لأنه كان بإمكاني أن أرفض.

ضحكت إيزابيل ثم قالت:

- كنت أعتقد أنكم تعيشون في أبراج عاجية في كوبا أو في غيرها. ما كنت أظن أنكم تتعرضون لعمليات غش من هذا النوع. ثم ما كنت أظن أنكم كنتم مكروهين إلى هذه الدرجة!.
- يمكنك أن تقولي أيضاً إن البيرة التي كانت تباع في الأسواق ليست بالضرورة أفضل مما اشتريناه من بَول!.

ضحكت إيزابيل مرة أخرى ووجدت أن بازوف لا يخلو من الدعابة. بل هو رجل يعرف كيف يسخر من نفسه، ثم قالت:

- لنبدأ الآن يا سيد بازوف. إني أسألك ما إذا كان رجل الحرب يحتاج إلى الموسيقى لكي يكون أكثر شجاعة؟؟
- يخطر ببالي في هذه اللحظة أن أجعل من سؤالك إجابة، ولكن ليس هذا ما يجب قوله. الموسيقى قد تجعلنا مخدرين،

منفصلين عن عالمنا المادي، قد تضعنا في أماكن أخرى غير تلك التي نوجد فيها. ولكني أشك ما إذا كانت قادرة على جعلنا أكثر شجاعة. فالخوف أقوى من كل شيء لأنه هو الحالة الطبيعية. الموسيقى تضاعف من ذلك الخوف وتكثّفه لأنها تجعلنا أكثر إنسانية. في الحقيقة كنت لا أسمح لرجالي بالاستماع لأي نوع من الموسيقى. في كوبا رأيت فلاحين في مزارع التبغ والسكر والذرة يرقصون على أنغام الكاليبسو لا للتحرّر من الاضطهاد ولكن للاستمتاع بذلك الاضطهاد. أعلم أني أفاجئك بهذا الرأي، ولكن الحقيقة أن الموسيقى علمت البشرية جزءاً كبيراً من آداب الخضوع. إن الكانتيكوم، تلك الترنيمة التوراتية التي استمدت مواضيعها من المزامير ونشيد الإنشاد للنبي سليمان، إنما كانت تعميداً لآداب الخضوع وطلب الغفران والاستعداد للتضحية.

- يقال إن الروس قد برعوا في الموسيقى. ألهذا هم استكانوا للديكتاتورية بكل أنواعها منذ قرون عدة؟!

- يجب ألا تجعلي من إجابتي السابقة قاعدة للتفكير. حذار من ذلك. لقد علمنا العلم العسكري أن القاعدة قليلة جداً. بمعنى أن الحرب فن أكثر منها علماً. أنا لا أصوغ نظريات هنا، ولكني أعتقد أن الكتابة الموسيقية قد تأخرت كثيراً. بل هي حديثة العهد. لماذا؟ لأن الإنسان لم يكن يعتقد بأن النسيان قد يطال النغمات والألحان والأهازيج. لماذا أيضاً؟ لأن مبدعي الموسيقى لم يكونوا يعرفون كيف يكتبون موسيقاهم. ذلك

العجز جعل من الموسيقى نظاماً بدائياً، غرائزياً. من هنا ربما نجد الشعوب البدائية أكثر استغراقاً في الموسيقى. يجب ألا ننخدع بنظام الموسيقى الإمبراطوري الذي ظهر في أوروبا القديمة. ذلك كان، طبقاً لمفهوم الزمن، ثورة في عالم الموسيقى إذ ظهرت كتابة النوتات على شكل واسع بالتوازي مع اختراع الآلات وتطويرها. عندئذ تحررت الذاكرة وأصبح بمقدور الموسيقيين أن يبحثوا عن ألحان ونغمات أخرى غير تلك التي كانوا يخافون فقدانها فيما لو حرّكوا سواكنها. كان الجديد ناسخاً للماضي ثم أصبح منجزاً مستقلاً بذاته. وهذا ما يسمى بتواصل الزمن.

أعود الآن إلى ما يسمى بعبقرية الروس في الموسيقى والرواية. ربما كانت إيذاناً بدخولهم عصر الملحمة. ربما هي تعويض عن تأخير تاريخي وثقافي بالنسبة للإغريق أو الرومان أو حتى العرب. وربما هي تعبير عن روح مريضة معذبة ومستعبدة. هل تعرفين أن أكبر كتاب روسيا بوشكين، هو الذي وصف الروح الروسية بالروح الأفريقية؟ ولا يخفي ذلك قصدَه أنها روح تستحم تاريخياً في الاستعباد.

- إذا لم أخطئ في فهمك، فإن الغناء أو الموسيقى بشكل عام اخترعت لتسلية الملوك؟

- هذا صحيح إلى حد ما. ولكن يمكن أن يقال أيضاً إنها اخترعت لنسيان الطغيان. لا أعرف ما هي الحدود الفاصلة بين ترضية أو تسلية الملوك، وبين نسيان الطغيان. كل ما أعرف أن معظم المغنين والموسيقيين في العالم هم كائنات ساجدة أمام

الملوك. يمكن القول أيضاً إن الموسيقى الروسية تطورت في عهد القياصرة، والأوروبية في عهد الأباطرة، والعربية في عهد السلاطين. ربما هؤلاء الطغاة هم الذين اخترعوا مثل هذه الملهاة العظيمة لكي ينسى الناس مأساتهم المتواصلة. إننا نكتشف المأساة في كل قطعة موسيقية جيدة. ما من موسيقي كبير في روسيا أو في غيرها لم يمدح المأساة بوصفها صقلاً للتجربة البشرية. فحين ألّف تشايكوفسكي «نشيد السعادة» كان المسكين والمعوز آنذاك يريد أن يرضي البورجوازية المهيمنة. وحين ألّف «سينفونية المصير» كان يبحث عن سعادة مفقودة. إن تشايكوفسكي قد يعتبر عبقرياً ولكنه كان كذلك حزيناً لأنه أدرك أنه كان يغني للبورجوازية. ولم يتحرّر من ذلك الهاجس إلا حين ألّف غنائية «بحيرة البجع» التي كانت حاملة لمستقبل واعد.

- هل يعتقد السيد بازوف أن الأعمال الموسيقية الكبرى، أي ما يسمى بالكلاسيكيات الرائعة لبيتهوفن وباخ وموزارت وتشايكوفسكي وفاغنر وفردي وبوشيريني وبرامس، هي خالدة إلى اليوم لأنها واعدة بالمستقبل أو حاملة لمأساة أصحابها وشعوبها!!

- تزعجني مثل هذه الأسئلة، يمكن أن أقول إنني لا أعرف كيف أجيب عنها. أنا أعتقد أن تلك الكلاسيكيات الرائعة هي ما تبقى من الأرواح المعذبة من كل تلك العصور. لا شك أنها كانت تحمل معنى التواصل. فلولا ذلك التواصل لما استطاع

هايدن اكتشاف باخ، وهذا ينطبق على جميع الفنون. أعتقد أن الخط الحيوي للموسيقى الكلاسيكية الذي يمتد من فاغنر وحتى شوينبرغ قد انتهى بعد الحرب مباشرة. الكلاسيكيات كانت تحمل نزعة إنسانية. أما الاتجاهات التي ولدت عنها مثل المقامية الحديثة أو اللامقامية، فقد حملت نزعة الوطنية. كانت تعبيراً عن ميلاد الدولة الحديثة ونهاية لعصر الإمبراطوريات. أقول هنا إن الموسيقى هي الجغرافيا المفتوحة، وقد عاشت الكلاسيكيات لأنها كانت تعبر عن تلك الآفاق المفتوحة. وأعتقد أنها ستعود لتزدهر بين الناس، لأن العالم قد أصبح مفتوحاً. النكهات الفلكلورية والرومنسيات الوطنية والغنائيات اللامقامية كلها قد وصلت إلى أعلى السلّم ولم يعد أمامها إلا السقوط. ومع موت الموسيقي ديميتري سوستاكوفتش وبنجامين بريتن في السبعينيات من هذا القرن، عرفنا أن ذلك النوع من الموسيقى قد أوشك على النهاية.

ـ أريد أن أسألك سيد بازوف: هل كنت مستمعاً جيداً للموسيقي حين كنت في أفغانستان؟ بعبارة أخرى هل كانت الموسيقى ضرورية لرجل حرب مثلك؟ أذكر أن الموسيقار جواشيم سورات قد قال لي قبل أن آتي إلى هنا بأن الروس إما أن يشربوا الفودكا أو أن يستمعوا إلى الموسيقى؟!

ـ لا شك أن السيد سورات يبالغ. تلك هي الصورة الكاريكاتورية للمواطن الروسي. أبداً ليس الروس على تلك الحال. لا نشرب الفودكا أكثر مما يشرب الألمان الجعة. ثم لا

نستمع إلى الموسيقى بالقدر الذي يستمع به الأميركان مثلاً. ويا حبذا لو كان الروس كذلك. عندئذ سيجمعون عملقة الأميركان وقوة الألمان.

- كنت أحب أن أسألك منذ البداية عن أهم الموسيقيين الكلاسيكيين الروس الذين أعجب بهم بازوف؟

- سأجيبك عن ذلك، ولكن بشرط ألا تسأليني لماذا؟ فالموسيقى الجيدة هي التي تبعث بداخلك إحساساً بأن النظام الذي أنت فيه ليس هو النظام الحقيقي. إنها توهمنا بأن هناك عوالم افتراضية أخرى. بل أعتقد أن أهم الموسيقيين هم الذين جعلونا نعيش في الافتراض. إن الحقيقة في الموسيقى لا وجود لها. إيغور سترافنسكي استطاع أن يشيع الفوضى في النظام من خلال مقطوعاته الموسيقية، تلك الفوضى التي بدت بارعة للبعض، بينما البعض الآخر وجدها بشعة وسخيفة. ولكن العالم اعترف به فيما بعد كأحد أهم الموسيقيين. حين استقر في أميركا أصبح يسيطر على عالم الكلاسيكيات. أعتقد أن سترافنسكي هو الذي قال في كتابه «الشاعرية الموسيقية» ما معناه أن الموسيقى هي تتابع إيقاعي بين النشاط والراحة، وبين الاستنفار والاسترخاء. وأن مهمة الموسيقى هي زواج هاتين الحركتين المتعارضتين. إن الموسيقي هو مهندس التجريد. يقيم الكتل والأحجام ويوازن بين الفضاءات والمواد باللجوء إلى الفتحات والتنافسات والتعارضات لكي يعطي لنا في النهاية معماراً ممتازاً. إن الهندسة والموسيقى هما نتاج العجائن

المتناقضة. بدون ذلك يصبح كل شيء مسطحاً وآيلاً للسقوط والنسيان. كان سترافنسكي متهماً بأنه دخيل على عالم الكلاسيكيات الرائعة، ولكن بعد باليه «طقوس الربيع» وأوبرا «عصفور النار» بات ذلك الدخيل إحدى علامات الموسيقى العالمية.

سترافنسكي أحبه جيداً. أجده باهراً ومحلقاً في السماوات العالية. أما الذي لا أستطيع أن أعيش يومين دون أن أسمع شيئاً من موسيقاه فهو تشايكوفسكي. إن أوبرا «عذراء أورليانس» أو «الغاوية» ثم باليهات «بحيرة البجع» و«الأميرة النائمة»، تجعلني شخصاً آخر. أعترف الآن أن تشايكوفسكي قد ألهمني أفكاراً كثيرة حين كنت أمر بلحظات صعبة في حياتي المهنية. ففي كل مرة أسمعه، أحسّ أنه يقترح علي شيئاً ما أو يدعوني إلى طريق ما. إنه ملهم، وهذا لا يتوفر لكل فنان. فالسينفونيات الست التي ألّفها هي بحق ترانيم اعتراف بالجميل. تعرفين أن السيدة فون ميك التي اهتمت مالياً بتشايكوفسكي قد فازت بأكثر ألحان تشايكو خلوداً. كان يقول: إن القدر هو الذي يمنعنا من تذوق السعادة. تشايكو كان عاشقاً لتلك السيدة فون ميك، لكنها كانت ترغب أن تظل العلاقة طاهرة. لهذا كتب يقول لها قبل موته: «السعادة ستظل معلقة عند رأسي كسيف ديمقليطس وهي تقطر باستمرار في فمي سم الفراق». كان عويل تشايكوفسكي الداخلي يتقطر عذوبة في السينفونيات ورقصات الباليه. كان غارقاً في التشاؤم، ولكن لا أحد استطاع أن ينجو من ذلك الحس الثوري الذي يرسله تشايكو في قلوب وآذان الآخرين كإشارات إلهية. إن تشاؤم تشايكو هو غضبه، وغضبه هو مواعيده الخاسرة مع الحب. أحب

السيدة فون ميك فلم تتزوجه. وأحب فنانة إيطالية اسمها ديزيريه فتزوجت موسيقياً إسبانياً. أما أنطونينا التي تزوجها، فلم يعاشرها أكثر من ثلاثة أيام.

كانت إيزابيل قد أصبحت مشدودة إلى بازوف، فبدا لها وكأنه يعزف مقطوعة لتشايكو ذات سلالة تركيبية متطورة جداً. فقد كان بازوف يتحدث عن تشايكوفسكي بإعجاب مثير. أدهشها بمعرفته في فنون الموسيقى، وذاكرته الموسوعية. قالت له، حين راحت تقلب بعض الكاسيت، إنها تخاف ألا يصدقها القراء، أن الجنرال بازوف يستطيع التحدث بهذه الطلاقة عن الموسيقى، فرد عليها: لذلك سأتوقف عن الحديث عن الموسيقى. أنا مجرد هاوٍ، هاوٍ كبير للكلاسيكيات وقارئ جيد لسير الموسيقيين، وفقط. إنني لا أدّعي أكثر من ذلك. ثم إنه لم يعد لديّ ما يجب قوله، لقد أفرغت تماماً مثل كيس. أنا الآن كيس فارغ.

خرجت إيزابيل من بيت الجنرال بازوف شبه غاضبة، أحست أن الحوار غير مكتمل أو هو غير ناجح. لقد قال بازوف أشياء مهمة عن الموسيقى، لكنه تركها في منتصف الطريق وكأنها تائهة. لم تطرح معظم أسئلتها، غير أنه تصلب وأظهر عناداً كبيراً إذ رجاها أن تكتفي بذلك القدر. أخيراً، وبعد أخذ وردّ، اقترح عليها موعداً آخر، ولكنه وضع شرطاً هو أن يكون الحوار شاملاً. أي أن يتكلم في الحرب والسياسة والحياة وحتى الحب. هكذا قال لها. وهكذا قالت إيزابيل لسورات حين ذهبت إليه في الغد.

استطاعت إيزابيل أن تحرر ثلاث صفحات من ذلك الحوار مع مقدمة لا تزيد على نصف صفحة، ثم فرشت أوراقها أمام سورات قائلة له:

ـ اقرأ ما قاله الجنرال بازوف وقل لي ما رأيك؟.

وجد سورات في كلام بازوف قوة ورباطة جأش وهو يتحدث عن الموسيقى كتعويض عن السعادة المنفردة. وأعجب لرأيه حين قال إن المغنين الكبار يولدون زمن الإمبراطوريات الكبرى، وإن مأساة الموسيقيين القدماء والكلاسيكيين الكبار لأنهم كانوا يغنون للملوك والأباطرة. ولم يستغرق سورات وقتاً طويلاً حتى طرح الأوراق أمامه قائلاً:

ـ إنه نابغة. إنه جنرال في الموسيقى أيضاً. لا أعرف إن كان يعزف على الأكورديون أو الكمان أو البيانو ولكني أحس من خلال ما قاله أن لديه خبرة في العزف.

في تلك اللحظة شعرت إيزابيل بالراحة إذ أعطاها سورات تأشيرة لنشر ذلك المقال دون أن تخاف من الانتقاد أو تمطيط الشفاه. ثم نصحها بالعودة إلى الجنرال بازوف لمحاورته في شؤون أخرى. بعد ذلك قال سورات:

ـ لنترك الآن بازوف جانباً. أريدك أن تسمعيني جيداً. لديّ فكرة ما انفكت تشغلني. أنا الآن أفكر في إعداد أوبرا غنائية بمناسبة القرن الجديد قد أسميها «نشيد الألفية الثالثة». فكرتي هي التالية: أريد أن يشارك في النص أناس من كل الأعمار، من كل البلدان ومن كل الحساسيات. لا أقصد هنا الشعراء، أقصد الناس العاديين. إنهم أحياناً ينطقون بالشعر دون أن يعرفوا أن ذلك شعر. وبما أنك مولعة بعالم الإنترنت والأسفار الافتراضية، فإني أحتاج إلى تجميع هذا النشيد الأممي من أفواه وكتابات ورسائل وحتى من حشرجات أولئك الذين تلتقينهم خلال أسفارك.

ـ فكرة جيدة. ولكن قد نحصل في النهاية على غابة من

الكلمات المتقاطعة.

ـ لا، لا. قوة النشيد ستكون في كرنفاليته. لا يهم، ستكون الأوبرا كرنفالاً يعكس لغة وهواجس فئات كثيرة من الناس. سنجد أشياء مهمة لدى ربات البيوت والقوادات والعشيقات ولاعبي البورصة والمرابين وقراصنة الكومبيوتر. سنجعلهم يرقصون على كلماتهم دون أن يفقدوا توازنهم. دون أن يشعروا بالخجل. باستطاعة هؤلاء أن يسخروا من البابا، أو يشتموا الزمن، أن يتحسروا على زمن الحب الذي مضى. بإمكانهم أن يخيطوا قمصاناً زاهية للمستقبل، أو أن يعبروا عن قهقهاتهم الصاخبة وهم يودعون أبناءهم الذاهبين إلى الجبهة أمام القطارات. أو أن يرفعوا تنانيرهن إلى فوق وفرشخة سيقانهن لاستقبال الريح والزمن.

ـ كنت أتوقع كل شيء، إلا أن تقترح علي مثل هذه الفكرة. قالت إيزابيل لسورات الذي قام ليمشي قليلاً أمام مكتبه ثم عاد ليجلس إلى جانبها دون استئذان.

ـ سيكون ذلك أكبر هدية تقدمها إيزابيل إلى جواشيم.

سمعت جواشيم لكنها لم تصدق.

كانت حواس إيزابيل تستمتع بصوت جواشيم الذي اقترب منها وأصبح ينسج من حولها غلافاً جوياً ملؤه الروائح العابقة. الروائح التي تستدعي أحلى الصور وأجملها، الروائح التي تتحول بسرعة إلى وشوشات وهمسات ثم ترتفع إلى شهقات وآهات مبحوحة وممزوجة بالعفة والشبق، وملطخة بالحياء والرغبة.

هكذا ببساطة، فالذي لا يصدق أصبح واقعاً. واقعاً مدهشاً، عابقاً بأجواء المراهقة المستعادة وعالقاً بالماضي الذي يريد أن يمضي. فمنذ زمن وأنا أتخيل نفسي بين أحضان رجل موسيقى أو رجل أو حرب أو بين أحضان رجل دين. لا أدري لماذا تجتاحني تلك الصور حتى عندما أكون في أحرج الوضعيات. ربما من كنيسة «سان جوليان» حيث كنت أذهب مع أمي لحضور ترانيم صباح الأحد. اختلطت منذ ذلك الوقت في ذهني، أي في عقلي الباطني، صورة الراهب مع صورة قائد الأوركسترا مع صورة القائد العسكري. كان الراهب ينظر إلى أمي بعيون مريبة. أما أمي فقد أيقظتني على أن قائد الأوركسترا يسرق نظرات شبقية باتجاهي. راقبته فوجدته ينظر إلى حذائي وجواربي. كان يطيل النظر في ساقي ثم يبتسم بخبث. لا أعرف إن كان يقول لي من خلال تلك الابتسامة أنه رجل طيب، أو أنه يرغب في استدراجي. لم أحك لأمي أي شيء، لأنها لم تقل لي شيئاً عما كان يدور بينها وبين الراهب من خلال تلك النظرات. كانت أمي حريصة على الذهاب إلى كنيسة «سان جوليان» في كل أيام الآحاد. كما كانت تصرّ على أن تكون مرغوبة في جميع الأحوال ومن جميع الرجال. لا أعتقد أنها تجرأت على فعل شيء يحط من رجولة والدي. فقد كانت تعبده وتهابه. الأحرى أن أقول إنني لم أمسك ضدها أية حجة بأنها تجاوزت العتبات الممنوعة. ولكن من الأكيد أنها فكرت في ذلك الممنوع، أو أنها اشتهت أن تكون عشيقة. كان عمري أقل بشهرين من الخامسة عشرة حين غادرت البيت لكي أدخل إلى مدرسة الراهبات. لقد اختار والدي أن أدخل إلى «ليسيه لوفرير» بوصفي تلميذة داخلية. وافقت والدتي بدون أي نقاش. بدا لي أنها

كانت تريد أن تتخلص مني إذ أصبحت فتاة ناضجة أو بالأحرى منافسة لأنوثتها. كنت لا أعود إلى البيت إلا في عطلة آخر الأسبوع. وفي صباح كل أحد كنت أصحب والدتي لحضور القداس في الكنيسة نفسها. أنا نفسي كنت أرغب كثيراً في رؤية قائد الأوركسترا وهو يبتسم إليّ خفية وكأنه يدعوني إلى موعد. أما أمي فقد أحسست أنها أصبحت عاشقة صامتة لذلك الراهب. فحين يقترب منها تشد يدي بقوة. وبعد أن تتناول علكة أو قطعة شكولاتة من صحن الراهب، تقول لي: «إنه رجل مهيب. لا أعرف كيف ينظر إليّ بكل تلك الرغبة. ألم تلاحظي ذلك يا إيزابيل. إنه خطير؟». لا أصدق أذني، ولا أعرف بماذا أجيب. مع ذلك، ربما أكون أفكر في ما تفكر فيه أمي، وهو أن أصبح عشيقة لقائد الأوركسترا وتصبح أمي عشيقة للراهب. ثم أعود إلى رشدي قائلة. «يا للعار. هذا انتهاك للأمومة». غير أنني أكون حاسمة في ذلك بقدر ما أكون راغبة أن تنزع أمي عنها الحياء وتنطق بما كانت تشتهي. كنت أقول إن عمرها يمضي. وقد عبرت على جسر الشباب، أو ما تبقى من فتنتها سوف يسقط قريباً. ربما ألوم نفسي الآن لأنني لم أدفعها أو أشجعها على ذلك. ولكني لم أكن واثقة من أنها ستصارحني. هكذا كنا. كل واحدة تحتمي بسياج من العفة وهي غارقة في بركة من الرغبة والاشتهاء.

كان باب المكتب المؤدي إلى الصالون مغلقاً. لم ألاحظ قط أن جواشيم قد أغلق الباب وأنزل الستائر. فقد فعل ذلك بكثير من الخفة، ولكن لم أعد أذكر متى فعل ذلك. نهضت عارية من فوق الأريكة. لم أخجل من عريي، فجسمي كان متناسقاً بحيث يجعلني أكثر حرية بعد الحب وذلك بعكس ما يحدث عادة مع النساء ذوات الأجسام غير المتناسقة. فهن

ينزعن ثيابهن بسرعة قبل الحب وأثناءه، ولكن بعد ذلك يجدن صعوبة في المشي عاريات أمام الرجل الذي كان يعصرهن تحت ذراعيه. داعب جواشيم جسمي ثم ضرب على مؤخرتي قائلاً: «إنها أجمل مؤخرة أراها في حياتي». كان لا يزال جالساً على الأريكة. قرّبني منه ثم طبع قبلة على عانتي وقال: هذه أجمل عانة أقبلها في حياتي. جذبني بقوة وضمّني إليه ثم قال: ما رأيك أن ننتقل إلى السرير.. تمشيت أمامه عارية. اجتزنا الصالون ثم دخلنا إلى رواق غرفة نومه. كان يجرّ سرواله الذي علق برجله كما يجر الضبع رجله الخلفية، وهو يلاصقني بلحمه الدافئ. بطحني على السرير ثم ارتمى إلى جانبي، استلقيت فأصبح رأسه قريباً من بطني. كان أقصر مني بسنتيمترات عدة حين كنا واقفين، ولكن حين تمددنا بدا أطول مني. لم أزح رأسه من فوق بطني، ولكن داعبت شعره الطويل والخفيف فلامست صلعته التي ما انفكت تتسع. كان كل شيء يدور في ذهنه بسرعة البرق. لم أتحرك كثيراً، ولكني جعلته يغطس بين فخذي. أصبح رأسه في متناول سرتي ثم في مستوى عانتي. ثم رأيته يلعقني. كان لدي انطباع أنه لن يفعل ذلك. ولكني لا أعرف الآن إن كان يحب أن يفعل ذلك أو يفعل ذلك لأنه عرف أنني أحب أن يفعل ذلك. الفكرة في حد ذاتها كانت تجعلني عبدة. أما وقد أصبح يلعق وأنا أسمع سقسقة لسانه، فقد رحت أصرخ وأشد على رأسه بكلتا يدي وكأني أريد أن يأكل جزءاً من عضوي. كنت أحس أنه تعب من اللعق، لكنه كان يريد أن يجعلني أكثر جنوناً. كان يريد أن يشبعني. ثم كنت أفكر في استعداد عضوه. لم يكن في متناول يدي، ولكني لامسته بقدمي. أحسست بنشوة من نوع خارق إذ عرفت أنه منتصب. وفي

الوقت نفسه عرفت أنني لا زالت أحتفظ بجوربي الصغير. ذلك الجورب الذي ما رآه رجل إلا وتمنى أن يلحسه. فجأة تحايلت عليه بحركة التفافية جعلتني في مستوى آخر غير الذي كنت فيه. أصبحت أكثر هيجاناً. أخذت أصبعه ووضعته في فمي. مصصته طويلاً، وهو يداعب عضوه. ثم قلت له: ناولني عضوك. ضعه في فمي. أحب أن أعصره. أحب أن تملأ فمي بعصيرك. هاته. ضعه. أين هو؟. آه. ما هذا. إن دماغي سيفرغ. إن دماغي سيخرج. كان يئن، بينما كنت أريد أن أستمتع بصراخه. وأخيراً صرخ. قال وهو شبه مخبول: هذا جنون. إذن أريدك أن تبلعيه. إنه لذيذ. ثم تنهد وكأنه يغادر الحياة. كانت تنهيدة خرقاء ولكنها كانت فعلاً ذات إيقاع غريب ومتقطع. بعد برهة قلت له:

- لا أريد أن أتعلق بك.
- سنترك ذلك للزمن. لنجعل من علاقتنا جسراً للصداقة والتعاون. قال جواشيم وهو لا يزال مستلقياً، فاتحاً ساقيه وذراعيه وكأنه المسيح المصلوب:
- لا أريد أدخل في تجربة مليئة بالشفقة أو بالحنان. أنا أريد أن تبقى خامتها الأولى هي طاقتها.

لم أشأ أن أقول له إنني أحب أن أكون مبتذلة أمامه. لم أقل له كذلك إنني أرغب أن أكون ضعيفة أمامه ولكنه كان يقرأ أفكاري الباطنية إذ سمعته يقول:

- سأكون الرجل الذي تشتهين أن يكون. أنت منجم من الأنوثة وكان علي أن أحفر بداخله. سأظل أحفر وأحفر. هناك بريق لا بد أن أصل إليه.

١١

كان لا بد لإيزابيل أن تعود إلى البيت. فالمساء قد حط على باريس بسرعة ولكن ببهجة عارمة. كانت تريد أن تنام مبكراً هذه الليلة. ثم إنها لم تر ابنها بيار طوال اليوم وتخاف أن تعود متأخرة فتجده قد نام. أما مارسيل زوجها ذو الروح المسيحية الهادئة والصبورة فهو الآخر ينتظرها ليتعشى معها. لقد طلبها بالهاتف أكثر من مرة. مع ذلك كله كانت لا تريد العودة إلى البيت لأنها كانت ترغب في البقاء ملتفة بتلك المغامرة العارمة مع جواشيم. عرجت على مقهى «التروكاديرو» لتشرب عصير طماطم. وهناك أمضت أكثر من ساعة وهي تتصفح المجلات. أدركت إيزابيل أن حياتها قد قطعت إلى شطرين، ولكنها لم تكن مهيأة نفسياً لكي تتحدث إلى رجل آخر في تلك الليلة. ومع أن مارسيل رجل بسيط وواضح وربما ساذج، حتى أنها عندما تكون معه لا تجد نفسها مضطرة أن تكون أكثر أنوثة أو نعومة أو ذكاء، إلا أنها كانت ربما تخجل مما فعلته مع جواشيم. باختصار، لقد حلّ الاضطراب في داخل إيزابيل، ومع الاضطراب ظهر خجل ثقيل مثل

العار على حركاتها. لم ينتبه مارسيل إلى مجيئها في البداية، فقد دخلت الشقة كما يدخل السراق ثم اتجهت إلى غرفة نوم بيار مباشرة. كان يغط في نوم عميق. قبّلته برفق، بعد ذلك دخلت إلى غرفة نومها، نزعت ثيابها ثم اتجهت إلى الحمام. حينها وجدت الحماسة لكي تنادي على مارسيل من وراء الباب وتقول له:

ـ أنا هنا. إنني مرهقة. خمس دقائق وسآتي إلى عندك.

بعد الدوش، أحست أنها خرجت من حالة الاضطراب. قالت لنفسها وهي تنظر في المرآة: لقد اجتزت الحدود، لذلك من الصعب أن أعود كما كنت. سأصبح امرأة أخرى. امرأة مشطورة إلى نصفين. وربما إلى ثلاثة أجزاء. قالت أيضاً: هذه طفرة مرعبة في حياتي. هل يكون مارسيل هو السبب؟ ربما، ولكن كنت سأجد كل المبررات الكافية لكي أخون؟ أجابت عن ذلك كما تجيب كل النساء إذ رمت السبب الرئيسي على كاهل مارسيل، مارسيل الضعيف، مارسيل الودود، مارسيل المهان كحق مكتسب. ثم أجابت بطريقتها الخاصة إذ فكرت بأن المرأة لا تخون زوجها، لكنها تخون عاشقها! كانت تعتقد أن ذلك يحدث معها. فقد سافرت كثيراً وعرفت رجالاً كثيرين وتعرضت لإغراءات شهية وكثيرة ولكنها صمدت. ورغم أن تربيتها الرصينة ذات المسحة البورجوازية قد أوقعتها مرات عدة في الدجل وفي تقسيم نفسها إلى كائنين مختلفين، إلا أنها لم تتجرأ قط أن تتخطى العتبة التي ربما لم تقدر أمها على تخطيها.

قالت لمارسيل وهي ملتفة بروب الحمام الوردي:

ـ لقد تأخرت كثيراً لأنه كان من الواجب أن أسلم المقال هذا المساء.

أحست بشيء من الاحتقار لنفسها لأنها كانت تكذب. لأنها كانت تنساق شيئاً فشيئاً إلى العالم الصبياني. لأنها كانت تتكلم إلى مارسيل وفي الوقت نفسه كانت تستمع إلى نبض الجنس مع جواشيم في داخلها. كانت ربما تحتاج إلى كلمة نابية. كلمة واحدة من فم مارسيل لكي تنفجر وتصبح عصبية. ولكن مارسيل لم يعطها تلك الفرصة. عاد الاضطراب إليها. لم تكن ودودة مع مارسيل في تلك الليلة. ولو كان مارسيل على درجة من الذكاء لأحس أن إيزابيل كانت مختلفة ومستفزة. كان لا يعرف أن المرأة حين تخون تصبح أكثر عصبية مع زوجها. وذلك بعكس الرجل، فهو يعود بعد غزواته العاطفية أكثر وداً وهدوءاً. بعد لحظات قالت إيزابيل لمارسيل:

- الآن حان وقت الاتصال بدوغ. لقد وعدته بذلك. الساعة الآن في فلوريدا تقارب الثالثة صباحاً. هذا هو الوقت المناسب للحديث معه.

لم يعلق مارسيل. ولم يسألها كذلك عما فعلت طوال ذلك اليوم. ثم قام ليذهب إلى فراشه. كان ينتظرها بحرقة. ثم ها هو ينسحب كجندي منهزم.

جلست إيزابيل بروب الحمام الوردي الطويل أمام الكومبيوتر. وضغطت على زر التشغيل. كانت لا تزال مسكونة بمغامرتها مع جواشيم. فكرت لو تحدثت مع دوغ عن تلك المغامرة فلربما جعلها ذلك أكثر هدوءاً، لكنها استبعدت الفكرة من دماغها تماماً. جاءتها نافذة الإنترنت. فكتب: دوغ، Yahoo.massenger.ami.DOG. ها هو دوغ يخرج إليها كما لو أنه كان في انتظارها في تلك الدقيقة بالذات.

ـ أهلاً دوغ. أقول لك، صباح الخير.

ـ كيف حال باريس إيزابيل؟ ربما سآتي في الصيف إلى هناك. إنها ولا شك مشعّة وستزداد إشعاعاً حين تقترب أعياد الميلاد.

ـ ربما التقينا. لا تتردد في القدوم إلى باريس.

ـ سنمشي معاً على الـ «سين». هل تحبين ذلك؟

ـ سنمشي معاً إذا كنت تحب أنت ذلك.

كانت إيزابيل تجد صعوبة في ترجمة كل ما تفكر فيه إلى الإنكليزية. ولكنها كانت تصوغ أسئلتها وأجوبتها على نحو واضح. أما دوغ فهو لا يلجأ إلى الكتابة المختصرة كما يفعل مع أصدقاء آخرين. فهو حريص على أن تفهمه إيزابيل جيداً حتى لو تطلب ذلك منه جهداً مضاعفاً. وهكذا كتب لها فقرة طويلة: «بحثت في الأرشيف عن الجنرال يفغيني بازوف.. لقد عثرت على مراجع عدة، عثرت كذلك على كتابه «الأزمنة المطوقة». اسمه موجود في أكثر من كتاب. كان معروفاً في عالم الجاسوسية بالرجل رقم ٥٩. عمل في الـ «كا.جي.بي» طويلاً. عُيّن سفيراً في عهد غورباتشوف لكنه لم يتسلم مهامه». على أية حال سأرسل لك قصاصات عدة على البريد الإلكتروني. E.Mail لا تقلقي.

ـ شكراً، شكراً دوغ. إنك تغمرني بالسعادة. ثم كتبت:

ـ إني في حاجة إليك هذه المرة لموضوع آخر. صديقي الموسيقار جواشيم سورات يرغب في تأليف أوبرا عن الألفية الثالثة. طلب مني أن أساعده في جمع مقاطع شعرية يكتبها أكثر من شخص من أكثر من بلد. هل تستطيع أن تساعدني يا دوغ؟

ـ هذا شيء رائع. إنها فكرة جيدة. كم لديّ من الوقت؟

ـ أسبوعان ـ ثلاثة على أكثر تقدير.

ـ لا يهمك، سأفعل ذلك. إنها لعبة مثيرة ومسلية في الوقت نفسه. ولكن ما رأيك الآن لو أصحبك في رحلة إلى مدينة يتمنى كل إنسان زيارتها؟ استعدي لذلك. ستكتشفين بنفسك أية مدينة أقصد. ودون استئذان وجدت إيزابيل نفسها تسير في شوارع ضيقة محاصرة بالماء. فجأة تنفتح أمامها آفاق شاسعة كشفت عن ساحة القديس ماركو وكنيسته الشاهقة والمتضاخمة. عرفت بسرعة أنها في البندقية. فهي قد زارتها فعلاً حين كانت صبية مع والدتها ووالدها. وتذكرت أنها أضاعت في زحام تلك الساحة ساعتها القرمزية المقاومة للماء، وهي أول ساعة تضعها في يدها. لا تدري إلى اليوم كيف نزعت تلك الساعة من معصمها، ولكنها تذكرت أنها ظلت حزينة وتشهق بالبكاء لمدة يومين وإلى أن اشترت لها أمها ساعة أخرى.

كان دوغ يمسك بيدها وهو يدفع بصدره الزحام نحو مدخل الكنيسة. أرادت أن تقول له: لا أعتقد أنك قررت الزواج بي، لكنه كان يريد الارتفاع قليلاً عن مستوى الزحام. وفي الدرج العاشر، أشار عليّ دوغ بالتحديق في الرسوم الهائلة التي غطّت مدخل الكنيسة. قال لي: هنا تبرز عبقرية تجار البندقية. البندقية التي صنعها التجار على هذه الهيئة هي المثال الحي لمدينة الغد التي يحلم بها التجار. لا أدري إن كان تجار اليوم يفكرون على طريقة تجار البندقية؟ لا أدري إن كانوا محبين للفن أو هم ضباع كاسرة ونهمة ومخربة للأذواق والجمال!. ولكن البندقية هي أجمل ما قدمه التجار للإنسانية.

غادرنا ساحة سان ماركو (القديس مرقص). دفعني دوغ إلى الأمام وهو يشق الزحام. قال لي: سنذهب إلى جسر الأحلام. بدا أنه يقع على ضفة أخرى بعيدة، لكنه كان قريباً جداً منّا. عرفت أن خدعة المشهد المعكوس على صفحة الماء هي التي أظهرت لي الجسر بعيداً. الزقاق الأول قطعناه في أقل من دقيقة وكان مرصوفاً بدكاكين ومحالّ تجارية أغلبها كان مغلقاً. أما الزقاق الثاني، فكان مزروعاً من الجانبين بالفيلات البورجوازية المكونة من طابق واحد. لم ألاحظ أن البندقية مهددة بالغرق كما تقول تقارير حماية الآثار بمنظمة اليونسكو، ولكن دوغ قال لي: إن جسر الأحلام الذي أصبحنا فوقه الآن كان مستواه أعلى بنحو ١٠ سنتيمترات عما كان عليه قبل نحو خمس سنوات. وكثيراً ما تكشف مدينة عن مدينة. فالمدن غالباً ما تكون مرايا عاكسة لمدن أخرى. هذا لم ألاحظه كذلك في البندقية، فهي بحق عجيبة ووحيدة في انسيابها وعناقها مع الماء. في توحدها بذاتها. وفي نومها في حضن التاريخ. أزقتها الصغيرة والطويلة لا تؤدي إلى الفراغ كما تؤدي شوارع المدن الكبرى. ثم إنها ليست مزدحمة بالسيارات أو بالقطارات أو عمال المناجم ولا حتى بالصيادين. كان جسر الأحلام هو النقطة الفاصلة بين «بندقية» الفنانين و«بندقية» التجار. كان أيضاً نقطة اللقاء للعشاق والفنانين الكبار وحتى للكهنة . فهو ممشى ضيق فوق الماء، لكنه يتيح للعابر أو الواقف عليه أن يكون في موقع المتمكن من القبض على أكثر من زمن. وأكثر من مشهد وأكثر من حب. شد دوغ على يدي، فأحسست أنه كان ينتظر لحظة عبورنا على الجسر لكي يعبر من خلاله إلى قلبي، ثم قال لي:

ـ لنقف قليلاً كما يفعل العشاق.

أعجبتني عبارته البسيطة. لم تكن عبارة ساخرة ولكن طريقته في التعبير كانت تدهشني لأنها تحاذي السخرية.

ـ هل تريد أن تقبلني أيضاً كما يفعل فرسان البندقية في العهود الماضية؟

ـ أريد أن أقبلك كما يفعل الأميركان.

ضحكت فضحك دوغ بشهية. رمى بعض الفتات الذي كان يحتفظ به في جيبه للأوزات الثلاث اللاتي يسبحن تحت الجسر. ثم أخرج وردة حمراء ليضعها على صدري. قال:

ـ هذا كل ما عندي يا إيزابيل. هذه الوردة قطفتها من حديقة اللوكسمبورغ في باريس قبل حين في غفلة من الحراس. لم أكن أعرف لمن سأهديها حين قطفتها. ولكن أعتقد أنها كانت لك لأنني شممت رائحتك من خلالها.

ـ ألهذا الحد أنت مغرم بي وأنا لا أعرف يا دوغ؟!

كان جاداً ومتحمساً في إجابته ومنطلقاً في حماسته. إذ سمعته يقول:

ـ هل تريدينني أن أصرخ بأني أحبك؟ ها أنني أصرخ من فوق جسر الأحلام، ها أن البندقية كلها تسمعني: «يا عشاق العالم القديم والحديث باركوا في حبي لإيزابيل». ثم التفت إلى ساحة «سان ماركو» صارخاً. و«أنت يا أيها القديس العاشق.. فلتبارك أنت والرب في حبي لإيزابيل».

عادت إيزابيل في تلك اللحظة إلى سنوات العشرين. كانت قد اجتازت امتحان البكالوريا بنجاح. ولذلك وقد نفذت ما وعدت به نفسها منذ بضعة أشهر، وهو أن تقوم برحلة إلى جنيف مع زميلها ميشال الذي كان

يطاردها طوال السنة الدراسية، فيما كانت تصده بكل عناد، إذ قررت أن تدفن رأسها في الدروس إلى آخر السنة. وفي جنيف، وعلى الجسر المؤدي إلى المدينة القديمة، شد ميشال على يديها واقترب منها قائلاً:

ـ أعتقد أن هذا أهم مكان في العالم يمكن أن يتعانق فيه عاشقان.

مانعت قليلاً، لكنها كانت موافقة في الصميم على أن تقبل ميشال. وفي الغد اشترت بطاقة بريدية وكتبت عليها التالي: «أمي، لقد ذقت اليوم طعم القبلات.. قبلاتي.. أنا حبيبتك إيزابيل».

كنت آنذاك فتاة بلا رجل. فتاة لم تعرف الحب الجسدي. عرفت بعض القبل وكانت لحظات غير مكتملة تتم خلسة فكانت تزيد من عذابي. أما الآن وأنا واقفة مع دوغ، فلا شك أنني امرأة ذات خبرة في الحب الجسدي لكن ينقصها حب من نوع آخر. حب من النوع الذي يجعلني ضعيفة ومستسلمة مثلما أحب أن أكون. حب لا يجعلني ضجرة من الحياة ومتألمة من البرودة التي تجتاحني حين أكون مع مارسيل. بدأ الحزن يقترب مني مع الضباب الذي راح يغطي البندقية، وإذ نظرت إلى دوغ، فقد وجدته لا يزال هائماً بي. كان طويلاً وقوياً. له عينان قادرتان على النفاذ ما تحت اللحم. هكذا بدا لي.. أو لا أعرف، هكذا كنت أريد أن أراه. وفجأة سرت بداخلي نفحة إرادية فتوقفت عن الخبل الذي كنت أعوم فيه ثم قلت لدوغ:

ـ ماذا سنفعل الآن؟

ـ سأتصل بكل أصدقائي لكي نبدأ في كتابة النشيد. بعد ذلك سألني:

ـ هل السيد جواشيم سورات رجل مسيس؟

حرت في الإجابة. أعرف أن جواشيم قلما يتحدث في السياسة، ولكني خمنت أن دوغ ربما يريد أن يعرف اتجاهات جواشيم وما إذا كان يسارياً أو يمينياً أو وسطياً ليبيرالياً. ثم غامرت بالإجابة التالية:

- إنه رجل يفهم السياسة على طريقته. لم يعد يؤمن لا بالأحزاب ولا بالأيديولوجيات. كان يردد علي باستمرار أن هذا العصر هو عصر اللاسياسة. وأعتقد أنني أوافقه على ذلك. فهذا القرن قد أنهى أشياء كثيرة من بينها السياسة.

قفز دوغ من شدة الفرح وكأنه عثر على كنز خبأه أحد تجار البندقية منذ زمن بعيد. ثم تمالك وقال:

- هذا رجل مهم. إنه يفكر في ما نفكر فيه جميعاً.

سألته:

- من جميعاً؟. فقال بسرعة:

- أقصد بـ «جميعاً» جماعتي أو مجموعتي. نحن مجموعة من الشباب نرى أن السياسة في طبعتها القديمة قد انتهت. نحن الآن بصدد إنشاء حزب افتراضي. لدينا فكرة ما انفكت تضغط علينا: إننا نريد أن نؤسس أول حزب أممي مئة في المئة. أول حزب مفتوح لكل الأجناس والأعراق والبلدان.

- وما هي أهداف هذا الحزب؟ سألت دوغ وأنا أجره إلى شرح فكرته فقال:

- لا أهداف محددة. تشغلنا فكرة الديموقراطية. ولكن الديموقراطية ذاتها لم تعد ذات محتوى. المهم أن نناضل ضد السياسة، أي ضد الدجل.

- كل الأحزاب في البداية تدّعي ذلك ثم تصبح مجموعات ضغط تمارس السياسة في أبشع صورها.
- نحن نختلف في ذلك لسبب بسيط هو أننا سنكون غير منتمين لأي فضاء. ثم إننا لن نقع تحت أي ضغط ولن نركض وراء أية إغراءات. لا يهمنا الرأي العام كما لا يهمنا المجد. أريدك أن تفكري في هذا الموضوع. إني أرى فيك طاقة لا تنضب. أنت صحافية ولا بد أن تساعدينا على نشر فكرتنا. إن حزبنا سيطفو على الواقع. نحن أبناء الموجة القادمة، ولا بد أن نتدافع بقوة حتى نجعلهم يشربون من البحر.

* * *

ودّعت إيزابيل صديقها دوغ على جسر الأحلام. لم تعد تعرف كيف اختفى ذلك الطيف بعدما رسم لها على الشاشة تفاحة شهية!. لم تعرف كذلك ما كان يرمز إليها من خلال ذلك الرسم. كانت تريد أن تنام، ولكن في غرفة لوحدها لا إلى جانب مارسيل الذي أصبح يغط في نوم عميق. ارتمت علىٰ كنبة الصالون بعدما ارتدت بيجامتها الصوف الناعمة، وهي بيجاما من قطعتين اشترتها قبل يومين فقط، ثم غطت نفسها بلحاف قطني مزركش جلبته من غرفة بيار. وبالرغم من أن يومها كان طويلاً وجسمها كان يحتاج إلى الراحة، إلا أن النوم استعصى عليها. فكرت في جواشيم فكادت أن تستأنف معه همساً دافقاً كما تفعل أية امرأة تسقط لأول مرة في شرك عشق مدنس. فتربيتها المسيجة بتعاليم القسوة والعفة والارتداد الداخلي ما زالت تكبل أعماقها. وفكرت

في مارسيل، فكادت أن تبكي كما تفعل أية امرأة لا تعرف الكذب. ثم فكرت في عبدالرحمن فأحست باضطراب يجتاح كل امرأة هاجرها زوجها الأول. وأخيراً فكرت في دوغ الفتى الذي أشعل شمعة أخرى بداخلها وتركها تطقطق كخشبة هشة دخلت إلى النار. وضعت لنفسها برنامجاً مكثفاً ليوم الغد. فهي تريد أن تذهب إلى الصحيفة، بعد ذلك تذهب إلى بيت الجنرال بازوف لاستكمال الحوار معه، ثم عليها أن تذهب إلى زيارة والدتها. وبعد ذلك ستتصل بدوغ لترى معه ما إذا جمع بعض الأبيات الشعرية. لم يكن في برنامجها أية دقيقة لمارسيل زوجها، ولا لابنها بيار. تفطنت إلى ذلك وقد أغضبها أن تكون زوجة مهمِلة لزوجها وابنها، غير أنها وعدت نفسها بأنها ستفعل ذلك في عطلة نهاية الأسبوع. هذا ما تعد به كل أم مهملة حتى إذا جاءت عطلة آخر الأسبوع، وجدت مبررات كثيرة لكي لا تفعل شيئاً لأبنائها وزوجها. هذا أيضاً ما يفعله أب كسول تجاه زوجته وأبنائه حتى إذا جاءت عطلة آخر الأسبوع أصبحت عيونه تقدح شرراً. ثم يدخل الأسبوع الجديد وهكذا دواليك إلى أن يستيقظ ذات يوم على الحقائق المرة.

* * *

عندما خابرت جواشيم في الصباح، وكان ذلك أول ما فعلته بعد ليلة مضطربة، وقلت: إنني لم أنم جيداً، قال لي جواشيم:

ـ ستنامين جيداً في الليلة المقبلة. لا بد أن حال مارسيل كانت تعذبك. بعد برهة من الصمت دهمني يقول على نحو مبتذل:

ـ ما رأيك أن تأتي عندي أيتها الكلبة الجميلة؟ أحب أن ألعق ذيلك الجميل.

- هالني ما سمعت إذ وجدته مبتذلاً. بدا لي وكأنه عجوز يهذي. ثم رغبت في سماع المزيد من ذلك الكلام. قلت:
- هل أنا كلبة يا جواشيم؟
- أنت كلبتي أنا وفقط. هل يغضبك ذلك؟

اشتهيت أن يعيد ما قاله. أن يضيف كلاماً آخر أكثر ابتذالاً. أحسست كذلك أنني أستحق تلك التسمية. لا بل أحسست أني عثرت على الرجل الذي يهمني، الذي قد يجعلني أتألم وأنا أغفر له. ثم قلت:

- هل تعرف يا جواشيم، أن لي صديقاً يدعى دوغ؟ صديق أميركي.
- إذن أنت تحبين كلاباً كثيرة. هل هو قوي وجميل؟
- فاتن. إنه رائع. إنه موغل في القدم والبهاء مثل المسيح.
- وهل تحبينه؟.

لم أجبه.. ولا شك أنه سمع همهمة على الخط، فأعاد سؤاله على إيقاع آخر وبصوت جذاب كمن يريد أن يسجنني إلى جانبه:

- وهل يحبك؟

لم أجبه مرة أخرى، تركته سجين احتمالات كثيرة. أردت أن أزرع بداخله شيئاً من الشك. لا بل كنت لا أعرف بما سأجيبه على وجه الدقة. وسمعته يقول:

- إذن قضيت الليلة بلا نوم لأنك كنت تفكرين في استبدال كلبك جواشيم بكلب أميركي.

تركته يقول ذلك بلسانه حتى بدا لي وكأنه قد سقط تحت قدمي طالباً الغفران. لم تعجبني تلك الصورة إذ جعلتني أخرج من حالة الضعف

الجميلة التي أحبها، فقلت له:

ـ كلبي الأميركي هو طيف. إنه كلب افتراضي يا مجنون. إنك لن تصدق كيف يأخذني إلى لا نهائية الكون. لقد تجولت معه البارحة في شوارع البندقية. إن مجيئه فائق السرية وكذلك ذهابه. إنه الرجل الوحيد الذي يخترق أزمنة عديدة وأمكنة عديدة. قمت معه إلى الآن بأكثر من عشر جولات. لقد طاف بي العالم. أصبح يسكن كياني.

ـ لم أفهم. ولم تحدثيني من قبل عنه. هل هو موسيقي أم ساحر؟

ـ لا هو موسيقي ولا هو ساحر.

ـ اثنان فقط بإمكانهما أن يطوفا بك في أرجاء العالم هما الموسيقي والساحر.

ـ هناك ثالث ورابع.

ـ من يكونان؟

ـ الراهب. إن رجال الدين كثيراً ما يجعلون من بيوتنا أعشاشاً صغيرة نعود إليها للنوم فقط.

ـ والرابع؟

ـ هو دوغ. هو كلبي الأميركي.

ـ لا بد أنه سينمائي. السينمائيون هم أيضاً يطوفون بنا في أرجاء العالم.. أو جاسوس. الجواسيس هم أيضاً يصنعون من النساء حقائق محشوة بالزهو والخداع.

أيقظني جواشيم بذكائه على فكرة لم تخطر ببالي قط. قلت لنفسي إن دوغ

لا بد أنه جاسوس أو هو مغرم بالسينما. لا بد أن يكون كاتب سيناريو على الأقل. أحالني تجوال دوغ على أفلام سبيلبرغ، تذكرت فيلم «الوطواط». كانت الأسئلة التي أعددتها للجنرال بازوف الجاسوس السابق قد بدأت تحوم فوق رأسي، ثم اختلطت بأسئلة أخرى أنوي طرحها على دوغ فيما بعد، ثم عدت إلى جواشيم كي أجعله قوياً ومفتتناً بنفسه لأقول له:

ـ سآتي إلى عندك بشرط ألا أتأخر كثيراً.

ولا بد أن جواشيم قد شعر بالغبطة، وكذلك بالضغط، فهو يعرف أن مثل تلك الجمل تقولها النساء دون تفكير كبير. بل هن أحياناً يقلنها من أجل أن يُشعرن الرجال الذين في انتظارهن أكثر لهفة وحرقة. ومع ذلك فإنها، أي تلك الجمل، غالباً ما تحدث خللاً داخل ساعة الدماغ الذي حالما يلتقطها يصبح فاقداً للتركيز، أعني دماغ الرجل الذي يعطي مباشرة إشارة لإطفاء النور داخل الروح، يترجمها العضو الذكري بحالة من الكسل أو الامتناع عن الانتصاب. هذه الحالات يعرفها جيداً جواشيم، لذلك لا يريد أن يسمع أي شروط:

ـ عليك أن تأتي وفقط. ثم أضاف:

ـ ستنسين كل شيء حين تكونين هنا.

أعادت إيزابيل شرطها بعناد ثم أضافت إليه شرطاً آخر (هو أن تأتي بعد أن تقوم بكل أعمالها)، أدرك من خلاله جواشيم أنها ستبقى إلى جانبه إلى حين يأمرها بالذهاب. فقال:

ـ أنا في انتظارك. باي، يا كلبتي الوديعة!!

١٢

خرجت من بيت جواشيم وكان المساء لا يزال طرياً. ذهبت إليه بشوق وخرجت من عنده بلهفة.
لم أعد أعرف ما الذي حدث. تركته منشرحاً ومفتوناً بقدرته العجيبة على الجنس. لقد صفعني صفعات عدة على مؤخرتي. كان يتحسّس مناطق اللذة، لكنني لم أجاره في ما كان يرغب. قلت لنفسي وأنا اتجه إلى بيتي: لماذا أحب أن أتعذب؟ بل لماذا علي أن أعذب الرجل الذي اخترت أن أتزوجه؟. ما كنت أرغب البتة في أن يذهب خيالي إلى مارسيل في تلك اللحظة، ولذلك فقد خطفني دوغ، طيف دوغ وأنا أفتح باب العمارة الخارجي. كان موعد اتصالي بدوغ قد اقترب. شعرت بالخجل وبالبهجة في الوقت نفسه. الخجل من نفسي ومن مارسيل الذي يكنّ لي أنبل المشاعر، وبالبهجة لأنني سألتقي بدوغ.

لا أعلم ما إذا كان دوغ يفكر نحوي بالطريقة نفسها. لا أعلم إن كان هو ينتظر موعدنا بكل هذه البهجة. ولكن لا يهم، فما دمت أنا مشدودة نحوه بسلك كهربائي، فإن التمادي في هذه الطريق قد أصبح إدماناً.

كنت أخبئ له سؤالاً واحداً هو، ما إذا كان كاتب سيناريو أو مخرجاً سينمائياً؟. أعرف أن جوابه لن يغير بداخلي شيئاً، غير أن جواشيم قد أعاد تأكيده في ذلك بأن دوغ لا يمكن إلا أن يكون فتى مغرماً ومفتوناً بالسينما. فقد قال لي وأنا لا زلت أرتب شعري أمام المرأة في حمام بيته:

ـ أراهنك على ذلك. اسأليه. فأنا مستعد أن أقطع جزءاً من عضوي إذا لم يكن كلبك الأميركي له علاقة بالسينما.

ناديت على بيار لكي يتناول عشاءه. كنت قاسية معه.. كان مارسيل قد تأخر عن موعد عودته إلى البيت، ولم أطلبه بالهاتف الجوال كما أفعل عادة. سألني بيار، وقد لاحظ أنني عصبية:

ـ لماذا لا ننتظر بابا لكي نتعشى معه؟

ـ بيار، بابا قد يتأخر كثيراً. وأنت لا بد أن تنام يا حبيبي.

ـ منذ أكثر من أسبوعين لم نجتمع على الطاولة ثلاثتنا، رد بيار بصوت خافت.

ـ بيار، أعتقد أن كل جواب قد يطرح عليك سؤالاً آخر. هل تعدني أنك لن تسألني بعد أن أجيبك؟

ـ نعم أعدك، قال بيار بخبث طفولي ثم لكأنه أحس أن هناك مشكلة بين أمه ووالده أضاف يقول:

ـ أجدك متغيرة، ماما.

كنت أفضل أن أخفي عن بيار كل شيء، لكنني قدرت أنه سيعرف ذات يوم. فقلت له: أنا وبابا شخصان مختلفان.

بحثت عن كلمات بسيطة وخفيفة يفهمها بيار فلم أعثر على شيء في فمي. ثم حركت لساني كما لو خطر ببالي شيء جديد فقلت:

- الأزواج ليس بالضرورة أن يكونوا متفقين على كل شيء. ربما الاختلاف هو الذي يجعلهم يعيشون فترة أطول.. آنذاك فتحت قنينة الماء وناولته كأساً. وأنا أقول له:

- هل يزعجك الآن أن أستحم. أكمل عشاءك. لا تنس أن تأكل قليلاً من الأجبان.. ثم لا تنس أن تنظف أسنانك.

في الحمام، افترضت أن مارسيل غاضب مني. فهو ليس من عادته أن يتأخر. قلت لنفسي: لا يهم، غضب الأزواج يشبه غضب الأطفال. سينفجر ذات يوم ويزمجر ثم يعود إلى هدوئه وقد يعتذر كما يفعل أغلبهم. كانت تلك طريقة لنسيان الزوج أو لتجاهله، ولكن اختراع تلك الطريقة لا يتم في الحين، فهو نتيجة تراكمات أو نتيجة كراهية باطنية. سألت نفسي إن كنت قد بدأت أكرهه أو أمله، لكنني لم أعثر على الخيط الفاصل بين الكراهية والملل. فهما مرتبطان ببعضهما بعضاً ولكن لا أعرف إن كانت الكراهية تسبق الملل أو العكس. بعد ذلك أجبت نفسي: ليس ضرورياً أن أعرف ذلك.

كنت أحب أن ألتقي بدوغ نظيفة وهفهافة وطاهرة. اعتدت أن أستحم قبل كل لقاء معه. وفي تلك الليلة كنت كمن يستعد للقاء ملاك أو راهب. لا أعرف كيف تملكتني تلك العادة وما هو مصدرها بالضبط، ولكن علاقتي بدوغ كانت تبدو لي كأول العلاقات الغرامية. تلك العلاقات التي ندخلها بطهارة وسذاجة إلى أن تحط على أكتافنا فضائحها أو أثقالها أو عذاباتها. لم أكن ساذجة أبداً. وهذا أمر كثيراً ما يسبب لي متاعب حتى في عملي. كذلك لا أحب أن أكون ساذجة كما يفعل الذين يحبون الصعود إلى النجاح على سلالم الآخرين. ولم ينظر لي أي

رجل أو امرأة على أنني ساذجة، فالرجال يخافون من فطنتي، بعضهم فقط يعشقونها حين تتحول إلى تواطؤ. أما النساء، أقصد صديقاتي وهن قليلات على أية حال، فهن يهبنني ويتكلمن معي بمقادير دقيقة ومحسوبة. مع ذلك كنت أحب أن أكون ساذجة مع دوغ. ساذجة مثل أي مؤمن أمام جبروت الكنائس والصوامع، مثل أية عاشقة أمام قارئ الفناجين والأكف وكاشفي الأوراق والأقدار!! وباختصار، فقد كنت أحب أن ألتقي بدوغ طاهرة وساذجة، وهو ما يعني بالضبط أن أكون قد تخليت عن أي دنس جسدي أو عقلي.. وفجأة ذهبت مباشرة إلى مكتبي لأفتح الكومبيوتر، ثم كتبت: أنا إيزابيل. أين أنت الآن يا دوغ؟

(كادت أن تسمعه وهو يقهقه ساخراً منها لشدة ما اشتهت أن تكون أمامه ساذجة. وهنا قالت لنفسها: ليس من اللياقة ولا من النبل أن تكون المرأة ساذجة أمام من تحب. تماوجت الشاشة قليلاً ثم قرأت ما رسم عليها):

ـ هلو إيزابيل، أنا في انتظارك.

هزّني صوت دوغ. شعرت أنه أصبح إلى جانبي يدفعني إلى الأمام بقوة عضلاته التي تضاهي عضلات مارسيل وجواشيم مجتمعة. اكتشفت أنني امرأة قوية، لكنها امرأة قد بدأت تضيع داخل الزحام. يأتينا ذلك الشعور حين نكون داخل المدن الكبرى أو حين نتوه في الصحراء. ذلك الضياع هو ضياع الذات والكيان الذي يصيب الإنسان حين يدخل إلى مناطق انعدام الوزن والرؤية. تصبح الذوات تتقاتل بلا أية أخلاق، نرى بعضها يجتهد في إثبات الضعف كقوة وإثبات النهم كرغبة، ونرى بعضها الآخر قد دخل في هستيريا إلى حد أصبح مستعداً لحرق نفسه في الساحات العامة لكي يسمع صوته إلى أولئك الذين لا يعيرونه أي اهتمام. وكمن

أراد أن يثبت وجوده أو يختبر صدق محدثه بطريقة فظة، قلت لدوغ:

ـ منذ متى وأنت في انتظاري؟

ببساطة أجاب دوغ:

ـ منذ حوالى الساعة. افتحي نافذة الرسائل، ستجدين حزمة كبيرة.

ـ هذا شيء جيد. لا بد أنك أرسلت لي بعض القصائد. إن جواشيم ينتظرني.

ـ ذلك ما فعلت بالضبط، ولكن هناك حزمة من القبلات خاصة بك أنت.

تجاهلت تعبير «حزمة القبلات» قصداً كي أغيظه أو أجعله أكثر لهفة ثم قلت:

ـ لا شك أنها قصائد جميلة.

ـ أكثر من عشرين مقطعاً كتبها شبان من عشرين بلداً. لقد أعجبتهم الفكرة. إنهم يرغبون في تسجيل أسمائهم على صفحة هذا القرن. أحدهم وهو من الهند كتب مقطعاً رائعاً من ثلاثة أبيات قد لا تخطر على بالك، أرسلته لك مع حزمة الرسائل. ستقرئينه. إنه بسيط ورائع. قال: وداعاً قرن المذابح والطغيان/ أهلاً بقرن الذبائح والغفران/ هنيئاً للذين صلبوا المسيح ألفي عام.. هنيئاً لكل الفائزين والخاسرين/ هنيئاً للذين يحتفلون بعصر الجرذان/.

لم أعلّق. شعرت بشيء من الرتابة في ذلك المقطع، ولكن كان لا بد أن أقول شيئاً.

ـ جيد. جيد. يا دوغ. جواشيم قد يجد ذلك أكثر روعة.

ـ جواشيم، هذا اسم جميل من العهد القديم. هل تحدثينني عنه قليلاً يا إيزابيل؟

كنت أعرف أنه سيسألني ذات يوم عن جواشيم. ومع ذلك فلم أحضر أي جواب إذ كنت أنتظر الطريقة التي سيطرح بها سؤاله. خفت أن يصاب دوغ بالغيرة. ثم وقعت في التخمين الذي لا أحب أن أقع فيه. قلت في نفسي، لا بد أن دوغ يبحث عن مناطق ضعفي تجاه جواشيم، ولذلك سأحاول أن أخدع نفسي وأتصلب في التأكيد بأنني امرأة قوية، فأتبجح بسلطة لا أملكها أبداً حين أكون مع جواشيم. ثم قلت كلاماً مبعثراً:

ـ جواشيم رجل في الخمسين.. لا بل تجاوز الخمسين بنحو ٦ سنوات. وضعني مع القطيعة وجهاً لوجه. لا بل اغتصب كراهيتي للرجال المتحدين بذكوريتهم. إنه مؤلف موسيقي كبير. لقد قام بتلحين عدة أوبرات. وهو يتمتع بشهرة كبيرة في فرنسا وأوروبا عموماً. تعرفت إليه أثناء رحلة لي إلى القاهرة. ثم حاورته على صفحات الجريدة التي أعمل بها. بعد ذلك لم أعد أخاف الجلوس إلى جانبه.

لم أقل كل الحقيقة.. ثم قلت أشياء غامضة مثل «لم أعد أخاف الجلوس إلى جانبه»، و«وضعني مع القطيعة وجهاً لوجه» أو «اغتصب كراهيتي للرجال». ولكن دوغ لم يلاحظ ذلك.. أو هو لم يرغب في استفزازي، أو ربما لم يعد يرغب في سماع بقية الحكاية. كنت أحب أن يبقى دوغ بالنسبة لي رجلاً تجريدياً، مجرد افتراض، خرافة، طيفاً، حكاية، سيناريو بين الحقيقة والخيال. لذلك لم أكن أحب أن يسألني مثلما يفعل معي جواشيم. ففي ذاكرتي الصبيانية توجد بقعة من العزوبية (من الحرية

الخفيفة) وأخرى من العبودية، من الارتهان الكلي للأب وكذلك للأم. بقعة اتسعت قليلاً للراهب وكذلك لقائد الأوركسترا في الكنيسة. هذا ما كنته وأنا صبية، وهذا ما أرغب أن أكونه حين أكون إلى جانب جواشيم. أما دوغ فهو رجل افتراضي، لكنه منطقي جداً. رجل طيف، لكنه عنيد في أسلوب تفكيره. أحب أن أنسى معه ذلك الجانب الذي كنته. ثم كنت أحب أن أعرف من خلاله ذلك الجانب الذي فاتني أن أكونه في الحياة، ذلك الجانب الذي لن أعرفه لأن الحياة تتغير بسرعة ولا نستطيع تجاوزها أبداً أو حتى مجاراتها.

لا أعرف في ماذا كان يفكر دوغ حين فاجأته سائلة:

- قل لي دوغ، هل أنت على علاقة بعالم السينما؟ لقد تراهنت مع جواشيم، وأحب أن أكسب الرهان.
- ليس تماماً.
- ماذا تعني كلمة: ليس تماماً؟
- أعني أنني ما زلت في بداية الطريق. قدمت في الفترة الأخيرة سيناريو لأحد المخرجين وهو صديق لي، قال إنه أثار إعجابه. وأنا الآن بصدد كتابة سيناريو جديد. والغريب أن الفكرتين متعارضتان جداً. الأولى تنطلق من حدث واقعي طاف العالم كله. أما الثانية فهي تعالج افتراضياً زمن الإرهاب الجديد. أثار شهيتي الصحافية فسألته:
- هل تشرح لي قليلاً؟

قال دوغ بهدوء: الحكاية طويلة وقد لا أنجح في حبكها في هذا الوقت.

لكني أعدك بإرسال فكرة السيناريو الأول. وسأكون محظوظاً جداً لو عرفت رأيك.

ألححت عليه، فأحالني على نافذة المحفوظات، ثم ظهر أمام عيني نص طويل هو «سينوبسيس» السيناريو الأول: وهاكم الآن ما قرأت على وجه الشاشة بجميع التفاصيل:

العنوان المؤقت: البيت الكبير ـ **Big House** ـ المقدمة: «تثير فضيحة ـ مونيكاغيت شهية الروائيين والسينمائيين ربما أكثر من المحققين والقضاة. فهي فعلاً تشكل مادة غنية لحبكة درامية قد تروي عطش الذين يريدون أن يعرفوا تفاصيل ذلك البيت الكبير الذي يسكنه «المراهق الكبير». إن الأحداث والوقائع على مستوى كبير من الإثارة. أما أبطال الفيلم فيمكن أن نبسط شخصياتهم على النحو التالي:

ـ **السيدا ليندا تريب**: هي السيدة القوية والصديقة السيئة والمرأة المدمرة. إنها سكرتيرة خاصة لمستشار الرئيس فانسون فوستر الذي انتحر عام ١٩٩٣ في ظروف غامضة. ليندا محافظة وشريرة وتنتمي إلى جيل بدأ ينقرض من الإدارة الأميركية. حزنت كثيراً لانتحار سيدها ثم خبأت حزنها لكي تنتقم من «المراهق الكبير» في البيت الأبيض الرئيس كلينتون. يمكن تطوير الحبكة باتجاه صراع الأجيال بين السكرتيرات وصراع السكرتيرات مع العشيقات.

ـ **باولا جونز**: فتاة لعوب محبة للفتنة أكثر مما هي فاتنة. رآها كلينتون في أحد فنادق أركنساس فكاد أن يسقط على قدميه. صعدت إلى غرفته لكنها هربت من مغامرة مع الرجل الذي سيحكم العالم مدة ثماني سنوات. بسبب حظها العاثر أو بسبب

ندمها، راحت تبحث عن الانتقام. ثرثارة مدعية حزينة، لكنها لا تتقن أدوار الندم. إنها مثال المرأة الطموحة التي لا حظ لها.

ـ **السيدة هيلاري**: مثال للزوجة القوية، أو التي تحب أن تظهر قوية. طموحة متعطشة للسلطة. كاتمة لأحساسيسها الجنسية. قد تكون تعرف كل شيء عن زوجها لكنها تحب أن تكون مخدوعة حتى لا تسقط جريحة وسط شماتة الناس. مثال للمرأة الحاضنة والمتفهمة والغفورة لأخطاء زوج غير مخلص لكنه حنون وفاعل وصاعد. لها أنياب وأسنان، لكنها تريد أن تأكل نصف التفاحة على مهل.

ـ **مونيكا لوينسكي**: فتاة طموحة وفي الوقت نفسه ساذجة. تنتمي لعائلة غنية وغير محافظة. تتمتع بجاذبية لدى معظم الرجال لمظهرها الشرقي. تبدو كمراهقة كبيرة تسقط كالنحلة في الصحون الكبيرة والصغيرة. بدت مهووسة بالمراهق الكبير فكانت تتعقبه وتلاحقه بعد المغامرتين الأولى والثانية. وحين تعب منها وأصبح يتجاهلها راحت تحكي قصتها لصديقها. وتحت تأثير احتقار الذات أرادت أن تدمر مراهقها.

ـ **فرنون جوردان**: صديق شخصي للرئيس. رجل يحب إرضاء غوايات الرئيس. لا يحب الضوء إلا في ملاعب الغولف. محام ومستشار خاص وحامل أسرار الرئيس. قد يكون قواداً للرئيس. قدم عدة نساء له ثم توسط لدى مونيكا لكي لا تشهد ضده. لا يحظى بحب الزنوج في أميركا لأنه يمثل لهم الدناءة. هيلاري لا

تحبه إذ تراه مفسداً لزوجها. إنه الرجل الوطواط الذي لا يخرج إلا في الليل.

- **القاضي ستار**: رجل عنيد محترف معارك. يدّعي الاستقلالية لكنه يعمل بالتنسيق مع «الأف.بي.آي». يشبه المحقق ديريك في شيء واحد هو أن يجعل ضحاياه يستسلمون بعد عذاب الضمير ويطلبون المغفرة. مثال للأب العنيد والساهر على الأخلاق العتيدة الذي لم يعرفه كلينتون حين كان صغيراً.

كلينتون: المراهق الكبير. ابن لسيدة عربيدة وأب هارب من مسؤولياته وتاريخه. شاب بلا تاريخ ثقيل أو عقد. رئيس لأكبر دولة في العالم. زوج ضعيف وأب حنون وعاشق للمغامرات والنساء. يمكن هنا أن نعدد نساء كلينتون لإظهاره في صورة «الدون جوان» منهن: جنيفر فلاوز (مغنية كباريه سابقة)، سالي بيريدو (ملكة جمال سابقة)، دولي كابل براونينغ (محامية في دالاس)، كاتلين ويلي (موظفة سابقة في البيت الأبيض)، سوزان ماكدوغال (صديقة وشريكة تجارية لعائلة كلينتون) ثم ابنة كلينتون تشيلسي المعجبة بأبيها والواقفة إلى جانبه ضد أمها».

الآن وقد قرأت إيزابيل «سينوبسيس» السيناريو، فقد وجدت في خزينة ذهنها ملاحظات عدة، ولكن قبل ذلك كان عليها أن تسأل دوغ:

- هل تعتقد أنهم سيسمحون بإخراج هذا الفيلم؟
- هذا شيء مؤكد في ما لو نال السيناريو إعجاب أحد المنتجين. لقد أصبحت متيقناً من ذلك.
- أتدري ماذا يمكن أن يفعلوا بك لو كنت فرنسياً؟.

- إنهم سيبيعون لحمي في المزاد العلني. لدي فكرة وافية عن بلدكم. هذه الأفلام لا يمكن أن تخرج إلا من أميركا. هذه هي قوة الماكينة الأميركية. إنها تلتهم كل شيء وتهضم كل شيء ثم تنسى كل شيء. إنها معدة تمساح آلي جهنمي.

أرادت إيزابيل أن تناقش دوغ في بعض الشخصيات من حيث صياغتها الأولية، لكنها رأت أن تقول له ما تفكر فيه كفرنسية:

- هل تعرف يا دوغ أن ذلك الحدث لم يكن قابلاً للفهم لدى الفرنسيين؟ كان لدينا رئيس زير نساء. بل جعل من عشيقاته وزيرات دون أن يتعرّض لأية مضايقة. أما ابنته بالحرام - مازارين - فلم يلتفت إليها الناس إلا باعتبارها فتاة جميلة يمكن التحديق في قسماتها وفي ما إذا كانت تشبه والدها. هذا في فرنسا. أما في بلدان أخرى، فإن الرئيس الأميركي كان مظلوماً، والصحافة الأميركية كانت متكالبة والقضاء الأميركي كان مبتذلاً.
- هذا ما لم يفهمه العالم. أميركا تتحدث هكذا. ولا يعني ذلك أنها غير متأففة أو منافقة، وإنما قد تكون أقلّ نفاقاً.
- ولكن هناك عنصر مهم لا يظهر في حبكة شخصيات السيناريو. إنه عنصر المال. فكما جرت العادة، فإن المال هو الطرف الأقوى في كل قضية أو فضيحة في أميركا. ولهذا تظهر أميركا لديك وكأنها تتحدث بلغة لا يفهمها الآخرون.

انتفض دوغ للدفاع عما كتبه ثم قال بكثير من الجدية:

- كل شيء يدور حول المال.. نعم هذا صحيح. سنرى ذلك

مع تطور الشخصيات. بولا جونز لم تكن تطالب بالاعتذار من الرئيس بل كانت تطالب بمبلغ ٧٠٠ ألف دولار. مدام ليندا تريب كانت ترغب في بيع الشريط الذي يدين الرئيس بملايين عدة. المراهقة لوينسكي قالت لكلينتون وهي على مخدعه «لماذا لا تحل مشكلتك بالمال؟» وكان واضحاً أنها هي أيضاً ترغب في الحصول على مبالغ طائلة. وبعد ذلك حصلت على تلك المبالغ من دور النشر ومحطات التلفزيون. فيرنون غوردن كان يعرض حقائب من المال لكي يخنق أي شهادة في حلق صاحبها. جنيفر فلاوز، دولي كابل، سالي بيريدير كلهن كن يطالبن بتعويضات مالية. القائمة طويلة والمبالغ طائلة. وكلينتون كان يعرف ذلك. هذا سترينه في الفيلم واضحاً، لكنه لو فتح ذلك الباب، فإنه سيصبح من الصعب أن يغلقه. لهذا اختار كلينتون الكذب حتى لا يدفع المال. واختارت هيلاري الصمت والصبر على الفقر.

أضاف دوغ يشرح لإيزابيل فكرته المحورية كالتالي: الكذب، كل الكذب في سبيل المال. وهذا ما كان سيسبب مشكلة للرئيس أمام ما يسمى بالرأي العام. الجميع كانوا يريدون أن يدفع ويقول الحقيقة. الكذب هنا غير مسموح به حين يمتنع شخص ما عن دفع المال، بينما هو مسموح به حين يريد شخص آخر أن يجمع المال. كذب أميركا لا يشبه كذب أوروبا. وأكاذيب العالم الثالث لا تشبه أكاذيب الغرب. في الغرب الكذب هو الطمع بينما قد لا يعني في مكان آخر أكثر من الهروب من الفضيحة أو الخوف من التعذيب!. ألم تلاحظي أن كلينتون كان

سيعاقب لأنه كذب وليس لأنه خان زوجته أو دنّس البيت الأبيض أو تجاوز صلاحياته أو أغوى موظفات يعملن تحت سلطته؟

- عجيب ما يحدث عندكم يا دوغ. لكن الأكثر عجباً أن ما يحدث عندكم يؤثر في الكرة الأرضية كلها: الآن عرفنا ما معنى ذلك الذي يقال عادة: حين يصاب الرئيس الأميركي بالأنفلونزا يصاب العالم كله بالزكام.
- تلك هي أميركا. لن تكون إلا هكذا. كانت دائماً هكذا. إنها اختراع شيطاني عند البعض. أما عند البعض الآخر فهي اختراع رباني. أضاف دوغ يقول بعد برهة صمت:
- ما كان لهذه القضية أن تتخذ هذا الحجم لو لم يُحرك هذا الخليط الدنس من التزمت والمحافظة والطمع والمال والحريات الزائفة وحتى الشفقة تجاه المرأة. وهذه ثقافة اشتهرت بها أميركا دون غيرها.
- ومن حرّك هذا الخليط؟ سألت إيزابيل.
- لوبيات كثيرة. لكن لنترك اللوبيات جانباً. ثمة تطور آخر في الثقافة الحديثة عموماً، أعني به تأثير الصورة في الجمهور. تلك الصورة التي لا يرقى لها الشك في العادة. هذا ما يفهمه عامة الناس. ولكن الصورة هي أرقى أنواع الخداع. لا شك أنك شاهدت كلينتون مثل ملايين البشر، وهو يصافح مجموعة من النساء ثم يحتضن بشكل خاص مونيكا داخل ذلك الزحام، فيما كانت عيون مونيكا تلمعان من شدة التواطؤ. تلك الصورة تقول لنا: إن كلينتون قد احتضن مونيكا على نحو

غير محايد لأننا كنا نعرف مسبقاً بالعلاقة بينهما. ولكن ماذا لو كنا لا نعلم بتلك العلاقة؟ في تلك الحالة ستصبح الصورة نفسها ناطقة بفكرة أخرى.. مثل أن كلينتون قد خصّ مونيكا بتلك التحية الدافئة إما لأنها إحدى قريباته، أو إحدى صديقات زوجته، أو إحدى الفائزات في مسابقة ما، مثل مسابقة جمع التفاح في كاليفورنيا.

قلت لدوغ، وقد كشف لي عن إمكانات هائلة لم أكن أتوقعها من قبل:

ـ إذن، الصورة خادعة والجمهور مخدوع.

ـ يمكنك أن تضيفي كم هم السياسيون مخادعون؟ ومثلث الخداع هذا هو محور فيلم «البيت الكبير».

ـ وهل يحب الجمهور أن يكون مخدوعاً؟ أي هل يتلذذ الجمهور بالخداع؟ سألت دوغ فأجابني:

ـ الجمهور يحب من يخدعه كما يحب أن يخدع نفسه. فمغامرات جون كينيدي مع العديد من الجميلات أمثال ـ جين تياريني وأنجي ديكنسون ومارلين مونرو، لم تمنعه من أن يكون واحداً من أكثر الرؤساء شعبية وأكثرهم شهرة في القرن العشرين. هناك أيضاً من اعتبر أن باولا جونز قد زادت من شعبية كلينتون حين أظهرته رجلاً فحلاً ثم جاءت مونيكا فجعلت شخصيته الدونجوانية أكثر إضاءة وأكثر إثارة. يجب أن نسأل النساء هنا. إني أعتقد أن الشباب والسلطة حين يجتمعان يشعلان حرائق كثيرة في قلوب النساء والرجال على السواء. هنّ لأن كلينتون واحد وليس أكثر، وهم لأن كلينتون أكل كل التفاحات لوحده.

لاحظت إيزابيل أن دوغ كثيراً ما يستعمل كلمة «التفاح» ثم تذكرت تلك التفاحة التي عادة ما يرسمها دوغ على الشاشة حين يودعها. ولم تتمالك حتى سألته:

ـ دوغ، هل تحب التفاح؟

ـ شيء لذيذ ومفيد أن يقضم المرء تفاحة في الصباح وأخرى في المساء.

ولم تفهم إيزابيل قصده فعادت تسأله:

ـ وهل أنت مواظب على أكل تفاحتين في اليوم الواحد.

ـ أجمل من التفاح، هو أن نشاهد شخصاً يقضم تفاحة. أجمل من ذلك أن نسمع الأضراس وهي تنغرس في التفاحة ثم وهي تقضمها، ثم وهي تهشمها.

ـ لقد جعلتني أشتهي التفاح يا دوغ. هل تنتظرني قليلاً حتى آتي بتفاحة من المطبخ؟

حين عادت إيزابيل إلى دوغ قالت له:

ـ هل تريد أن تراني وأنا أقضم هذه التفاحة الكاليفورنية؟

ـ أريد أن أسمعك كيف تهشمينها بأضراسك، أيضاً. بعد لحظة قصيرة قال لها دوغ:

ـ ما تفعلينه الآن يمكن أن يسمى في أميركا تحرشاً جنسياً. هل عرفت الآن قسوة القوانين في أميركا؟

أضاف دوغ يقول:

ـ إن موضوع التحرّش الجنسي هو موضوع فني لا أكثر ولا أقل.

ـ لكن قلما نجد امرأة تفعل ذلك. تلك تهمة تنسب إلى

الرجال. الرجال هم الذين يتحرشون. الرجال هم الذين يدفعون أي امرأة إلى التحرش بهم.

هكذا أرادت إيزابيل أن تدافع عن نفسها، ولكنها في الحقيقة كانت تكذب على نفسها. فالمرأة كثيراً ما تتحرّش بالرجال. هي بالذات فعلت ذلك مراراً. غير أن دوغ قطع عليها حبل اختراع المبررات حين قال لها:

ـ هذه الفكرة أوحت لأحد المخرجين الأميركان (نسيت اسمه) بفيلم اشترك فيه كل من النجمين مايكل دوغلاس وديمي مور. وقد قلب المخرج الصورة فجعل المرأة هي التي تتحرش بالرجل. هل شاهدت هذا الفيلم يا إيزابيل؟.

ـ لا لم أشاهده.

أضاف دوغ يقول: لو أن قوانين التحرّش الجنسي طبقت حسب القانون الأميركي، فإن لا أحد سيخرج من بيته. فالنساء مطاردات في كل مكان ومن الباب إلى الباب، والرجال (المقهورون أصلاً بسبب حظوظهم) يتعقبون النساء من الباب إلى الباب.

دفعت إيزابيل دوغ إلى قول المزيد، فهو ما انفك يفاجئها بتحليلاته المثيرة، حين سألته:

ـ وإذا لم تكن التحرشات الجنسية موضوعاً فنياً، فماذا تكون في آخر المطاف؟

ـ أكاذيب. ليست أكثر من أكاذيب لتغطية أكاذيب أخرى أكثر نزقاً ولؤماً.

ـ إذن يمكن أن تكون سياسة، يمكن أن تكون منظومة أخلاقية.

ـ بالضبط. إنها سياسة الأكاذيب التي هي أكاذيب السياسة. إن

السياسة والكذب يتغذيان من بعضهما بعضاً وهما يرضعان من حليب الأخلاق السائدة أي النفاق والخداع. فقد عُرف السياسيون الكبار دوماً على أنهم كذابون كبار. كما غالباً ما استطاع الكذابون الكبار أن يكونوا سياسيين كباراً.

بدا لي دوغ وهو يتحدث عن الكذب والخداع والنفاق، وكأنه شخص من عالم آخر أو من زمن آخر. أردت أن أستفزه، ولكني حولت استفزازي إلى سؤال هادئ:

ـ هل تستطيع أن تقول لي يا دوغ ما هو الفرق بين الكذب والخداع؟

ـ سأشرح لك الفرق ببساطة: أن تكذب عليّ هو أن تعتقد أنني غبي. أما أن تخدعني فهو أن تجعلني أسكن في الأحلام أو الأوهام.

ـ والنفاق؟

ـ هو بالضبط أن تجعل من نفسك غبياً ومن الآخرين أكثر غباء.

ـ أليس هذا هو الذكاء المعكوس؟ سألته إيزابيل، فرد عليها بسرعة:

ـ يجب ألا نصدق حماقات الأذكياء. إنها أخطر من الكذب والخداع والنفاق. أضاف دوغ يقول:

ـ لم يعلمنا الزمن إلا الانصياع إلى حماقات الأذكياء. ثم يجب أن يكون هناك ذكي وعدد كبير من الأغبياء لكي تتم عملية الانصياع. الانصياع هو الأغلبية. هو الأطول عمراً وتمرساً. جميعنا، حتى الأذكياء منا مفطورون على الانصياع باعتباره

نوعاً من الوجدان الصوري، من الثقافة والوجدانية. الانصياع هو استجابة للآمرين. تلك الاستجابة أصبحت مع الزمن فطرة متوارثة. أما الآمر أي رجل السلطة فهو يحتاج إلى التحايل بكل أنواعه بدءاً بالتحايل على الذات الآمرة وانتهاء بالتحايل على الذات المأمورة.

إن رجال السلطة إذ يمجدون أنفسهم باعتبارهم خداماً لشعوبهم هم الوجه الآخر للجمهور المأمور الذي يحب أن يمجد الانصياع باعتباره استعداداً للتضحية.

كان دوغ بالنسبة لإيزابيل في تلك الليلة يتحدث كفيلسوف. إنها تحب هذا النوع من التفكير خصوصاً إذا تسلل إلى عقلها مع مزيج من الإعجاب والنكهة إلى قلبها. كانت ثقته في نفسه المبالغ فيها قد أشعرتها ببعض النفور لكنها استكانت لولعه باللعب بالكلمات والأفكار. فقد بدا لها مختلفاً عن الفتى الرومنطيقي الذي سارت معه في شوارع البندقية وهونغ كونغ، عن الشاب الطيب والساخر الذي كانه. فها هو الآن يتشدق بالكلمات الكبيرة كما لو أنه ارتدى بدلة العظمة. كانت تريد أن تودعه، فالليل قد انتصف منذ نصف ساعة، والقدرة على الانتباه قد ضعفت لديها، ثم إن مستوى الإثارة ظل يهبط ويرتفع بين الأفكار الأكثر خفة والأحلام الأكثر خفاء إلى حد جعل كل شيء يتراقص أمام عينيها. فجأة قالت إيزابيل:

ـ دوغ. سأودعك. واجباتي كثيرة في الصباح.

صاح دوغ: انتظري قليلاً. أريدك أن تتذوقي تفاحتي قبل أن تغلقي الجهاز. ارفعي من صوت الموسيقى، ستجدين تفاحتي طازجة وشهية.

١٣

نامت إيزابيل تلك الليلة عميقاً بعد أن استولى عليها طيف دوغ لأكثر من نصف ساعة قبل أن يستولي عليها النوم. اكتشفت قدرته العجيبة على المناقشة السياسية.. وقد وجدته ذكياً ولماحاً. وفي الصباح استيقظت لتجد نفسها تفكر في تلك المناقشة المثيرة. قالت لنفسها: «هكذا إذن، تتجمع الأكاذيب واحدة فوق واحدة بدأب وحذق لتشكل طبقات سميكة لما يسمّى بجيولوجيا الحقيقة، تلك الحقيقة التي لا تحظى بالاحترام إلا إذا كانت محل إذلال» وهي كذلك على أية حال باستمرار. كان عليها أن تذهب إلى الصحيفة ثم تذهب بعد ذلك إلى الجنرال بازوف لاستكمال حوارها معه.. وعلى مكتبها بمقر الصحيفة، وجدت قصاصة كتب عليها: «رئيس التحرير يريد أن يراك. إنه في اجتماع الآن. لا تغادري المكتب». كانت التعليمات صارمة. فسكرتيرة رئيس التحرير تحب المبالغة في فرض وجودها. إنها امرأة من الرهط القديم ظلت مخبأة في صندوق منذ عهود طويلة. لم تسألها ما إذا كان رئيس التحرير سيطلبها مباشرة بعد الاجتماع أو عليها

أن تنتظره إلى أن يتفرغ لمواعيد الصحافيين. فتحت دليل هواتفها لتتصل بالجنرال بازوف لتثبيت الموعد، حين هاتفتها السكرتيرة لتقول لها إن رئيس التحرير في انتظارها.

وجدته قلقاً. ففي كل مرة أدخل فيها على رئيس التحرير، أجده كلغز يحتاج إلى حل. بدا لي أنه يحمل على كتفيه أكثر مما يحتمل. فوق ذلك كنت أعرف أن كلامه غالباً ما يحتوي على أكثر من معنى. كان استعدادي لسماعه جيداً. فقد نمت عميقاً بقلب مستريح. ثم إنني أحسست أنه يريد أن يقترح عليّ شيئاً جديداً. لم يسألني عن مشاريعي الجديدة كما كان يفعل عادة، بل ذهب مباشرة بعد السلام، إلى قلب الموضوع.

- هل أنت مستعدة للسفر؟ لم أسأله إلى أين، فهذا سؤال لا ينطق به إلا صحافي هاوٍ. وهكذا أجبته:
- إيزابيل دائماً على أتمّ الاستعداد.
- إذن غداً يجب أن تكوني في كوسوفو. أنت تحبين الإسلام والمسلمين. أعتقد أنك ستكتشفين أشياء مثيرة هناك. الحرب قادمة إلى هناك. كلهم يشحذون أسلحتهم. ساعة الانفجار لا بد أن يشارك في إعلانها الصحافيون. ليس من حق الجنرالات أن ينفردوا بذلك.

ألهبني حديث رئيس التحرير أندريه لوغار وجعلني متأهبة لجميع الاحتمالات. كنت أرغب في الذهاب إلى كوسوفو منذ فترة، ولكن زميلي باسكال هو الذي اختير منذ نحو ثلاثة أسابيع للذهاب إلى هناك. لم أنطق بأية كلمة مما كان يخالجني، لكن رئيس التحرير أضاف يقول لي:

ـ لا تفكري في باسكال. إن مراسلاته جيدة، لكنني أعتقد أنك ستقومين بكتابة أشياء مهمة جداً للصحيفة. لقد فكرت في الموضوع ووجدت أنك الأنسب.

ـ ألا تخاف أن أسبب للصحيفة مشكلة أخرى كما فعلت حين ذهبت إلى الخليج قبل سنوات عدة يا سيد لوغار؟

ـ ذلك أصبح من الماضي.

ـ ولكن رجال الحكم هم هم لم يتغيروا..

بين الإطراء لي ولنفسه، قال رئيس التحرير:

ـ يجب ألا نعترف بالخضوع الأبدي. يجب أن تقري معي أن رجال السياسة هم نحن أيضاً. يجب أن لا نتركهم لوحدهم يقررون.

بسط أمامي السيد لوغار حرية كانت مرهونة لدى من كان يسميهم «بأصحاب السلطات الثقيلة والهراوات الطويلة»، وجعلني سيدة في نسختين. واحدة تريد أن تنسى وأخرى تريد أن تتذكر. لم أكن أعرف بالضبط ماذا أقول له، ومع ذلك فقد تكلمت بقوة واغتباط:

ـ ماذا أستطيع أن أختار بعد ثماني سنوات؟ ليس دائماً علينا أن نختار. في أغلب الأحيان يختار لنا الآخرون ما يجب أن نفعله. إذا كنت موافقاً على إرسالي إلى كوسوفو، فإني أريد فقط أن تعدني بأن لا تقع تحت الضغوط.

أفهمته أنني لم أغفر له حتى الآن ما فعله معي بعد عودتي من حرب الخليج. كما أفهمته أنني سأكون جداً عصبية أو حتى عدوانية إذا رأيت أنه لم يلتزم بتعهداته. فكرت أن رئيس التحرير لا يستطيع أن يفعل أكثر مما تحتمل طاقته، فقررّت الصمت. حينها قال لي:

ـ هذه الحرب لن تدوم طويلاً. ستكون خاطفة. والفرنسيون كما تعرفين يحاربون هذه المرة على أرض أوروبا. ولذلك، فإن الرأي العام لا يبدو أنه غاضب أو معارض لهذه الحرب.

أحسست أن كلماته كانت مرتعشة إذ لم تكن مشدودة كما ينبغي بخيط من المنطق العنيد. فعاد يقول:

ـ إيزابيل، لا أريد منك شيئاً إلا أن تكوني راضية.

ـ ليكن ما يريده لي قدري.

أمسكت بحقيبتي في حركة سريعة وهممت بالخروج وأنا أودعه بعينين تريدان أن تنظرا في عينيه. رأيته قد ارتعش قليلاً إذ أخفض عينيه إلى الأرض ثم قال:

ـ «في حياة كل إنسان لحظة، هي لحظة الاختيار». بعد تلك العبارة التي كررها أمامي أكثر من مرة والتي يكررها الجميع حين يجعلون من أنفسهم مصلحين وناصحين لآخرين، أضاف:

ـ «على أية حال يجب ألا ننسى أن السلام هو أرض الحقيقة التي علينا أن نعيش فوقها جميعاً».

ـ حتى لو كانت تلك الحقيقة يصنعها الكذابون بالتحالف مع محترفي القتل والدمار؟!!

ـ ذلك هو قدرنا. وأولئك هم نحن. ونحن هم أولئك.

* * *

سرت بصمت عبر الممر باتجاه مكتبي المجاور لمكتب رئيس قسم التحقيقات الدولية. كانت معظم المكاتب هادئة وكذلك قاعة التحرير.

النهار لم ينتصف بعد. ولكنهم بعد قليل سيبدأون في المجيء إلى مكاتبهم ليعملوا إلى ما بعد منتصف الليل. كان أغلب زملائي من الرجال والنساء قد دخلوا عرضاً في هذه المهنة العظيمة فأفسدوا نكهتها وظهروا على حسابها ككائنات منتفخة بالادعاء بالرغم من أن أغلبهم يقضي أوقاته في حل الكلمات المتقاطعة. كنت أحاول أن أكون مختلفة في نظرتي للأشياء، في أسلوبي، في اختيار مواضيعي، وكذلك في علاقتي برئيس التحرير. كان يعاملني باحترام كبير على عكسهم جميعاً. كنت أنا أيضاً أقول له ما أفكر فيه بلا تردد.

هاتفت الجنرال بازوف وقلت له: إن موعدي قد يتأخر نصف ساعة إذ طرأت عليّ أشياء جديدة غير متوقعة هذا الصباح. وجدته منشرحاً فقال لي:

ـ سأنتظرك. أكملي شؤونك، أنا في انتظارك.

بعد ذلك ذهبت إلى سكرتيرة رئيس التحرير فوجدتها منهمكة في مكالمة هاتفية ساخنة. انتظرتها حتى أقفلت السماعة ثم قلت لها بهدوء:

ـ غداً سأسافر إلى كوسوفو. ما العمل؟ ردت عليّ بحزم:

ـ سأرتب كل شيء. في المساء سأعطيك خط الرحلة.

خرجت من عندها دون أن أناقشها في أي موضوع آخر. ثم اتجهت إلى المصعد على عجل للذهاب إلى الجنرال بازوف. لم أكن أتوقع أن الطريق سيكون خالياً من الزحام في مثل ذلك الوقت. اخترقت غابة بولونيا في لمح البصر، وكنت قادمة من شارع شارل ديغول في «نيوي».. ثم وجدت نفسي أبحث عن مكان لسيارتي قرب شارع «فوش» حيث يسكن الجنرال.

استقبلني الجنرال بحفاوة غير معهودة. كان واضحاً أنه كان ينتظرني بلهفة، أو لعله كان يبحث عن شخص يتكلم معه في ذلك اليوم. وهكذا سمعته يقول لي:

- سيدة إيزابيل، لقد قرأت ما كتبته عني. لقد سرني ذلك. لم أكن أعرف من قبل أنني أتحدث جيداً في الموسيقى. بل كنت أفكر قبل أن تنشري المقال، لو تتركين كل شيء جانباً إلى وقت آخر.
- هل كنت خائفاً من أن تبدو.. قاطعني الجنرال قائلاً:
- كنت خائفاً من أن أبدو رجلاً مدعياً وثرثاراً. لقد علمتني مهنتي مهناً عدة أخرى، لكنها لم تعلمني الثرثرة!.

وجدت كلامه مناسباً كفاتحة للحوار معه، فقلت:

- ما هي أهم المهن التي تعلمتها خلال حياتك العسكرية والمخابراتية؟

كان سؤالي جافاً وبسيطاً، ولكن الجنرال لا شك أنه كان ينتظره ليجيب عليه بسرعة:

- حين دخلت في سلك الجندية، كنت أحمل ديبلوماً في الحقوق وآخر في العلوم السياسية. دخلت برتبة ضابط منذ اليوم الأول. وكنت عضواً ناشطاً في الحزب الشيوعي. كنت على وشك أن أصبح عضو مكتب ارتباط في مركز الحزب بمدينة لينينغراد. وقبل أن أصبح ضابطاً محترفاً كنت قد مررت بالتدريبات الضرورية التي كان على كل كادر حزبي أن يمر بها. لذلك لم أكن غريباً بالمرة عن عالم الثكنات. وبسرعة تمّ

اختياري للعمل في شعبة التجسس المضاد لجهاز الـ«كا. جي. بي.» عشت سنتين قاسيتين في فلادوفستوك في مركز الـ«كا. جي. بي.» الإقليمي. ثم انتقلت إلى قاعدة في أوكرانيا وبالتحديد في مدينة كييف، لأعمل هناك مدة سنتين أخريين. كان ذلك في بداية الستينيات حين بدأت ما يسمى بالحرب الباردة تكشف عن مسارحها الأكثر دموية في العالم. بين فلادوفستوك وأوكرانيا هناك ست ساعات كفارق زمني وأكثر من عشرة آلاف كيلومتر. وهذا يعني أنني انتقلت من النقطة الأبعد في الشرق إلى النقطة الأقرب في الغرب. خلال ذلك تعلمت لغتين أجنبيتين هما الإنكليزية والفرنسية إلى جانب الفارسية التي درستها في الجامعة كمادة اختيارية. كما تعلمت الأرشفة الرقمية والكتابة بالشيفرة وكذلك إصلاح أجهزة الكومبيوترات والقفز بالمظلات واقتحام أماكن الأسرار وصناعة الأقنعة وصناعة المفاتيح الدقيقة والشيفرة وتزييف العملات وبطاقات الائتمان.. وأشياء أخرى كثيرة مثل العزف على البيانو والسباحة وصعود الجبال. ولكن أهم شيء تعلمته هو الدقة. الدقة جعلتني رجلاً عادلاً لا يظلم الناس ولا يتجاوز حدود واجباته. ولكن أتدرين يا إيزابيل، أن ذلك كله لا يساوي اليوم بالنسبة لي حبة خردل؟

ـ عن أي شيء تتحدث يا جنرال؟

ـ لقد تغير كل شيء. الأحصنة الجيدة قتلت أو أنهكت في سباقات طويلة وخاسرة. ولم يبق في الميدان إلا الأحصنة

السيئة تحت إمرة سائسين أنذال.

ـ هل ما زلت تحن إلى ذلك العصر الإمبراطوري يا جنرال؟

ـ ليس كما تعتقدين. كنت أظن أنهم سيصنعون بلداً جديداً لزمن جديد. فإذا بهم أخرجوا الميت من تحت التراب وجعلوه قائداً.

ـ أراك متشائماً هذا اليوم بالرغم من أنني وجدتك منشرحاً قبل حين. هل هي لسعات المرارة؟

ـ لا أحد أراه حريصاً على بلاده، لا في الماضي ولا في الوقت الحاضر. أحياناً أفكر أن الروس شعب منحوس. أحياناً أقول إنهم لا يستحقون كل تلك التعاسة. وأحياناً أقول إن النخب في روسيا فاسدة في الأصل.

صمت الجنرال برهة. تناول غليونه ليشرع في تنظيفه على نحو عصبي ثم أضاف يقول:

ـ الأرض الروسية خصبة بكل الادعاءات، منتجة لكل الهلوسات. أنا أخاف على روسيا من شعبها ومن نخبها. لقد قتلوا روحها العظيمة منذ زمن بعيد. لا ليس هكذا سنعيد بناء البيت الروسي.

بدا لي مجروحاً في كرامته أو مدافعاً عن الأخطاء التي يمكن أن يكون اشترك في اقترافها. لم أفكر في التخفيف من محنته، ولكني قلت له:

ـ أعتقد أن جيلاً آخر سيقود روسيا إلى النور.

ـ روسيا تحتاج إلى أكثر من جيل لكي تخطو نحو النور.

ـ أنا مسرورة لسماع هذا كله من جنرال أمضى ثلثي حياته في

خدمة بلد لا يؤمن بقدراته.

استفزه كلامي، وأظن أن صوابه قد طار للحظة ثم عاد ليهبط وهو يقول:

ـ لم أشعر مطلقاً أنني كنت في يوم من الأيام في مكاني المناسب. هذا أيضاً ليس مكاني. وجودي في باريس ليس من اختياري.

شعرت أن الجنرال قد تحول إلى رجل سوداوي. لقد حطت كآبة ثقيلة فوق كتفيه. بدا أنه لم يعد يحب التفكير في السنوات الطويلة التي مضت. كنت أحدق في السقف حين سمعته يقول:

ـ كانت تجربتي قاسية. وكانت ذات تأثير كبير على عائلتي.

لم أتركه يكمل ما كان ينوي قوله. أحسست أن بين ضلوعه مأساة يريد أن ينفثها عبر الكلمات. وبالأحرى لم أكن مستعدة لسماع أكثر من ذلك. لقد كنت فقط مهتمة في ذلك اليوم بموضوع سفري إلى كوسوفو. ولولا اعتقادي أن الجنرال بازوف سيفيدني بمعلومات عن تلك المنطقة الملعونة، فلربما كنت اعتذرت منه بالهاتف. وفجأة سألته:

ـ ماذا يمكن أن أعرف عن كوسوفو؟ لقد وضعني رئيس التحرير هذا الصباح أمام امتحان صعب. عليّ أن أسافر غداً وأنا غير مستعدة كما يجب لهذا الامتحان.

ـ نظر إليّ الجنرال بازوف بحيوية عادت إليه فجأة، كان كمن لبس قناعاً آخر، ثم قال:

ـ أنت ستذهبين إلى منطقة لا يفهمها جيداً إلا الروس.

أغويته بأن يتحدث أكثر في هذا الموضوع وأنا أقول: «إنهم سلاف. إنكم تعرفون بعضكم بعضاً جيداً».

قال وهو ينفخ في غليونه:

- إن شئت أن تفهمي ما يحدث في كوسوفو فعليك أن تعرفي أولاً أن حروب هذا القرن قد بدأت هناك وستنتهي هناك. أقول لك منذ الآن ودون المغامرة بأي خطأ، إن الحرب ستنفجر هناك وسيخسر الروس وكل شعوب البلقان تلك الحرب. وبعد كوسوفو ستنام أوروبا طويلاً في حضن السلام!.

أضاف يقول: ستدخل أوروبا بعد كوسوفو في «دوامة القوة الصافية». لن يجدوا بعد ذلك أمامهم أية قوة تزاحمهم. هذه آخر معركة لروسيا المتكاسلة. بل هذه آخر ركلة توجه إلى روسيا لكي تعود إلى فضاءاتها. لقد خرجت من آسيا، والآن عليها أن تودع أوروبا. الدب الروسي الذي كان يثير الرعب في الغرب هو الآن في الحفرة. في حفرة عميقة جداً.

- هل هذا يعني أن جبل البلقان لن يعود مسكوناً بشبح الحرب؟
- هذا يعتمد على إرادة الأوروبيين. إذا كانوا يريدون إخراج الشبح الروسي فقط، فهذه مهمة ناقصة. أما إذا كانوا يريدون تعبئة الفراغ، فإن عليهم أن يفعلوا ذلك بأقصى سرعة ممكنة.
- ولكن في اعتقاد الغرب أن البلقان لا يعاني من الفراغ وإنما هو يعاني من الامتلاء. إنه فسيفساء متطاحنة.
- البلقان دائماً في حاجة إلى من يملأ فراغه. أكاد أقول إنه في حاجة إلى قوة خارجية. إنه ملتقى الإمبراطوريات. لم يفعل الروس سوى أن ملأوا فراغ غيرهم. والآن على أوروبا أن تملأ الفراغ الذي سيتركه الروس. لقد فعلوا شيئاً من ذلك القبيل، ولكنهم ما زالوا يناورون لكي لا يتورطوا في تلك المهمة. إن

أميركا تدفعهم إلى تلك المهمة غير أنها ليست واثقة من أنهم قادرون على ذلك. الأمن والسلام لا يحبان الفراغ، هذا ما يجب أن يفهمه أي رجل سياسي. ولكن حذار من الخطأ. أحياناً يسقط أكبر المخططين الاستراتيجيين في سوء التقدير. نحن اعتقدنا في لحظة من اللحظات أن الفراغ الأفغاني يدعونا للانخراط في اللعبة ثم اكتشفنا أن الأرض الأفغانية لا تعاني من الفراغ، فسقطنا في وهم الفراغ الذي اخترعناه بأنفسنا.

- إنه درس فظيع يا جنرال.

- كان فراغاً سحيقاً ابتلع إمبراطورية بكاملها. ابتلع كل ما بنيناه خلال القرن العشرين. ومع الأسف، فإن الدروس لا يستفاد منها إلا حين تحدث المأساة. لقد حصل ذلك الاختراق العالي المستوى الذي يؤدي إلى السقوط المروع. إلى التفكك اللانهائي.

في الحقيقة لم أجد في كلام بازوف أشياء جديدة أو مثيرة. كان منطقياً وكان يبحث عن المعنى، ثم إنه كان يريد أن يكون حاسماً وبسيطاً كما يفعل عادة خريجو الأحزاب العتيدة الذين يتماهون مع علماء الطبيعة في نسج قوانينهم العنيدة. ومع ذلك فقد كان صريحاً وحاداً وفصيحاً. كنت أود أن يحدثني عن التاريخ في تلك المنطقة والعادات والثقافة وخاصة عن الدين وتقاليد الطغيان، لكنه لم يفعل. بل يمكنني القول إنني لم أعطه مزيداً من الوقت ليفعل ذلك. لقد كنت تلك «الأنا المختفية». «الأنا المتأهبة». «الأنا القلقة» التي تبحث عن نهاية لذلك الحديث لكي تتفرغ لترتيبات السفر. فمنذ هذا الصباح، وأنا أشعر أن كوسوفو أصبحت

تسكن في ضلوعي. ولقد طغى عليّ ذلك الإحساس إلى درجة أنني أصبحت متيقنة أن شيئاً ما قوياً وخارقاً سيحدث لي هناك.

١٤

يحدث لي مراراً أن أكره من الوهلة الأولى الأشخاص الذين أقابلهم للمرة الأولى. ولكن أبو عمر، ذلك الشاب اليمني الأسمر والنحيف قد أحببته منذ الوهلة الأولى. كان نبيهاً ومتألقاً وعيناه تقدحان ذكاء. قال لي تومرت:

ـ هذا صديقي أبو عمر اليمني. سوف نسلمه الرسالة لكي يضعها في مركز بريد اسطنبول. ومن هناك ستصل إلى شاهين في لندن.

بعد ذلك سمعت أبا عمر يقول لي:

ـ غداً في المساء سأكون في اسطنبول. سأذهب عن طريق القاهرة. لا تكن قلقاً يا شيخ عبدالرحمن. ثم أضاف: لقد حدثني تومرت عنك جيداً. ويجب أن تثق أن لديك رجالاً.

في مساء اليوم التالي، جاء كل من تومرت وحمزة إلى غرفتي. تحدثنا طويلاً عن اتجاهات الحركات الإسلامية في العالم وصراعاتها. كانا على قدر كبير من الاستعداد لتجاوز المحنة والخروج من حالة الخوف. قال

حمزة: يجب ألا نركن إلى الصمت حين تتاح لنا فرصة الكلام. أما تومرت فقد كان قلقاً إلى حد ما رغم أنه كان متحدثاً جيداً عن صحوة الإسلام. وسألته ما إذا كان أبو عمر اليمني سيجتاز امتحان مطار القاهرة، فطمأنني قائلاً:

ـ إخوتنا في الدين في كل مكان. مطار القاهرة أكبر نقطة عبور للناشطين الإسلاميين، ولكن عيون الدولة مصابة بالرمد. ثم سألني:

ـ ألم تأت أنت إلى السودان عن طريق القاهرة؟

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ ولم يكن بإمكانك أن تلاحظ أي شيء!

ـ أبداً، مررت بسلام.

ـ إذن لتكن واثقاً أن أبا عمر هو الآن في اسطنبول.

مضى الأسبوع الأول دون أخبار. لم نكن قلقين. ثم مضى الأسبوع الثاني بلا أخبار ولا قلق. كنت مشغولاً بالتفكير في المستقبل والانطلاق إلى عمل آخر أكثر جدوى. وفي بداية الأسبوع الثالث، سألت تومرت ما إذا كان يعتقد أن هذا الوقت كاف لكي نتلقى رداً أم أن الأخوة في لندن قد أهملوا رسالتنا؟. ظل صامتاً لوقت بدا لي طويلاً.. وأخيراً قال لي:

ـ أنت تعرف أن الأمور لا تتم دائماً على أحسن ما يرام، ولكني متفائل جداً.

ـ من أين يأتيك هذا التفاؤل العارم؟

ـ كن واثقاً لو أن الأخ شاهين لم يأخذ رسالتنا على محمل

الجد، لقام الضابط المشرف على المعسكر بنقلنا إلى أماكن أخرى ومختلفة. لننتظر أسبوعاً آخر. لا بد أن ننتظر. بعد ذلك قد نفكر في شيء آخر.

ـ مثل ماذا يا تومرت؟.

ـ قد نفكر في الهرب.

لم يكن حل الهرب ليغريني أو يرفع عني القلق الذي تكاثف من حولي حتى خلته ظلام العصور الوسطى. فهو حل انتحاري إذ إن الهروب من المعسكر قد يجعلنا عرضة للمطاردة والشبهات والتهم بالفساد والخيانة. ولو قدر لي أن أختار حلاً فإني سألجأ إلى العصيان أو إضراب الجوع حتى أضع قيادة المعسكر في حرج. فكرت كم تكون المصيبة ثقيلة لو قررنا الهروب أو اكتشف ضابط المعسكر أننا نخطط للانسحاب!. وبعد يومين فقط أوقفني ضابط المعسكر في الممر المؤدي إلى اصطبلات الأحصنة ليقول لي:

ـ شيخ عبدالرحمن، هل تأتي معي إلى المكتب.

بدا لي هادئاً فتماسكت وأبديت بدوري هدوئي. ثم سرت معه إلى مكتبه الملاصق لجناح غرف النوم الفردية، حيث كنت أقيم في إحداها. فاجأني الضابط في الحين ما إن جلست أمامه قائلاً:

ـ هل تعرف.. لقد هرب أبو عمر، أو عمر اليمني. لقد رأيته واقفاً معك قبل سفره بيوم واحد. هل أنت تعرفه جيداً؟

قلت وأنا لا زال متماسكاً:

ـ هل هرب أم سافر؟ الذي أعرفه أنه سافر إلى البوسنة.

أجابني الضابط بصوت منهك:

ـ نعم سافر كمتطوع إلى البوسنة. ولكن ما كنا نعرف أنه سينشق عن جماعتنا هناك. إنه يثير الشبهات بتصرفاته. كان هنا محل تقدير، ولم نكن نتوقع منه أن يكون خائباً إلى هذه الدرجة.

بعد لحظات مرّت بتثاقل، قلت للضابط:

ـ ماذا تريد أن أفعل في هذه الحالة؟ هل بإمكاني أن أقدم مساعدة؟

ضحك الضابط إذ شعر أنني مستعد لمساعدته فقال بسرعة:

ـ أريدك أن تسافر إلى البوسنة لتتحدث مع أبي عمر وتنزع عنه فتيل التمرّد. إنني أعرف أنه يثق فيك جيداً يا شيخ عبدالرحمن. أعرف كذلك أن كثيراً من شباب المعسكر يحترمونك ويقدرونك لعملك وهدوئك.

ولكي أتأكد من أن الضابط لا ينصب لي كميناً قلت له:

ـ لعل غيري يفعل ذلك أحسن مني. فأنا بالكاد أعرف أبا عمر اليمني..

ـ لقد وقع اختياري عليك. وقد أخبرت مكتب الدكتور (كان يقصد الدكتور الترابي) أنك الوحيد الذي بإمكانه أن يقوم بالمهمة.

أوحى لي ذلك الضابط من خلال كلامه أن أبا عمر اليمني قد يكون رجلاً مهماً. وقد يكون حاملاً لأسرار خطيرة أو أنه استحوذ على أموال كثيرة كانت مرسلة إلى مجاهدي البوسنة. ثم تأكد لي ذلك حين قال الضابط:

- إذا كان أبو عمر يريد الانشقاق فهو حر. ولكن عليه أن يعيد الأمانة إلى أصحابها.
- بعد قليل، شرح لي الضابط ما يجب علي القيام به فقال:
- إن أبا عمر كان يحمل مبلغاً من المال ليسلمه إلى الإخوة المجاهدين. المبلغ يزيد على مليون دولار بثلاثة آلاف كمصاريف. وعرفنا أنه امتنع عن تسليم المال لأصحابه. لقد وصل إلى البوسنة. لكنه احتفظ بالأموال لديه. كان في رأيه أن الحرب قد أوشكت على النهاية. ثم غادر البوسنة نهائياً. اشتد الغضب بالضابط هو يشعر بفداحة الخيانة والخسارة ثم قال:
- هل يريدنا أن نجعل البوسنة ساحة لتصفية الحسابات؟ هل فكّر أن حجم خيانته لا يغفر أبداً؟

كان واضحاً أن الضابط قد انتقل إلى التهديد. وكان يريدني أن أنقل كل ذلك إلى أبي عمر، لكنني في الحقيقة كنت بالكاد أصغي إلى ما كان يقوله. أو بالأحرى لم أكن في تلك اللحظة إلا رجلاً قد هبت عليه نسائم الحبور والانشراح. كنت أفكر في السفر والتخلص من هذا المعسكر البائس. بالإضافة إلى ذلك كنت أفكر في تلك الأموال التي أصبحت بيدي أبي عمر اليمني. وحين لاحت في ذهني فرصة السفر ومعها فرصة الانشقاق، قلت لنفسي ها أنني أصبحت أملك بعض الرجال وبعض الأموال. الآن عليّ أن أتقدم. آنذاك بدوت في عين الضابط وكأنني رجل مستعد حتى للانتقام من أبي عمر إذا لم يرجع الأموال إلى أصحابها وأنا أقول له:

- مثل هؤلاء الناس لا يصلحون لأي شيء. إنهم ينامون تحت السطح حتى إذا تمكّنوا من غنائمهم قفزوا على السطح وأصبحوا ينادون بالجهاد.
- لقد فهمتني جيداً يا شيخ عبدالرحمن. أريدك أن تستعد للسفر غداً. وإذا كنت تريد أن يسافر معك أحد الأخوان، فلا مانع لديّ. فلربما احتجت إلى مساعدة.

فكرت هنا أيضاً أن يكون الضابط قد نصب لي فخّه بإحكام ويريد أن يستدرجني لمعرفة نواياي ونوايا بعض أصدقائي في المعسكر، فاكتفيت بالقول:

- كما ترى. المهم أن نستطيع أن نفعل شيئاً مهماً.
- إذن فليسافر معك تومرت التونسي. إنه الصديق الكبير لأبي عمر، ويمكن أن يؤثر عليه. يمكنك أن تخبره بذلك لكن لا تحدثه الآن عن قضية الأموال.

١٥

كان يجدر بي أن أكون شاكراً لأبي عمر اليمني. فهو الذي أنقذني من جفاف المعسكر وأجوائه الملبدة وضباطه الكسالى. لم يسافر معي تومرت. فقد اتفقت معه أن يقنع الضابط المشرف على المعسكر أن يبقى لفترة أخرى حتى أطلبه إذا ما احتجت إليه. كان تومرت يشك مثلي بل أكثر مني في نوايا الضابط أن يكون قد نصب فخه لنا جميعاً، ولذلك لم يكن متحمساً للسفر معي فقال:

ـ سافر لوحدك. وسوف ألتحق بك إذا طلبتني فيما بعد. وهكذا لا نشعر الضابط بأي شيء يجعله حذراً تجاهنا.

وصلت إلى اسطنبول ليلاً من القاهرة. لم أكن متعباً رغم أن الرحلة استمرت ليوم كامل ونصف ليلة. شعرت أنه لا توجد كلمات مناسبة لوصف الراحة التي هبطت علي. اسطنبول الساحرة أضافت قوة أخرى إلى قوتي. تساءلت ما معنى الحياة أن تكون تحت التهديد المستمر لفقدانها؟ ثم ما معنى أن أكون مجرد رقم في معسكر كبير مليء

بالرجال المنزوعي الإرادة؟ ثم قلت: ذلك كان شيئاً من الماضي.. يجب أن أتجاوزه.

حين وصلت إلى فندق «إيجه» في ساحة «تقاسيم»، كنت لا أزال تحت تأثير ذلك اللقاء العابر الذي جمعني بتلك السيدة المصرية التي التقيتها في مطار اسطنبول وهي عائدة إلى بلادها من الأماكن المقدسة. قالت لي إنها أرادت أن تمر باسطنبول قبل العودة إلى مصر لتتعرّف على عظمة عاصمة آخر الخلافات الإسلامية. بعد حين انضم إلينا رجل بشوش جداً، قدمته لي على أنه زوجها. قالت:

- هذا زوجي الدكتور محمد نجيب. في الحين سألني الدكتور:
- من أين يا أستاذ؟

قلت له: أنا من الجزائر. بعد ذلك سألته:

لأول مرة تزور تركيا يا دكتور؟

أجابت زوجته بسرعة:

- نحن لدينا جذور في هذه البلاد. هذه خامس مرة نزور فيها تركيا. ثم أضاف زوجها يقول: زوجتي تحمل اسماً تركياً. اسمها ريمان وأمها تتكلم التركية بطلاقة، وقد أصرّت في وصيتها على أن تدفن في اسطنبول.
- إذن المدام تريد أن تزور قبر أمها؟

بعد ذلك نعود إلى القاهرة. العطلة الدراسية أوشكت على النهاية.

سكت قليلاً.. وأمام شباك ضابط الجوازات التركي، سألت الدكتور نجيب وأنا أتجاهل التركيز على الضابط:

ـ في أية جامعة تدرس يا دكتور؟

ـ في عين شمس. أدرّس مادة الجغرافيا.

ـ وزوجتك، هل هي مدرِّسة أيضاً؟

ـ أنا ربة بيت. لقد اعتزلت العمل. قالت ذلك مكتفية بابتسامة مشعّة، لكنني لم أسكت، فسألتها مرة أخرى وقد تولد لدي انطباع فاسد عن نفسي هو أنني أصبحت أحشر نفسي في حياة الآخرين على نحو لم أحبه قط.

ـ ماذا كنت تعملين يا مدام ريمان؟

التفتت إلى زوجها وكأنها تستشيره ثم قالت:

ـ كنت مغنية. لو أنك مستمع جيداً للطرب الشرقي، فإنك ستتذكرني في الحين.

ـ عفواً مدام، عشت في بلاد لا يوجد فيها كثير من الطرب. بلاد أجنبية. ثم كنت في مكان لا يصله الطرب.

كنت سأتمادى في مثل ذلك الكلام لولا انتباهي إلى أن السيدة اعتزلت الفن أو الغناء ولا بد أنها لم تعد تحب أغانيها أو ماضيها أو حتى نفسها وكل الذين يذكرونها بذلك. ولا شك أنني بددت لحظات سعادة وصفاء بمثل ذلك التفكير، ولكنني كنت فعلاً أتطلع إلى كسب صداقة هذين الزوجين. أحسست أنني في حاجة إلى التحدث معهما في وقت آخر. وهذا ما حدث بالضبط إذ ذهبت إلى فندقهما في صباح اليوم التالي. فحالما نهضت من الفراش، وجدت تلك السعادة ما زالت تغمرني. تلك السعادة التي إذا شعرنا بقيد أنملة منها، بدا لنا وكأننا اخترعنا سماء أخرى لنسكن فيها. عندما كنت في طريقي إلى فندق «مرمرة بالاس» للقاء

الدكتور نجيب وزوجته السيدة ريمان، لم يكن يخطر ببالي أبداً أنني عثرت على كنز بمثل تلك الأهمية. وجدتهما في انتظاري في صالون «الهول». استقبلني الدكتور نجيب بانحناءة خفيفة. بعد ذلك سلمتُ على زوجته السيدة ريمان على نحو محتشم وهي تمدّ يدها اليمنى إلى يدي فيما كانت يدها اليسرى ترتب «الشارب» الأبيض الذي غطت به رأسها. ورغم أننا بالكاد كنا نعرف بعضنا بعضاً، إلا أننا بتنا أصدقاء كما لو أن صداقتنا قد مضى عليها زمن بعيد. أتساءل باستمرار كيف يمكن أن يصل شخصان أو عدة أشخاص إلى مثل هذه الحالة من الصفاء والراحة بمثل هذه السرعة؟ حصل معي ذلك مراراً وتكراراً، بل أستطيع أن أجزم أن معظم صداقاتي بدأت على هذا النحو. لا أعرف إن كان وجهي يوحي بكل هذه البشاشة للناس الذين ألتقيهم؟ لا أعرف إن كانت قسمات وجهي تحمل كل هذه الثقة للناس الذين يتبادلون معي الحديث. لا أعرف أين توجد منطقة الجذب التي تجعل الأشخاص الذين التقيتهم بلا مقاومة: في لساني، في عيوني، في ابتسامتي. كل ما أعرفه أني بقدر ما أجد من السهل أن أكره بعض الأشخاص الذين ألتقيهم لأول مرة بقدر ما أجد من السهل على أولئك الأشخاص أن يحبوني منذ أول لقاء معهم. تلك مفارقة عجيبة أتغلب عليها حالما أجد نفسي في غمار العلاقة التي غالباً ما تنسج نفسها في حبكة شبه صوفية تختلط فيها الصدفة مع السماحة مع الصفاء مع الانشراح.

ولو كان من الممكن الآن أن أحصي تلك العلاقات التي نسجت نفسها من حولي وكنت أنا محورها لفعلت ذلك. ومع ذلك أجد من المجدي دائماً أن أذكّر نفسي بأن علاقتي بزوجتي الأولى إيزابيل كانت بالمصادفة.

التقيتها في المترو ذات صباح وهي ذاهبة إلى الجامعة. كانت تقرأ بنهم رواية «ليون الأفريقي» لأمين معلوف. ولاعتقادي بأنها تحمل فكرة جيدة عن تلاقح الثقافات والأديان، انتزعتها من صفحات الكتاب ثم دخلت معها في نقاش ساخن وجميل حتى جعلتها ناضجة. ثم استمرت لقاءاتنا. كما أن علاقتي بيزيد رضوان الذي أرسلني إلى السودان كانت نتيجة مصادفة حين رآني مستغرقاً في مناقشة مع إمام جامع «الدعوة». ثم إن بدء علاقتي بتومرت الذي قدّم لي أبا عمر اليمني في معسكر أبي ذرّ الغفاري كان تقريباً بالمصادفة. وها أن لقائي بالدكتور نجيب وزوجته السيدة ريمان كان أيضاً على طريق المصادفة. ولكن يجب أن أضيف إلى ما أعتقده مصادفة، هي تلك القدرة العجيبة التي أملكها تحت لساني لأسر كل من يتحدث إليّ.

كان عليّ إذن أن أثق في تلك المصادفة، كما كان عليّ أن أشحذ موهبتي في الكلام. ثم كان عليّ أن أنفتح عليها بأكثر ما يمكنني من رحابة صدر وبشاشة.

كنت أؤمن دائماً بأن أتفه الأشياء من شأنها أن تغير حياة أعظم الرجال. وأن أتفه الأحداث يمكن أن تقلب أوضاع إمبراطوريات بكاملها بشكل غير متوقع. كنت أؤمن أيضاً بأن حياتنا ليست ملك أيدينا أو إرادتنا أو اختياراتنا، والآن يمكن أن أضيف أن حياة كل إنسان هي مندمجة مع حياة إنسان آخر أو أكثر من إنسان آخر. أحياناً نمر من طريق موحش اضطرارياً فيصادف أن نلتقي بشخص نبحث عنه منذ مدة طويلة. هذا ما يمكن أن نسميه بالمصادفة أو القدر، أو النداء الداخلي، بل لعله اندماج الباحث في الضائع. صوت الفاقد للمفقود. أحياناً تلدغنا نحلة فنذهب

إلى المستشفى، وهناك نتعرف إلى رجل محتال يقوم بسرقتنا. ماذا يمكن أن يسمى ذلك؟ احتمالات السوء، نحس، لعنة، عثرة حظ أو حظ عاثر؟ أستطيع أن أتمادى في طرح الأمثلة. وهي بالتأكيد أمثلة واقعية عاشها أكثر من شخص في أكثر من مكان، ولكن بما أن لقائي بالدكتور نجيب وزوجته السيدة ريمان هو أحسن مثال عشته، فإنني سأرويه باختصار وعلى نحو مكثف كما عشته بالضبط، مختصراً ومكثفاً.

خرجنا ثلاثتنا من فندق «مرمرة بالاس» نحو السوق. قطعنا الجسر المعلق على البوسفور باتجاه المنطقة الآسيوية. وهناك في أحد مطاعم تلك المنطقة التي كان يتخذها سلاطين بني عثمان مصيفاً لهم، تناولنا وجبة غداء دسمة جداً. ركبنا «الكاليس» فتجولنا نحو نصف ساعة في الطرقات الخلفية والعالية التي تشرف على الجانب الأوروبي من اسطنبول ثم عدنا إلى الفندق حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر. أثناء تلك الجولة عرفت أن الدكتور نجيب لا يزال يحلم بإعادة دار الخلافة الإسلامية إلى مجدها. وأن زوجته السيدة ريمان كانت مغنية ثم اعتزلت الفن بعد أن أحبّت الدكتور نجيب وقررا الزواج. بالإضافة إلى ذلك عرفت أن هذين الزوجين يملكان علاقات جيدة مع بعض الأمراء. حدثتهم عن رحلتي إلى السودان وحماستي للجهاد من أجل الإسلام، كذلك عن خيبتي من التجربة القاسية في الخرطوم، ثم عن طموحاتي العلمية. في الفندق قلت لهما إنني سأغادر في اليوم التالي إلى لندن، فتمنيا لي رحلة جيدة وآمالاً عريضة. وقبل أن أودعهما قالت لي السيدة ريمان:

- سأعطيك عنواناً يمكن أن يفيدك هو عنوان إحدى الأميرات.

ثم أضافت: يمكنك أن تتصل بها فهي الأميرة سمية. إنها

صديقتي. كرّرت مدام ريمان كلامها على نحو آخر:

ـ قل لها إنك التقيت بي في اسطنبول مع الدكتور نجيب، وانقل تحياتي لها. وإذا احتجت لأي شيء فلا تتردّد. إنها سيدة محترمة وجريئة وفاعلة خير، وذات أخلاق عالية.

لم أسأل من أي بلد ولا ماذا تفعل أو إن كانت متزوجة أم لا. بل لم تخطر ببالي قط مثل تلك الأسئلة. ولربما كنت سأمتنع عن مثل تلك الأسئلة حتى لو خطرت ببالي. رأيت أن أهم ما عثرت عليه في اسطنبول هو لقائي بالدكتور نجيب وزوجته. وعدت السيدة ريمان بأنني سأفعل ذلك حالما أصل إلى لندن. ثم أشعرتها بأنني قد توفقت في اللقاء بهما حين قلت:

ـ ليس دائماً نجد من يدلنا على الطريق الصحيح حين نكون في مفترق الطرقات.

لم تعلق السيدة ريمان، لكن الدكتور نجيب قال لي:

ـ عندما تكون قلوبنا عامرة بالإيمان، لا يمكن لله أن ينسانا.

كان ذلك آخر ما سمعته وأنا أغادرهما باتجاه فندقي الذي يقع في ساحة «تقاسيم». في الطريق لم أفكر لا في السودان ولا في الضابط الذي أرسلني إلى البوسنة للاتصال بأبي عمر. لقد طردت كل ما يتعلق بتلك القضية من ذهني. فكرت فقط كيف ومتى يجب أن أذهب إلى لندن. الآن انفتحت أمامي آفاق جديدة وقلت لنفسي: من المحتمل أن أجد لدى الأميرة سمية كل الاستعداد لكي تجعلني أصل إلى هدفي. كنت فاقداً للرجال. الآن أصبح لدي رجال. وغداً يمكن أن أحصل على المال. هذا ما كان يشغلني. هذا ما كان يجعلني أبدو وكأنني رجل جديد. رجل يمكنه أن يصنع شيئاً جديداً.

١٦

ذهبت إلى لندن بروح جديدة. كنت محتدماً بقلق جميل سميته فيما بعد بقلق الولادة. تركت اسطنبول وهي تستعد لأكبر تظاهرة إسلامية منذ عهد الخلافة. كان رجال نجم الدين أربكان يتأهبون للسلطة. ولقد أيقنوا في لحظة ما أن لعبة الديموقراطية ستفتح لهم أبواب السلطة. ومن يدري أبواب العودة إلى المجد العثماني؟ هكذا كانت شعاراتهم وافتتاحيات صحفهم وخطب زعمائهم توحي للناس. باختصار كانت السذاجة تسيطر عليهم وكذلك الروح الانتصارية أو الروح الانتقامية بالإضافة إلى عناد الأتراك التاريخي. لم يتعلموا قط من الدرس الذي حدث لأخوتهم في الجزائر قبل بضع سنوات. ولأنني كنت أعتقد أن الجزائريين فيهم الشيء الكثير من الأتراك، العناد والأبهة والغلاظة، وأن الجزائر فيها الكثير من تركيا، الحساسية والشعور بالأنفة والاستجابة اللاشعورية إلى القوة، فقد أيقنت أن المستقبل سيكون على قدر كبير من التعقيد بالنسبة لحزب الرفاه. لم يكن من الممكن أن أبقى في اسطنبول وبالذات في ساحة «تقاسيم» التي أصبحت

مسرحاً للاحتدامات السياسية، لأن ذلك قد يجلب لي بعض المتاعب. فعيون البوليس عادة ما تتجه إلى الأجانب لوضع كل التهم على كاهلهم.

أول شيء كان علي أن أفعله حين وصلت إلى لندن الداكنة والمغبرة وذات الجبروت المريع، هو أن أذهب إلى الأميرة سمية. بعد ذلك أتصل بصديقي يزيد رضوان بباريس ليأتي إلى لندن. ثم سأنظر إن كان الأمر مناسباً لأتصل بزكريا ضابط الاتصالات في معسكر أبي ذر الغفاري بالخرطوم. هكذا كان عليّ أن أبدأ يومي الأول في لندن. كان المطر لا يكف عن السقوط. ذلك المطر الذي حررني من الريح التي تركتها ورائي في الخرطوم. تلك الريح التي هي جزء من حياة الناس. المطر أعادني إلى أوروبا التي تركتها منذ نحو ستة أشهر كما أعادني إلى الحميمية مع نفسي ومع الأشياء التي افتقدتها لفترة طويلة. أشير هنا إلى خطٍّ مناخي وجمالي يفصل بين الشمال والجنوب، إلى ذلك الخط الذي يقيمه وجود الماء أو ندرته. وهو خط من الصمت المطبق. فهنا يجعل الماء الناس مقبلين على الحياة لينعموا بالدفء والنشاط. وهناك يجعلهم الجفاف مدبرين عن الحياة لينعموا بالكسل. فجأة سحبت عنوان الأميرة سمية من جيب سترتي ثم فكّرت قليلاً ما إذا كان عليّ أن أذهب إليها مباشرة أو أهاتفها.

وجدت من اللياقة أن أهاتفها أولاً. ردّت عليّ امرأة كانت تتكلم العربية بصعوبة، ربما كانت سيدة آسيوية. ثم سمعت صوتاً نسائياً آخر على السماعة الثانية. كانت اللكنة المغربية واضحة جداً. سألتني من أكون وماذا أريد؟ بشيء من الفظاظة، أو هكذا أحسست. قلت لها:

ـ أنا عبد الرحمن الأنصاري أريد أن أتحدث إلى الأميرة سمية.
ـ من أين أنت يا سيد عبدالرحمن؟
ـ أنا لدي رسالة إلى الأميرة. لقد وصلت البارحة إلى لندن.

لم أجبها عن سؤالها بدقة، تجاهلته تماماً. ولم يكن بإمكاني أن أقول لها أكثر من ذلك. وأظن أنها وجدتني جافاً أو مشاغباً يحب أن يعكر أمزجة الآخرين عن طريق الهاتف. فقالت لي: الأميرة ليست هنا. ثم قفلت الخط. بعد برهة عاودت الاتصال. كررت الكلام نفسه بأكثر من تهذيب، لكن تلك السيدة المغربية قالت لي بفظاظة وسخرية:

ـ أليس عندك شيء آخر أكثر ضرورة تفعله؟. ثم قفلت السماعة ثانية.

لم أنهزم. كنت كصياد هاو ومتحمس، عليه أن يطلق أكثر من عيار لكي يرى فريسته قد انهارت. قلت في نفسي لا بد أن أوضح لتلك السيدة أنني لست مشاغب هواتف، وأنني على نية سليمة، ثم أدرت رقم الهاتف للمرة الثالثة. أخيراً سمعت حشرجة صوت ولم أسمع ـ ألو ـ. قلت بسرعة:

ـ معذرة سيدتي. هل يمكن أن تبلّغي الأميرة سمية أنني أحد أصدقاء الدكتور نجيب وزوجته ريمان؟ هنا عاد صوت السيدة المغربية إلى صفائه إذ سمعتها تقول:
ـ كان يجب أن تقول لي هذا منذ البداية. هل تنتظر قليلاً يا سيدي عبدالرحمن..

بعد نحو دقيقة، عادت السيدة المغربية لتسألني بتهذيب عالٍ:

ـ هل تستطيع أن تأتي إلى هنا لوحدك؟ هل لديك سيارة؟ . ثم

قالت: سنرسل لك السائق. هل أعرف أين أنت الآن؟.

قلت لها: أنا موجود في فندق «غاردن سكاي» غرفة رقم (...)

خلال نصف ساعة، جاءني السائق. كان شاباً أسمر، عرفت فيما بعد أنه باكستاني. تبادل معي الابتسامات أكثر مما تبادل معي الكلام. كان كتوماً جداً وبدا لي أنه يحترم حميمية كل شخص. ربما بدا للبعض ذلك السلوك سلبياً، ولكني رأيت في ذلك قمة في التهذيب. ولو كان السائق من العرب لفتح علي شلالاً من الأسئلة والنكات السمجة والمساجلات الحادة والانطباعات الخاطئة!! أوصلني السائق إلى باب المصعد الذي يفتح أبوابه داخل الشقة وكبس على الزر المناسب ثم اختفى. في الطابق الرابع، وجدت فتاة أكثر سمرة من السائق الباكستاني أمامي. كانت تبتسم كاشفة عن أسنان بيضاء كما لو أنها لم تستعملها قط للأكل. قادتني إلى الصالون لتسلمني إلى تلك السيدة المغربية التي كلمتها على الهاتف قبل نحو ساعة ونصف فقط، قلت لي مباشرة:

- أهلاً بك يا سيد عبدالرحمن. أنا اسمي للافطيمة. بعد قليل كرّرت اعتذارها وقالت: إنها كانت تعتقد أن المتكلم هو أحد المشاغبين. ثم عرضت عليّ ما إذا كنت أرغب في نوع خاص من العصير.
- كنت راغباً في شرب قهوة منذ الصباح، ولكنني لم أشربها. هكذا أجبتها.

في تلك اللحظة فكرت بأن اللعب مع النساء يفترض عدة أشياء جميلة ومتناسقة حيناً ومتناقضة في أحيان أخرى. أما إذا كان ذلك اللعب مع نساء أميرات، فإنه يفترض أكثر من ذلك بكثير. لم تكن لي تجربة سابقة

لا في مجالسة الأميرات ولا في مخاطبتهن. بالأحرى لم أكن أملك ثقافة أميرية. فكل ما أعرفه كان خليطاً من الانطباعات والحكايات والأخطاء الشائعة. مع ذلك كنت جاهزاً لأدخل إلى ذلك العالم بكل حواسي. فأنا في مثل هذه الحالات لا أجد عناءً كبيراً في أن أبدو كأمير. أمير شهم وعالي الأخلاق، كامل الحضور والاستجابة لأرق المشاعر وأخطر المهمات. وتلك الصورة هي التي ترتسم في ذهني عن نفسي وكذلك عن الأمراء. إن الاهتمام الدائم والشغوف بمسائل الآخرين هو من شيم الأمراء. كما أن إخفاء الانفعالات الساخنة هو شيء مرغوب فيه لدى الأمراء وإيجابي جداً من أجل أن يكونوا نموذجاً لدى أتباعهم، نموذجاً ساطعاً ومتألقاً. كنت قد قرّرت أن أستعمل كل الأسلحة لأفوز بثقة الأميرة، وكذلك بقلبها إن أمكنني ذلك. لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة الأميرة.. رأيتها داخلة إلى الصالون الذي كنت أجلس فيه. فوجئت وأنا أشاهدها تتقدّم نحوي وهي على هذا القسط من الجمال.. ثم تمالكت بسرعة فتقدمت نحوها خطوتين لاستقبالها. لم أكن من أولئك الذين يؤمنون بامتلاك النساء. كنت قاسياً وصلباً في معاملتي مع زوجتي إيزابيل ولكني لم أكن ممتلكاً لها، ولو أنني كنت كذلك لما قبلت الطلاق. فالرجل الذي لا يقدر على الطلاق هو الرجل المريض بامتلاك النساء، أو هو الرجل الذي يفضل أن يعيش مع امرأة لم يعد يحبها حتى لا تحب غيره. أو حتى لا يمتلكها غيره. سلمت عليها بانحناءة جديرة بالأمراء ثم قبلت يدها بشيء التهذيب. وحينها سمعتها تقول لي:

- أين تفضل أن نجلس؟ هنا في هذا الصالون، أو هناك على الأرائك الجلدية؟

اكتشفت أنني قد فقدت جزئياً السيطرة على حركاتي. ولكي أخفي ذلك قلت لها:

ـ ليكن هناك. لعل هناك أكثر راحة لسمو الأميرة.

ترجلنا معاً بعض الخطوات، ثم تجاوزنا الدرجات الثلاث التي تفصل بين الصالونين، بعد ذلك، أصرّت أن أجلس قبلها في المكان الذي يناسبني. وجدت ذلك غاية في اللطف، ثم وجدته نوعاً من التحريض على الخروج من الحياء الذي لفّني، بعد ذلك بدا لي أنه مجرد ترويض لكي أتكلم بطلاقة، فقلت:

ـ لقد حدثتني السيدة ريمان عنك باحترام وإعجاب شديد. التقينا في مطار اسطنبول فتحابينا بسرعة. الدكتور يقدرك عالياً. وقد قضينا يوماً جميلاً في اسطنبول. كنت أنا عائداً من السودان، وكانا هما عائدين من جدة. قالت لي السيدة ريمان إنها تعودت أن تزور قبر أمها في تركيا كلما أدّت مناسك العمرة.

كنت أتكلم مع الأميرة بلهجة عربية ثالثة. لا أحد بإمكانه أن يخمن اللهجة التي أتكلم بها عادة. فهي خليط بين الجزائرية والمصرية والسودانية والفلسطينية. خليط مزيج مدبوغ بتعابير فصيحة وكلمات أخرى مشتقة من الفصحى. ولاحظت الأميرة ذلك فسألتني إن كنت من ليبيا أو تونس، فأجبتها:

ـ أصدقائي كثيرون من كل البلاد العربية. ولكنني أنا جزائري. أبي من تلمسان وأمي من أصل فرنسي.

ـ وإذاً لا بد أنك تتكلم الفرنسية بطلاقة، قالت الأميرة. ثم

انتقلت إلى الجزائر، فقالت:

ـ الجزائر مسكينة. إنها تمر بوضع صعب ومعقد. حرام أن تلقى الجزائر هذا العذاب. لا بد أن الله يمتحن أبناءه في ذلك البلد العظيم.

لم أرغب في تلك اللحظة التحدث عن أوضاع الجزائر. كنت لا أملك معلومات كافية لكي أقدم تحليلاً متماسكاً. فغيابي عن باريس لمدة تزيد على ستة أشهر قد أخرجني من دائرة الأخبار والمتابعة. وما كان يصلني إلى الخرطوم لا يتعدى بعض الأخبار من محطة الـ «بي.بي.سي.» أو بعض أخبار الصحف الرسمية في السودان. ومع ذلك كان لا بد أن أدردش مع الأميرة فقلت:

ـ إنهم يذبحون أبناءهم وأحفادهم. ثم تساءلت أمامها:

ـ أيعقل أن يهزم الجنرالات أبناء الله؟.

ـ لا والله، يجب أن يكون إيماننا عميقاً. هكذا قالت الأميرة بلهجة حازمة متراخية ثم أضافت:

ـ كل ما يمكن أن نفعله هو أن نكون قادرين على الانتظار.

ـ من لا يعرف كيف ينتظر لا يصل أبداً. هذا صحيح، الانتظار قوة روحية رهيبة توازي الانتصار.

فجأة غيرت الأميرة سمية من إيقاع لهجتها، فقالت بغنج وهي تحرك ستارة النافذة التي كانت تجلس إلى جانبها:

ـ لا نكاد نشعر بالفصول في هذه المدينة. مطر. مطر. ما مر يوم تقريباً على لندن بلا مطر.

ـ كذلك الأمر تقريباً في السودان، ولكن بشكل معكوس.

رياح. رياح. حتى لا يكاد يمر واحد بلا غبار.

ـ ألا يلطِّف نهر النيل جو الخرطوم قليلاً؟

ـ ربما، ولكن طوال نصف سنة ظللتُ أتنفس الغبار.

ـ أنت خائب. أنت خائب يا شيخ عبدالرحمن، لكأنك لم تحب السودان. لا أعتقد أنك تتحامل على بلد بكامله ولكن ثقل الواجبات قد يفقدنا الموضوعية لوقت طويل.

كانت تقريباً قد لامست جرحي. وجدت كلماتها موزونة. قالت: الخيبة سحابة ثقيلة وداكنة، تجعلنا شبه قنوطين ثم إذا انقشعت أو انتعشت أرواحنا أحسسنا بمدى ما ارتكبناه من أخطاء.

كانت حالتي تقريباً هكذا. لم أشأ أن أشعر الأميرة بأنني متشائم أو متذمر. بل كنت أريدها أن تثق فيّ، وأن تجعلني أكثر يقظة واستعداداً. لا أدري ما إذا كنت متأكداً أن الأميرة تشاطرني الرأي في ما يتعلق بحركة الجهاد الإسلامي، ولكني غامرت بالقول:

ـ إن مجموعات الجهاد الإسلامي كثيرة، ومتخاصمة فيما بينها، وأغلبها يعرض نفسه للعقاب والتعقب. إنها حافلة بالادعاءات وحالة للخوف والوعيد للناس. ثم هي مطبوعة بالدم والاستبداد. وإذا سمحت لي سمو الأميرة، فقد أصبحت على قناعة بأنه صار من الواجب أن نغير ما بأنفسنا نحن الجهاديين. نحن الذين يسموننا مرة بالأصوليين وأخرى بالمرتزقة وأخرى بالزنادقة وأخرى بأبناء الله وأخرى بشياطين الله. أبديت حماسة كبيرة وأنا أتكلم إلى الأميرة. وأظنها أنها تفاعلت مع حماستي ولكن بدرجة أقل. عرفت ذلك من

خلال إيماءات الموافقة التي كانت ترسلها باتجاهي وكذلك من خلال عينيها المثبتتين على عينيّ. من ناحيتي كنت شبه واثق أنني اخترقت جدار الحذر. أما من ناحيتها، فلا شك أن هناك شيئاً ما قد هزها خلال ذلك اللقاء. إذ قالت لي وهي تودعني:

ـ هل تعرف يا شيخ عبدالرحمن: أنت متشائم ولكنك استطعت أن تزرع الأمل في فؤادي. إن فؤاد النساء هو الدليل، العقل كذاب، مسوغ للمعادلات والمساومات.

كانت حريصة على ألا تبدو ثرثارة أو متعجلة أو متعجرفة، ولذلك فقد أخبرتني بتهذيب عال وهي تودعني:

ـ سنرى بعضنا غداً في مثل هذا الوقت، هل لديك ما يشغلك؟ ثم أضافت: شيخ عبدالرحمن، هل تقبل دعوتي إلى الغداء غداً؟

ـ ليس لدي الحق في رفض ما يجعل سمو الأميرة متألقة.

في تلك اللحظة انزاح بصرها قليلاً. أعتقد أنها شعرت بالخجل إذ ألقيت عليها القبض وهي مأخوذة بزرقة عينيّ. ابتسمت لها فازدادت اضطراباً، لكنها بادلتني ابتسامة عريضة وطويلة. تلك الابتسامة التي ستجعلني أسعد إنسان في لندن لمدة ٢٤ ساعة.

* * *

خرجت من بيت الأميرة بحزمة من الآمال الملونة. كان عليّ أن أتصل بصديقي يزيد رضوان. خابرته على هاتفه النقال فوجدته في لندن. كانت المفاجأة عظيمة، ولكن فرحة يزيد كانت أعظم حين عرف أنني أيضاً في

لندن إذ قال لي: ما رأيك أن نلتقي في السماء. سأكون عندك في فندق «الغاردن سكاي» في حدود السادسة مساء؟ بعد ذلك ذهبت لأتناول وجبة خفيفة في مطعم باكستاني، ثم عدت إلى الفندق لأجد ورقة صغيرة بتوقيع أبو عمر اليمني. وعليها رقم هاتفه الجوال. كنت أفكر آنذاك في الاتصال بالخرطوم. أما وقد فاجأني أبو عمر بوجوده في لندن، فقد أجلت ذلك إلى وقت آخر. كان وجود أبو عمر في لندن أهم خبر تلقيته في ذلك اليوم. فقد أراحني من الكذب إذ كنت عازماً على اختراع كذبة أسوقها إلى زكريا في الخرطوم لأبرر بها وجودي في لندن وعدم ذهابي إلى البوسنة. وحتى ذلك الوقت، أي قبل أن أجد رسالة أبي عمر، لم أكن أملك الكذبة المناسبة. أما الآن فإن ما يمكن أن يكون كذبة هو حقيقة. هكذا ما إن صعدت إلى الغرفة حتى خابرت الخرطوم. قلت وأنا أصرخ بصوت عال لزكريا: إنني في لندن، لأنني علمت أن أبا عمر في لندن، وسوف ألتقيه ربما الليلة أو غداً. سألني زكريا، إن كان أبو عمر قد التقى بيزيد رضوان، فقلت له: لا أعلم ذلك. لم أرَ حتى الآن يزيد. ربما سيمر عليّ هذا المساء. ودّعته بحرارة لكي أشعره بأنني لا زلت جاداً في المهمة التي كلفني بها. ثم اتصلت مباشرة بأبي عمر، فوجدته نائماً، عرفت ذلك من خلال صوته المبحوح بالنعاس. قلت له:

ـ أنا عبدالرحمن. هل أنت نائم يا أبا عمر، أم أنت مريض؟ لا شك أنه انتفض حين سمع صوتي، فصرخ مهنئاً بقدومي إلى لندن. ثم قال. أنا مستلقٍ فقط، لست مريضاً. متى سأراك يا شيخنا الكبير؟

ـ كما تشاء. أنا موجود هنا في لندن لأراك.

كنت مقتنعاً أن يزيد هو الذي أخبرت بوجودي في لندن، وهذا ما أكّده لي أبو عمر حين قال:

- قبل حين فقط أخبرني يزيد أنك موجود هنا.

- إذن سنلتقي ثلاثتنا هذا المساء. يزيد سيأتي إلى عندي عند السادسة مساء، يمكنك أن تأتي معه.

أقفلت السماعة على صوت أبو عمر وهو يدعو لي بالصحة وطول العمر. ثم استرخيت على الأريكة وقد مددت رجلي على حافة السرير بعد أن فتحت التلفزيون على المحطة الفرنسية الأولى لمشاهدة فيلم وثائقي عن صيد الحيوانات البرية، أو بالأحرى عن تدريب الطيور الجارحة على الصيد مثل الصقور والبواشق والبيازين. كنت مشدوداً إلى ذلك الباشق الملون وهو ينزل على فريسته الحجل، حين تسلّل إلى عيني نعاس خفيف حملني إلى عوالم أخرى. كنت أنظر إلى عيون سمية برضى جعلها تهفو إليّ وكأنها ورقة خفيفة. شيئاً فشيئاً غمرتني بالأزهار ثم بالقبل والمداعبات حتى أرخيت رأسي على صدرها العامر والطازج ونحن لا نزال واقفين عند النافذة. حملتني حالة الاشتهاء التي ملأتها بالنور الذي شعّ من عينيها إلى حالة أخرى مشابهة لدي. كنت لا أزال أتقدم نحو مخدعنا، وأنا أدفعها تارة برفق وأخرى بخشونة وهي تتمنع. لم تعد أمامي أميرة. أصبحت سمية فقط. سمية التي تكاد شهوتي نحوها أن تجعلني أعصرها بين ذراعيّ. كنت راغباً في الوصول إلى السرير بينما هي كانت تحب أن تقبل فمي. أخذت يدها لأضعها على حجري.. لكنها سحبتها بسرعة. كانت تقبلني وعيناها مفتوحتان. كان جسدها يرتعش من شدة الرغبة. أزلقت يدي إلى بين فخذيها الطويلتين ثم تماديت

فأزلقتها إلى ما تحت الكيلوت، بللت أصابعي في ماء الرغبة الذي لا يعرف الالتباس أو الغموض. لا زلت أغرس أصابعي إلى ما تحت اللحم. إلى داخل عضوها العذب الدافئ مبعث اللذة وصانع المعجزات. حاولت جرها إلى السرير الذي لم يعد بعيداً عنا إلا مسافة ثلاثة أمتار. لكنها حشرتني في الزاوية عند الباب وقد لفت فخذيها على فخذي فجعلتني ملتصقاً بجسدها الفواحِ. لم تتركني أفعل أي شيء آخر. كانت هي شبه عارية. أما أنا فلم أتمكّن حتى من فتح بنطلوني. تشابكت الشهوة مع القسوة والسخاء مع الأنانية، واختلطت منابع كثيرة وأنا أرى نفسي معذباً ومعلقاً من أهدابي بين السماء والأُرض في بستان الحب. ولم يكن هناك من يخلصني من تلك الرعشة الطافحة. والمهلكة.. إلا رنين الهاتف الذي أيقظني على صوت يزيد وهو يقول لي:

ـ مساء الخير، شيخ عبدالرحمن. نحن الآن في بهو الفندق.

١٧

نزلت بسرعة على الدرج. لم أنتظر المصعد، كان إحساسي بالسرعة عالياً. ثم اتجهت مباشرة إلى البهو ثم إلى مقهى الفندق. أرسلت بصري في جميع الزوايا، غير أن أبو عمر ويزيد رضوان كانا جالسين في وسط المقهى. رآني أبو عمر قبل أن أنتبه إلى طاولتهما. بعد عناق طويل، انضممت إليهما. طلب كل منا قهوة «كابتشينو». تبادلنا أحاديث وانطباعات عامة. ثم اقترح يزيد رضوان علينا الذهاب إلى شقته. كان القلق بادياً علينا جميعاً. ولا شك أن كل واحد منا قد ضغط على نفسه لكي يصمت أثناء الطريق. ومن ناحيتي كنت لا أريد أبداً أن ننهي ذلك اللقاء بأي نوع من الشجار. بل كنت راغباً أن نخرج من شقة يزيد ونحن يد واحدة. يد لا تلين ولا تضعف ولا ترتعش.

قاد يزيد سيارته المستأجرة وسط زحام لندن بخفة رائعة. وقد بدا لي أنه يعرف لندن أكثر من باريس. وبعد أن أوقفها في مستودع غير بعيد عن حديقة «الهايدبارك»، قادنا إلى شقته الصغيرة التي تقع في الطابق الثاني

من بناية ضخمة في أحد الشوارع الخلفية التي يفتح آخرها على «الهايدبارك» بنحو مائة متر. كان يزيد أكثرنا قلقاً. ولذلك فقد أسرع في إيصالنا إلى الصالون ثم غاب لحظات ليعود بقنينة ماء معدني، وثلاثة كؤوس، وقرآن. كنت أراقبه وكنت أفهمه لأني أنا نفسي أحسست بأن إيقاعي الداخلي يتسارع بالرغم من أنني لم أكن أعرف على وجه الدقة ما كان يدور في خاطري أو ما كان يجب أن أنطق به.

قال يزيد حين جلس أمامنا (أنا وأبو عمر): لنقرأ الفاتحة ونتعاهد على هذا القرآن بأننا لن نخرج من هنا إلا إذا اتفقنا على كل شيء.

قام أبو عمر ليغلق باب الصالون. وعندها فقط شعرت أن ظهري قد أصبح مؤمناً ـ تكلم يزيد، فقال:

- اخترت أن أتكلم قبلكما باعتباري صاحب البيت وليس لأي اعتبار آخر. ثم اتجه إليّ مضيفاً:
- شيخ عبد الرحمن، علمت من أبي عمر أن الرحلة إلى السودان كانت فاشلة. وأن الشباب هناك يشعرون بالملل والضياع وحتى بالعار. علمت أيضاً أنهم سلموا كارلوس إلى البوليس الفرنسي، بل هم طردوا مجاهدين آخرين بعد أن هددوهم بالتسليم إلى حكوماتهم. إننا لا نعرف ما إذا كان ذلك كله تهاوناً أو هو سياسة معتمدة في أعلى هرم السلطة. هذا أمر لم نقبله ولن نقبله. وقد بات يؤرقنا وضع الشباب. إنهم يقولون لنا أن الأمور بسيطة، وأن كارلوس لم يسلَّم، لكنه اختطف، وأن المجاهد أبو بكر لم يطرد، ولم يسلم إلى ليبيا وأن تومرت التونسي لم يطرد شرّ طردة، وأن المجاهد

خالد غير موجود في السجن، ولكنهم غادروا باختيارهم.. غير أن معلوماتنا الجديدة تفيد بأنهم سلموا أكثر من عشرة مجاهدين عرب إلى حكوماتهم في الفترة الأخيرة. لا أعرف من يقف وراء ذلك كله. لقد تحدثت مع شاهين في الموضوع مراراً لكنه كان يؤكد لي أنه سيعمل من أجل إيقاف المهزلة.. هل تدخّل؟ لا أعلم. هل فعل شيئاً؟. شاهين هو المسؤول المباشر عن إرسال الشباب إلى الخرطوم، لكني لا أعتقد أنه قادر على التواطؤ أو حتى على الصمت.

سكت يزيد قليلاً، فخيّم هدوء غريب وكثيف سمعت خلاله غرغرة في بطني. كان كل شيء هادئاً. حتى الشارع المزدحم لم يصلنا منه شيء. لم يتكلم أبو عمر وقد انتظرته أن يفعل ذلك قبلي، لكنه لم يخرج عن صمته إلا حين طلب منه يزيد أن يتكلم فقال:

ـ لقد تعبت كثيراً حتى أصل إلى هذا المكان. قبل نحو ثلاثة أشهر فقط لم أكن أحلم بأنني سأجد ذات يوم حريتي. لقد اعتقلت في المعسكر ذات ليلة ثم نقلوني إلى زنزانة بسجن أم درمان العسكري. تركوني هناك نحو ثلاثة أشهر. لفّقوا لي تهمة تافهة هي السخرية من الدكتور الترابي. والحقيقة أنني لما كنت طويلاً ونحيفاً وأسمر مثله، فقد أوحى لي بعض الأخوة أنني شبيهه الشخصي فقمت في بعض الأحيان بتقليد حركاته وابتسامته الماكرة إذ كنت أحفظ معظم خطبه. هذا كل شيء باختصار. كان مزاحاً خفيفاً من أجل التخفيف من وطأة الحر والملل، فإذا بذلك المزاح يكلفني ٣ أشهر في زنزانة ملأى

بالجرذان. والحقيقة أنني لم أكن أسخر من الترابي بقدر ما كنت أتشبّه به. تعرفون أن الأتباع يتشبهون بسيدهم ولكن حين يكون هؤلاء الأسياد هم أنفسهم أتباعاً، فإن ذلك يصبح كفراً.

وفي أحد الأيام أي بعد نحو ثلاثة أشهر، تمّ إبلاغي بأن «إقامتي» في الزنزانة قد انتهت، وأعادوني إلى المعسكر. أصبحت حذراً جداً وأميل إلى الصمت. لم أفقد الأمل حين كنت سجيناً، كما لم أفقد طريقي حين عدت إلى المعسكر ولا روح الدعابة. في تلك الأثناء كان الضابط المشرف على المعسكر قد تغيّر إذ حلّ أبو زكريا محل الضابط موسى أبو طه الذي كان غليظاً وفظاً. أصبحت صديقاً لأبي زكريا إذ علم أني كنت ضحية وشايات مؤذية.

كان أبو زكريا شخصية متناقضة تجمع بين القوة الواضحة والهشاشة الواضحة، وذلك التناقض هو الذي جذبني نحوه. كان يحب أن أقلد أمامه الترابي. امتنعت في البداية ثم فعلت ذلك أمامه مراراً فكنت أقتله من الضحك. كان يقول لي: «ذلك هو الماكر الكبير. ذاك هو بنفسه». ثم يغرق في الضحك إلى حد يصبح فيه عدوانياً مع نفسه. كان يضرب وجهه بقوة وهو يضحك. وكان ينتف شعر لحيته وهو يضحك. وبعد أن تذهب عنه تلك النوبة، يحذرني من فعل أي شيء من هذا القبيل أمام الآخرين. ومع الأيام اكتسبت صداقة أبي زكريا وثقته. وفي الوقت نفسه كنت أزداد قناعة

بأن وجودي في الخرطوم قد أصبح مضيعة للوقت. وفي أحد الأيام جاءني أبو زكريا ليعرض عليّ الذهاب إلى البوسنة وأوصاني أن يبقى الأمر سراً بيننا. كنت مستعداً للذهاب إلى البوسنة في جميع الحالات، وقد طلب ذلك رسمياً في تقرير رفعه أبو زكريا إلى مركز الاتصالات بالقيادة، ولم تردّ القيادة على طلبي لا سلباً ولا إيجاباً. ولكن عندما عزمت تلك القيادة على إرسال بعض المال إلى الجماعة في البوسنة، اقترح أبو زكريا أن أقوم أنا بهذه المهمة.. وها أنا هنا بينكم.

كنت لا أزال أضحك من خفة دم أبو عمر ومن سجيته وروحه المرحة، حين جاء دوري في الكلام. تحدثت باختصار وأنا أختار كلماتي بعناية. قلت:

- لا أنفي أنني تعلمت أشياء كثيرة هناك. لم تكن رحلتي كلها بؤساً. فهي كذلك درس فذ للنفس ورحلة لمعرفة الحقائق الأكثر غموضاً. لا بل لمعرفة الأكاذيب الأكثر إشعاعاً. ولولا أبو عمر الذي يعتبر الآن في الخرطوم كخائن ومنشقّ، ما كنت لآتي إلى هنا. لقد كلفوني بالاتصال بأبي عمر حتى أقنعه بإعادة المال أو تسليمه لأصحابه، غير أنني كنت أفكر في شيء واحد وهو أن أغادر ذلك المعسكر. ولو لم تهبط علي هذه الفرصة من السماء، لنظمت إضراب جوع أو عصياناً داخل المعسكر. الآن، ونحن هنا، علينا أن ننسى كل شيء ونبدأ من جديد. يجب ألا تجعلنا تجربة واحدة محبطين وبلا أهداف نبيلة.

تحولت جلستنا إلى اجتماع. كنا متشابهين في الاستنتاجات. وكنا جميعاً على قناعة أن السياسة قد أفسدت روح الجهاد، وأن المصالح لن تترك أية آمال للمجاهدين. وتكلم يزيد فقال ما كنت أفكر فيه تقريباً:

- الدولة هي التي تأكل الثورات. سنكون مخطئين منذ اليوم لو فكرنا للحظة في وضع أيدينا بأيدي أية دولة. منطق الدولة أن تتقاعد الثورة حالما تنهض الدولة. أضفت إلى كلامه فقلت:
- المنطق السليم يفرض علينا التحالف مع حركات شبيهة لنا في تطلعاتها. حركات ثورية، لا أجهزة بيروقراطية أو دوائر بوليس.

كان أبو عمر يبدي موافقة لنا بأدب.. فجأة قال:

- مبلغ المليون دولار، سأضعه في خدمة تأسيس أية حركة معادية جديدة. المهم ألا نصبح رهائن بين يدي الدول والبوليس العالمي.

أضاف يزيد يقول بحماسة:

- أنا أيضاً لديّ مبالغ كبيرة من المال سأضعها من أجل النهوض بالحركة الجهادية وتجديد الدم في عروقها. لم يكن لدي ما أقوله أو ما أضيفه إذ لم يكن بحوزتي أية مبالغ، مع ذلك أردت أن أكون صريحاً ومصمماً على فعل أي شيء لتجديد دم حركة الجهاد. فقلت:
- غداً ربما أصبح لديّ أموال. أعدكم بأن كل ما سأحصل عليه سأضعه في خدمة الإسلام.

لم يسألني لا يزيد ولا عمر متى وكيف سأحصل على الأموال إذ صغت

كلامي على نحو احتمالي في الزمن. «فغداً» كانت بالنسبة إليهما زمناً مفتوحاً. أما بالنسبة لي فكانت تعني غداً. أي بعد حوالى ١٦ ساعة من تلك اللحظة إذ كنت متأكداً أن الأميرة سمية ستجعلني أميراً على رأس منظمة جهادية عتيدة.

مضى الآن على اجتماعنا نحو الساعتين. اتفقنا أن نلتقي غداً في مثل هذا الوقت ثم نهض يزيد ليذهب إلى موعد كان يشغله منذ حوالى نصف ساعة إذ رأيته يراقب ساعته بين لحظة وأخرى. تركنا يزيد في شقته وقال لنا (أنا وأبو عمر):

ـ يمكنكما البقاء هنا. وهذه النسخة من المفتاح يمكنكما استعمالها حين لا أكون هنا. ثم خرج.

١٨

منذ تلك اللحظة (لحظة وجودي مع أبو عمر في شقة يزيد) كبرت في رأسي فكرة أن أصبح أميراً، مرشداً وقائداً للجهاد الإسلامي. هكذا تنبت شجرة الزعامة، أولاً في زاوية من الرأس ثم تزهر فتتدلى أغصانها في القلب والأحشاء. بعد ذلك يتخثر الدم ويصبح حامياً وعابقاً بالقوة والنرجسية ومعرفة غواية الآخرين. لم أكن أخشى الاعتزاز بالنفس ولا التحوّل إلى هاوٍ يلعب بمصائر البشر، ولا حتى الطرق الوعرة التي على الأمير أن يسير عليها في المقدمة. كنت لا أتوقع إلا النجاح بالرغم من أنني متشائم بطبعي. ثم كنت متأكداً أن المسألة لا تعدو أن تكون رحلة صيد لاختبار قيمة الحياة ومن ثم الاستمتاع بمعنى الموت. كان الصيد يستهويني منذ فترة كلعبة تجعل المرء في مهب الاحتمالات ولكنها تغذيه بالآمال. صيد كبير يجعله متذوقاً جيداً لما بعد الموت. كل ذلك كنت ألخصه في كلمة واحدة هي: أن الدين فتح لنا الحياة على الموت، وإن الجهاد فتح لنا الحياة على ما بعد الموت!.

ذلك هو ما كنت أفكر فيه حين كان أبو عمر يتصفّح إحدى المجلات العربية الصادرة في لندن. وهو الذي يجب أن أخفيه على الجميع. فطلب الزعامة يأتي عن طريق الزهد في البداية ويكبر مع الابتهال إلى الله ثم تأتي مرحلة الغواية. فالغواية هي أحد أركان الصيد. وفجأة أزاح أبو عمر المجلة عن عينية، فأزاح عني ذلك الغشاء الشفاف الذي كان يتراقص أمامي كما تتراقص الغزلان الفتية أمام الصياد. ثم قال:

ـ شيخ عبد الرحمن، لا بد أنك تفكر في شيء مهم. هذا صمت استدلالي عند أهل الحكمة.

ـ لا. ولكن تجول في خاطري فكرة لا أعرف إن كنت توافقني عليها.

سألني أبو عمر بحذر وهو يخفي لهفته لمعرفة ما سأقول:

ـ ما هي هذه الفكرة؟ لا تقل لي إنك تفكر في تأسيس حزب جديد؟

ـ لقد نطقتها بنفسك يا أبا عمر. هل كنت تقرأ أفكاري أم كنت تقرأ المجلة؟!

ـ هذا واضح. فأنت منذ كنت في الخرطوم كان واضحاً أنك مهموم بهذه المهمة. ألا تذكر ما قلته لي آخر مرة؟ لقد قلت لي إنك تبحث عن المال والرجال. ثم قل يا شيخ ماذا يمكنك فعله؟. لا أعتقد أنك تفكر في تأسيس حزب يتكوّن من ثلاثة أو أربعة أشخاص زائد جهاز كومبيوتر وطباعة وفاكس.

ـ سنؤسس حركة جديدة ذات مذاق جديد. لن نجعل الناس ييأسون منا ويكرهوننا كما لو أننا طاعون. ولكن قبل ذلك

كله لا بد من الرجال والأموال. كررت ذلك مرات عدة إلى حد بدوت فيه كأنني مهووس بالمال وشكاك في الرجال. ولكن أبا عمر شجعني قائلاً:

- لا أنت ولا أنا ولا يزيد مستعدون لإعادة إنتاج التخلف. أنت تعرف أن المشاهد للحركات الجهادية يتّسم بالإحباط وكذلك بالانحطاط.

وافقته على ذلك ثم أضفت:

- الحركات الجهادية إما هي حركات بلا برامج أو هي برامج بلا حركات نشطة. أخاف أن يكون كل شيء مثل موجة عارمة تمضي بعيداً لتتكسر على الرمال والصخور. أخاف أن يكون وجع الإسلام يشبه صيحة الديك المذبوح.
- لا.. أبداً يجب ألا نترك مكاناً للخوف أو التشاؤم في قلوبنا.

قال أبو عمر، فبدا لي وكأنه يخفي خوفه من الفشل أكثر مما يكشف عن حماسة متزايدة ومتّقدة. أعرف ذلك النوع من الكلام. أسمعه كثيراً حتى من عامة الناس. إنه شكل من المحاباة القبيحة التي تخفي إحساساً بالخطر أو العجز. ولكن لا يهم ما دام ذلك يقال من أجل إظهار النوايا الطيبة. هكذا فكّرت ثم قلت شيئاً آخر مختلفاً:

- مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة. نحن تقدمنا عشرات الخطوات على هذا الطريق، وليس أمامنا إلا أن نواصل.
- ولكن على أي طريق؟ تلك هي المسألة يا شيخ عبدالرحمن.
- على الطريق نفسه. فقط يجب أن نكون أصحاب حاسة

> تاريخية. تلك الحاسة التي ذبلت وتدهورت لدى المجاهدين لخلطهم يين الخرافة والحقيقة أو بين البربرية والمدنية أو يين القيم والقوة. لقد حصل بعض التراكم للحركة الجهادية، وإذا كنا لا نمتلك تلك الحاسة التاريخية، فإننا لن نشكّل أبداً تلك القفزة التي ستدفعنا خارج ذلك الخلط اللعين والهجين. إنني أحسّ أن للحضارات متاهات، والحضارة الإسلامية هي اليوم في المتاهة، لأنها لم تكتمل حين كانت عروقها نابضة. لقد تعارضت مع حضارات أخرى فدفعتها إلى المتاهة، إلى العمى الكامل، إلى الظلام. ولكن هذا ليس قدراً نهائياً، فساعة الانقضاض لا بد أن تأتي.

امتد النقاش بيني وبين أبي عمر إلى حوالى منتصف الليل. لا أعتقد أن أحدنا أضاف للآخر كمية هائلة من الإيمان. كلانا كنا ممتلئين به إلى حد الإشباع. ولكن أعتقد أننا كاشفنا أنفسنا بما يعتمل في داخلنا، وأننا عقدنا العزم على السير معاً.. ثم اتفقنا أن نفاتح يزيد رضوان في كل ذلك في الاجتماع المقبل، أي في الغد.

تركت أبا عمر في شقة يزيد، ونزلت إلى الشارع لأستقل تاكسي يوصلني إلى فندق «غاردن سكاي». أعجبني اسم الفندق منذ الوهلة الأولى، ولكن إعجابي به ازداد حين بدأت أفكر في اسم لحزبنا الجديد. ثم خطر ببالي أن ذلك الاسم يمكن أن نطلقه على حزبنا، فهو جميل ورنان وفاتن وواعد وحامل لمعاني كثيرة. فـ«غاردن سكاي» هو ما يعني في العربية بـ «حديقة السماء»، أي الجنة. وبما أن مهمتنا تقع بين الجنة والجنة فلماذا لا يكون حزبنا الجديد حاملاً لهذه التسمية؟ فالشهداء

سيذهبون إلى الجنة، والمنتصرون عليهم أن يصنعوا جنة على الأرض شبيهة بجنان السماء.

حين دخلت إلى الفراش، تذكرت أنني بعد خمسة أيام فقط، سأبلغ السابعة والثلاثين من عمري. ثم لا أدري كيف لاح في خاطري فجأة خيال إيزابيل، زوجتي الأولى وإلى جانبها الأميرة سمية. أكثر من خمس سنوات قد مضت الآن على طلاقي من إيزابيل، وخلال تلك المدة لا أذكر أنني هاتفتها أكثر من ثلاث مرات. لقد انتهى الزواج، لكن الصداقة استمرت. بل أعتقد أن هناك أكثر من الصداقة بيني وبين إيزابيل. لعلها تلك الغشاوة الشفافة التي تجعلنا قريبين وبعيدين في الوقت نفسه. هي نفسها الغشاوة الناعمة التي تجعلني الآن قريباً وبعيداً من الأميرة سمية. بل هي نفسها الغشاوة الرقيقة التي تجعلني أتأرجح على قلاع المجد العالية.

فغداً سأذهب إلى الأميرة سمية وأفاتحها بلا مواربة في موضوع تأسيس الحزب وحاجتي إلى المال. بعد ذلك سنلتقي أنا وأبو عمر ويزيد لنضع خطة للتأسيس وأخرى لتقسيم المهام. ولا شك أنني حين أكون في شقة يزيد غداً سأكون مجتمعاً مع الرجال وحاملاً للمال وكذلك لاسم الحزب الجديد. إن تسمية «حدائق السماء» لحزب سياسي وجهادي لا بد أنها ستثير جدلاً لا ينتهي حتى بين الجهاديين أنفسهم، وخصوصاً أولئك الذين يرقدون في التقليد والخرافات أو قيعان الآبار العميقة والآسنة.

١٩

ما أرويه الآن حدث معي بعد منتصف نهار يوم سبت من شهر حزيران/ يونيو بعد العام ١٩٩٦.

أكاد أكون متأكداً من يوم السبت بالرغم من أنني لست متأكداً من العام. هذا لا يحدث إلا في حالات قليلة. فحين يرتسم اليوم في الذاكرة ويمّحي العام، فلأننا كنا مأخوذين بما حدث فعلاً كوقائع ولم نكن مأخوذين بالتاريخ! ورغم أن ما حدث معي يمكن أن يسجل في دفتر التاريخ، إلا أن من يكتب التاريخ عادة ما يقلّب الوقائع جيداً لكي يعرف الأسرار. وباختصار، فإن ما أرويه الآن هو سر شخصي، سر لا يعرفه أحد غيري أنا والأميرة سمية. سر ما كان لي أن أبوح حتى لأقرب الناس إليّ حتى لا أضيع حياتي راكضاً وراءه.

وجدت الأميرة في انتظاري لكي نتناول الغداء معاً. أعتقد أنها أرادت أن تكرم معدتي لينطلق لساني من عقاله. لا أعرف ما إذا فكرت بأن المعدة هي الطريق الصحيح إلى القلب! أحضرت للافطيمة أطباقاً شهية، هي خليط بين المطبخ المغربي والمطبخين الخليجي والشامي. كان هناك

«شوربة» الحريرة ومحشيات البطاطس وسلطة «الفتوش» وكبسة الأرز ثم طاجين دجاج بالكاري. كنت جائعاً ولكن ليس إلى ذلك الحد الذي يجعلني أنسى قواعد الضيافة وآداب الأمراء. وأظن الآن أن الأميرة هي التي فتحت شهيتي على الأكل، أكثر من الجوع حين قالت لي:

ـ الأكل لا يحب الانتظار يا شيخ عبدالرحمن. هيا، هل تريدني أن أساعدك؟ بعد ذلك مدت يدها إلى صحني لتسكب لي من شوربة الحريرة. رأيت في ذلك حركة نبيلة من جانبها فسّرتها فيما بعد على أنها دعوة لتهديم جدار الخجل الذي كان لا يزال منتصباً بيننا. سألتها وأنا أتذوق شوربة الحريرة:

ـ هل تطبخين أحياناً يا سمو الأميرة؟

ـ نعم، أحياناً. ولكن حين أكون في المطبخ يصبح اسمي سمية فقط وليس سمو الأميرة.

ـ عفواً، لا يمكنني أن أتجرأ على نطق اسمك مجرداً من لقبه.

ـ ولكن إذا سمحت لك بذلك فماذا تقول؟!

ـ سأقول.. أريد أن أسمع عبدالرحمن من فمك من دون أن تخرج مسبوقة بـ «شيخ».

ـ إذا كان هذا كل ما تريده فسأفعله في الحال. قل لي يا عبدالرحمن فيمَ كنت تفكر وأنت قادم لتراني؟

لم أسألها ما إذا كانت تقصد بالمرة الأولى، أي البارحة أو اليوم. كنت منتشياً فقط بسماع اسمي على لسانها. كان نطقها لاسمي رائعاً وإيقاعياً، ولا شك أنها تدربت على نطقه بتلك النبرة الإيقاعية الرائعة، بذلك الغنج الأميري. ولما تباطأت في الإجابة عادت فسألتني:

- عبدالرحمن، هل كنت تتوقع أن ترى أميرة منشرحة ومتحرّرة مثل رمانة ناضجة ومتشققة إلى حد ما، أم أميرة منغلقة وصلبة مثل حبة جوز؟
- لا أعرف. ربما لم أفكر في هذا قط. (في الحقيقة كنت أكذب إذ إن الصورة النمطية للأميرة العربية هي أن تكون منغلقة من الخارج ومتهتكة من الداخل، مثل بطيخة حمراء فاسدة).
- وحين رأيتني أمس، ماذا كان انطباعك عني؟
- لم أتمكن من نسج صورة معينة عنك (هنا أيضاً كنت أكذب، إذ حملت طيفاً معي إلى الفندق، إلى حد أنني استمنيت عليه في الحلم وأنا مستلق على الأريكة).
- والآن، كيف تراني يا عبد الرحمن؟!

فهمت من إلحاحها المدبج بالغنج والدلال، إذ كانت تتلذّذ بنطق اسمي وتجعلني أتلذذ بسماعه في كل مرة، أنها كانت تجرني جراً إلى الخروج من حالة الخجل المحبط للرغبات المتأججة. وخفت أن تجفل أو تشعر بالإحباط فقررت (قرار الخجول الذي عادة ما يأتي متعثراً) أن أجيبها. وعندها قلت لها:

- عبدالرحمن يطمح أن يراك دائماً مبتهجة. لقد رأيتك أمس واليوم مبتهجة ومتألقة (لم أقل سمو الأميرة ولم أقل سمية).

ابتسمت وكأنها تفتح لي باباً آخر من أبوابها. ثم قالت:

- أحياناً يا عبد الرحمن لا تجد الأميرة من يشاركها الحديث. حتى عندما أريد أن أصبح سمية فقط، لا يصدقني الآخرون. فهم دائماً يخاطبون الأميرة ولا يخاطبون سمية.

أحسست أن آلامها ليست قليلة، فقلت وكأني أهدئ من وجعها:

ـ لا، لا يا سمية. لا تقولي هذا.

ـ لا أريد أن تشفق عليّ. لا أريد أن أسمع «سميّة» من منطقة الرحمة التي بداخلك، أريد أن أسمعها من مناطق الخصوبة التي تشتهيها النساء.

هدأت لحظة ثم عادت لتقول بوجع لذيذ:

ـ هل تعرف يا عبد الرحمن، أن الأميرات يشبهن الأراضي البور، التي تحتاج تكوراتها وتشققاتها إلى خصوبة؟ الرجال هم ماء الحياة. الرجال هم الذين يخدمون الأراضي المهملة.

ـ هؤلاء الرجال لا بدّ أن يكونوا من الفلاحين المهرة.

ضحكت الأميرة فضحكت معها وعلى إيقاع ضحكتها. لم أتركها تسمع ضحكتها، كذلك جعلتها لا تستمتع بضحكتي.

عادت لتكلمني بتأثر واضح، وهي تمسح زاوية فمها اليمنى بطرف المنديل على نحو خفيف:

ـ أنت يا عبد الرحمن لم تأكل إلا قليلاً. ألم يعجبك الأكل؟

ـ أكلت كثيراً. أنت لم تلاحظي ذلك.. إني آكل بسرعة.

في تلك اللحظة رأيتها تناولني تفاحة فامتدت يدها نحوي كما لو أنها تريد أن تلمس يدي. تركتها ممدودة قليلاً ثم نظرت في عينيها فلاحظت ارتعاشة، كما لو أنها كانت تخاف أن أترك يدها ممدودة أكثر مما يجب، أو كما لو أنها حققت شيئاً طال انتظاره. وحين هممت بتناول التفاحة سحبت يدها وهي تقول:

ـ هل تريدني أن أقشرها لك؟

ـ لا، معذرة، لا آكل التفاح إلا إذا كان غير مقشّر. ثم إني

أحب أن أعضّه بأسناني، لا أقطعه بالسكين.

رأيتها في غاية من الانتباه الملبّد بالرغبة في كلماتي، فأضفت أقول:

ــ التفاح لا يؤكل مقشراً. إنه ليس رمّاناً.

بعد ذلك تناولت التفاحة التي لا تزال بيدها، ثم قضمتها بقوة. آنذاك فقط رأيتها ترفع عينيها إلى الأعلى. لا شك أنها وجدت صعوبة في إخفاء تلك المشاعر غير المنتظرة. لست على يقين أنها وقعت تحت الإحساس بالتلاشي ولكني على يقين أنها وقعت تحت إحساسي القوي بالهيمنة. في تلك الأثناء جاءت الخادمة للافطيمة ومعها الخادمة الآسيوية. وفيما تقدمت الأميرة إلى جناحها لتغتسل، قادتني الخادمة الآسيوية إلى الحمام الملاصق للصالون لأفعل الشيء نفسه.

وهناك في الصالون الصغير، حيث تناولنا الشاي المنعنع على الطريقة المغربية، ارتفعت درجة الألفة بيننا فبدت وكأنها قديمة وقوية. تحدثت إليها بطلاقة حتى كدت أخرق كل قاعدة يلتزم بها أي كائن بشري يجد نفسه في مثل وضعي يخاف أن تفسّر تصرفاته على نحو مشين. قلت لها:

ــ إن الاجحافات التي يتعرض الإنسان في حياته كثيرة لا تعد ولا تحصى، ولكن المفارقة أنه لا يتعلم شيئاً من تلك الاختبارات المجحفة. أو بالأحرى حين يبدأ في التعلم يجد نفسه قد اقترب من الموت. ثم قلت لها وهي صامتة تتأملني متسائلة في قرارة نفسها عما يجعلني أقول مثل هذا الكلام: «إن حقيقة كل إنسان ليست إلاّ نتاج ما تهدّم وما أعيد بناؤه» كما يقول أحد الفلاسفة. هنا سألتني الأميرة:

ــ عبدالرحمن، قل لي، هل لديك صرح تريد أن تعيد تشييده؟

ـ ما من أحد قادر على بناء صرح لوحده يا سمية. حتى البيت الذي قد أسكن فيه لوحدي يحتاج إلى أكثر من رجل ليُبنى. كل بيت يا سميّة يُعرف من حمل حجارته ومن رفع أعمدته. بعبارة أخرى كل صرح يحمل بداخله أسطورة.

ـ أسطورة أم حقيقة يا عبدالرحمن؟

ـ الحقيقة حين تتعاظم تصبح أسطورة يا سمية. أسطورة خالدة. الحقائق صغيرة. صغيرة جداً. مثل ذواتنا، مثل وجودنا وزوالنا. في الأسطورة نتعلم كيف لا نموت مع الزمن. أما في الحقيقة فنجد موتنا بأسرع ما يمكن. بعد ذلك ضربت لها مثلاً فقلت التالي:

ـ أنت الآن كلحم ودم، ككائن بشري، قوي أو ضعيف، لا يغيّر من الأمر شيئاً، حقيقة. ولكن غداً، حين لا تكونين موجودة ككائن بشري، تصبحين أسطورة تُقدّم لها التبركات وحتى الأضاحي.

ـ وما الذي يجعل من كائن بشري أسطورة؟ هكذا سألتني الأميرة وكأنها تلميذة تتهجّى درسها الأول في الفلسفة. فلم أجد على طرف لساني أحسن مما قلته لها:

ـ كل واحد يصنع أسطورته بنفسه.

ـ لم أفهمك يا عبد الرحمن.

ـ ستفهمني مولاتي الأميرة غداً إن شاء الله.

أحسست أني تركت لديها عطشاً مزدوجاً. عطشاً معرفياً وآخر جسدياً. ورغم إحساسي بأنها ستتعذّب، فقد قررّت أن أغادر لأذهب إلى موعدي مع يزيد وأبي عمر.

٢٠

وصلت إلى شقة يزيد رضوان بلا عناء. ركبت المترو باتجاه واحد، أي باتجاه «الهايد بارك»، وفي المحطة الثالثة نزلت ثم تمشيت نحو مئتي متر لأجد نفسي أمام العمارة رقم ٧٩ في شارع «نيوأورليانز» الضيق والطويل جداً.

كنت قد تركت الأميرة سمية تتعذب وتتلوّى على نارين. تركتها هائمة وعطشى وغير متماسكة روحياً. كان ذلك ضرورياً لكي أجعلها أكثر لهفة واستسلاماً. أعرف أن الإنسان النبيل الذي أحب أن أكون، يكره الغرور، ولكن حين يتصادم نبيلان في المشاعر أو يتشابكان، على أحدهما أن يخرج كمية الغرور التي خبأها في الأعماق وعلى الآخر أن يجهد نفسه في إنكاره. وأعتقد هنا أن الذي يشهر غروره هو الذي سيفوز في معركة المشاعر. فنبيلٌ غير مغرور أمام النساء هو نبيل جاحد لنبله أو فاقد له في الأصل. باختصار، ليس الغرور منافياً للذوق أو لعزة النفس، إذا كان سلاحاً من أجل القيمة أو رد الاعتبار. أما إذا كان من أجل أشياء أخرى تافهة، فهو صلف أو وضاعة.

كنت على وشك أن أنقر باب شقة يزيد، حين أبعدت عن خاطري الأميرة سمية.. وعن طريق حدسي الذي قلما يخطئ، كنت شبه متأكد أن أبا عمر هو الذي سيفتح لي الباب. وها أني أسمعه يقول:

- أخيراً وصل الشيخ.

سلّمت عليه بالأحضان ثم لمحت يزيد جالساً مع اثنين من الشباب في صالون الشقة الذي يكشف عنه الباب مباشرة. تقدمت أنا وأبو عمر، فقام جميعهم لتحيتي. قال يزيد:

- كنا نتحدث عنك قبل قليل. لن تموت إلا بعد عمر طويل يا شيخ عبدالرحمن.

بعد ذلك تولى بنفسه تقديم الشابين اللذين عادا إلى مقاعدهما، فقال:

- هذا أبو خليل من الإمارات، وبالتحديد من الشارقة. وهذا أخونا أبو الطيب من ليبيا، من بلاد القذافي.

مازحت أبا الطيب إذ رأيته يبتسم فقلت له: القذافي اختار لنا اسماً جديداً هو الزنادقة. إذن أنت زنديق ليبي.

ثم توجّهت بحديثي للجميع، فأضفت أقول بقصد المزاح:

- نحن اثنان من المغرب، اثنان من الجزيرة العربية، وواحد من مصر. فأين هم إذن أهل الشام وبغداد؟.

- الشامي شامي والبغدادي بغدادي. لو حضر الاثنان، فإنهما سيجعلان من هذا الاجتماع مأدبة شتائم. أما لو حضر أحدهما، سواء كان شامياً، أو بغدادياً، فإننا سنسكن في قعر قنينة إلى صباح يوم غد. هكذا أجابني يزيد على نحو جدي وكالح. ثم أضاف:

ـ الآن يمكننا أن نبدأ اجتماعنا. هل أنتم موافقون.

ـ على بركة الله يا يزيد. نطقها كل واحد منا على طريقته، ولكن الألسن تلاقت في فضاء الغرفة، فعرفت أن الأفئدة كذلك.

تكلم يزيد في البداية، فصاغ ديباجة معقولة إذ قال:

ـ يعيش الإسلام تحولات عميقة. أقصد الإسلام المقاوم، الإسلام العابر للحدود، الإسلام المجاهد. لا يمكننا أن نفصل تلك التحولات التي يعيشها الإسلام عن التحولات العميقة التي تهز العالم، والتي ستكشف عن أسرارها لاحقاً وبسرعة قد لا نتوقعها اليوم. وللوهلة الأولى يمكنني أن أستنتج التالي: أن هناك نزعتان تسودان عالم اليوم، كل منهما تريد أن تخلق عالماً جديداً. الأولى نزعة الغرب المسلحة بالكفر واللامبالاة والخوف. ثم نزعة الإسلاميين المسلحة بالتسامح والغفران والعدالة والقيم الإنسانية. لسنا هواة حرب، لسنا فاتحين جدداً. ولكننا نريد أن نكون حاملي قيم وزارعي عدالة وعابدين لله عز وجل وفقط.

إخوتي الأفاضل، أدعوكم إلى التأمل والتأكد. التأمل في شؤون المسلمين وأوضاعهم الموضوعية والتأكد من قدراتهم وقدراتنا الذاتية. إننا لن نفعل أي شيء نافع للإسلام إلا إذا كنا فعلاً ناكرين للخبث والجبن وحاضنين للقيم ومنصاعين لله وخادمين لأمتنا الإسلامية وجميع معذبي الأرض.

بعد ذلك طلب يزيد أن يوافقه كل الأخوة على أن أرأس الاجتماع. قال:

- أريدكم أن تمنحوا للشيخ عبدالرحمن شرف رئاسة هذا الاجتماع.

ودون أن يطلب أحد رأيي، وافق الجميع على ذلك، قائلين بصوت واحد: «على بركة الله». رأيت في ذلك مبايعة جماعية. وحثّتني حماستهم على أن أجعلهم أكثر استعداداً وتضحية. قلت لهم:

- إن إيماننا ليس هو ذلك الإيمان الخنوع أو الطيب. إن التضحية هي عنوان ورمز الإيمان. وجداننا مليء وعامر بإيمان متخمّر، ولكن نريد أن نجعل أرضنا كذلك مليئة وعامرة بذلك النوع من الإيمان. فلا المسيحيون ولا المسلمون قد جدّدوا إيمانهم طوال هذه العصور التي خلت. لقد تمادوا جميعاً في تجاهل بعضهم تخلفاً وانغلاقاً. سأفاجئكم لو قلت لكم إن اليهود هم وحدهم الذين جددوا إيمانهم، مرة عن طريق تمجيد «عبادة الذات اليهودية» وأخرى عن طريق تمجيد «عبادة مبدأ الضحية». ربما وجدنا تفسيرات عديدة لليهودية المتجددة. ولكن هل تعرفون أهم تفسير لذلك؟ إنه باعتقادي قدرتهم على بناء كيانين روحيين وماديين في الوقت نفسه. الأول ذلك الانتشار المأهول في العالم عن طريق نسج شبكات من المصالح واللوبيات، والثاني ذلك الكيان الذي اسمه إسرائيل. وباعتقادي أيضاً أن المسلمين لو أرادوا تجديد كيانهم، فإن ذلك لن يتم إلاّ إذا اتجهوا إلى إعادة بناء دار خلافتهم. إن مهمتنا هي إعادة تشييد ذلك الصرح الذي هدم. ومن أجل ذلك علينا أن نتوكل على الله وعلى قدراتنا. إن طريقنا وعرة

ومتعرجة وقد يطول عليها السير، لكن علينا أن لا نغفل للحظة واحدة أننا لا نفعل شيئاً سوى إعادة فتحها. لقد قام رجال عظام في الماضي بفتحها إلى آخر الدنيا.. ولا بد أن يقوم رجال آخرون بإعادة فتحها. هناك من يجد الطريق أمامه مفتوحة فيسير عليها. وهناك من يفتح طريقاً جديدة ليسير عليها، وهناك من يتجه إلى إعادة فتح الطريق التي فتحها أجداده، لأنها طريق الصواب والحق وهذه هي مهمتنا الإنقاذية.

بعد تلك الديباجة الحماسية فتحت الباب لمناقشة جدول الأعمال فقلت: أدعوكم الآن إلى مناقشة جدول الأعمال. وهذا الجدول يتضمن ثلاث نقاط هي: تأسيس منظمة جهادية جديدة، وتوزيع المهام فيما بيننا، ثم انتخاب أمير لقيادة هذه المنظمة.

الآن وأنا أعود بذاكرتي إلى ذلك الاجتماع بعد سنتين، أجد من المناسب أن أقول إنه كان «ديموقراطياً» أي «شورياً» بلغتنا نحن. ناقشنا طويلاً كل صغيرة وكبيرة. اختلفنا في بعض القناعات والترتيبات، لكن حرصنا على الخروج بنتيجة كان أقوى من كل خلاف. اقترحت عليهم أن يكون اسم منظمتنا «حدائق السماء» فوجدوه مثيراً ومحبباً للنفس كما قال يزيد. وشكلنا مجلس شورى مفتوحاً. وقد رأينا أن يبقى مفتوحاً أمام الأعضاء الجدد من أصحاب الكفاءات. ثم رأينا أن نشكل ما أسميناه فيما بعد بالقيادة التاريخية وهي تتشكّل من الأعضاء المؤسسين الذين هم نحن الخمسة. ثم رأوا أن يبايعوني بالإجماع أميراً على «حدائق السماء» وذلك بناءً على اقتراح من أبي عمر، أما يزيد، فقد اختار لي لقباً جديداً، إذ قال:

ـ سندعوك منذ الآن بالأمير «أبو يحيى الأنصاري» يا عبدالرحمن، لأنك أحييت فينا إيماناً كان ساكناً.

وأضاف أبو خليل:

ـ أنت أمير «حدائق السماء». ونحن أركان إمارتك على هذه الأرض يا أبا يحيى.

وقبل أن نفضّ الاجتماع وزّعنا المهام كالتالي: أبو يحيى أميراً ومرشداً وصاحب بيت مال المسلمين. يزيد رضوان مساعداً للأمير، مكلفاً بالتجنيد والدعوة. أبو عمر مساعداً للأمير مكلفاً بالتنظيم والأمن. أبو خليل وأبو الطيب مساعدين للأمير مكلفين بالسلاح وغرفة العمليات. اتفقنا كذلك على أن تتكوّن منظمتنا من خلايا منفصلة. كل خلية تتكوّن من ٥ أشخاص فقط تسمّى: «العين»، تحتفظ كل واحدة بأسرارها واتصالاتها. وكل خمس عيون تشكّل وادياً. وكل خمسة وديان تشكّل رافداً. ومجموعة الروافد كلها تلتقي عند السد الكبير لتغذية الحدائق بالماء. وهذا السد تتحكّم فيه القيادة التاريخية. بعد ذلك أقسمنا على القرآن الكريم دون أن نحدد موعد الاجتماع المقبل. فمهمة تحديد مواعيد الاجتماعات هي من مهمات الأمير. والأمير الذي سأكونه منذ تلك اللحظة لا بد أن يكون قوي الإرادة. لا بل عليه أن يكون عارفاً بلذة الاستبداد. وإلا فإن لا أحد سيسمعه حين يتكلم.

٢١

ها أن الإحباط قد بدأ يتسلل إلى قلب إيزابيل. فهي منذ أن جاءت إلى ألبانيا، وكان ذلك منذ نحو أسبوعين، لم ترسل أية تقارير مهمة إلى صحيفتها. كتبت في دفتر ملاحظاتها عشية يوم خميس وصفته بـ «الأغبر» وكانت جالسة في مقهى صغير يفتح على جادة الشعب في تيرانا ذات الروح القروية التي تحاول اللحاق بعالم المُدن عن طريق العشوائية: «كنت شبه ضائعة. لم أجد ما كنت أبحث عنه. بل لم أكن أعرف ما هو الشيء الذي كنت أبحث عنه. أعرف أنني أبحث عن سبق صحافي، عن خبطة تهزّ مبنى الصحيفة ثم مبنى الخارجية الفرنسية، ولكن لم أكن أعرف أين يوجد ذلك السبق؟ لقد مضى على وجودي وأنا أنتقل بين تيرانا ومقدونيا نحو أسبوعين. التقيت بصحافيين من كل بلاد العالم. كانت المنافسة تطحننا جميعاً، وكذلك الانتظار. كنا نعرف أن الحرب لا بد منها، وهي لم تعد سوى مسألة وقت. ولكننا لم نكن نثق لا في التهديد الأميركي ولا في التفاهم الأوروبي ولا حتى في التصميم الصربي. كان كل واحد ينتظر

الآخر. بل كان كل طرف يلعب بأعصاب الطرف الآخر، وهو يعض على أصابعه. أما نحن الصحافيين فكنا ننتظر الجميع ونحن نتراهن. أغلبنا كان يراهن على أن الحرب حتى لو اندلعت فإنها لن تستغرق أكثر من يومين. بعضنا كان يراهن على أن الروس لم يعد بوسعهم أن يرسلوا جندياً واحداً خارج بلادهم بعد الدرس الأفغاني. هكذا حين يصبح الصحافي متسكعاً في انتظار شيء ما قد يحدث وقد لا يحدث، إما أن يتحوّل إلى كاتب روايات أو إلى باحث عن قصة حب يتسلّى بها.

بعد ثلاثة أيام فقط من وصولي إلى ألبانيا، كتبت تقريري الأول وكان عن العاصمة تيرانا ما بعد الشيوعية. لم أزرها حين كانت تحت الحكم الشيوعي. ولكنها بدت لي أنها لم تخرج بعد من ذلك الكابوس. كان الناس يتنفسون الصعداء، ولكن أجواء الحروب في يوغسلافيا وصراعات القبائل والأقاليم في الداخل قد أدخلتها في دوامة من العنف حتى بدا لي أنها خرجت من محنة الشيوعية لتدخل إلى محنة الرأسمالية! كان أهم شيء في ذلك التقرير هو تركيزي على تلك البانوراما من المافيات المندمجة فيما بينها والمتعاونة مع بعضها وهي تجمع القوادين ورجال البنوك والسكارى وسراق الأحذية الإيطالية والشحاذين والعازفين المتجولين وسائسي الدببة، والشطار الإيطاليين مهربي اللاجئين عبر الأدرياتيكي.

بعد ذلك أرسلت تقريراً آخر عن تدفق اللاجئين على ألبانيا من كل حدب. فالبلد الذي كان أكثر انغلاقاً وأشد حراسة لمدة نصف قرن، قد أصبح خلال بضع سنوات البلد الأكثر تسيباً. كانت جميع أبوابه مشرّعة. لم يأتِ اللاجئون من يوغسلافيا فقط، بل جاءوا من كل مكان:

من تركيا، من العراق، بل وحتى من بلدان المغرب العربي، وذلك للعبور إلى الجنة الأوروبية. قلت في ذلك المقال، إن الأوروبيين الذين جاهدوا طويلاً لكي تفتح ألبانيا أبوابها، سوف يجاهدون لزمن أطول من أجل أن تغلق ألبانيا أبوابها! فقد تحوّل إلى أكبر محطة ترانزيت لعبور لاجئي الجنوب.

المقال الثالث الذي أرسلته إلى الصحيفة في الأسبوع الثاني، كان حول مأساة الغجر. لقد لمست هناك بنفسي ما يمكن أن يسمّى بـ «الفضيحة الأوروبية». كانوا مطرودين من كوسوفو ومقدونيا وصربيا وهنغاريا. ثم كانوا منبوذين في ألبانيا إلى حد اللعنة. إنهم تائهون لا يعرفون أين يذهبون وإلى أين يجب أن يعودوا أو يتوجهوا! جماعات كانوا يخترقون العاصمة تيرانا وهم شبه سكارى. كانوا فعلاً يجسدون اليأس والدمار الروحي والمادي. وقد كتبت ما معناه: «إن هؤلاء سيطالبون ذات يوم الأوروبيين بإبداء الغفران وطلب الصفح منهم، لأنهم قد أمعنوا في إذلالهم واحتقارهم. كانوا يجرّون أقدامهم جراً وهي حافية ومدماة على الإسفلت في عز الشتاء. نائمون على الأرصفة وفي مداخل البنايات. وفي ورش البناء». كل تلك المقالات لم تثر انتباه رئيس التحرير السيد أندريه لوغار.. أما المقال الذي أثار شهيته وجعله يتحدث معي على الهاتف فهو ذلك الذي كتبته عن جيش تحرير الكوسوفو وعلاقاته بشبكات الجهاد الإسلامي. قال لي السيد لوغار بامتنان كبير:

- لقد نشرنا مقالك في عدد اليوم عن جيش تحرير الكوسوفو. لقد اهتم الجميع به. وإذا كان بإمكانك أن تدعمي ذلك المقال بلقاء صحافي مع أحد قادته، فلا تتأخري. ركّزي على

هذا الموضوع. وخاصة موضوع الشبكات الإسلامية.

شكرته على اهتمامه واتصاله بي، لكن أندريه لوغار عاجلني بسؤال طائش وغامض:

ـ هل تتوقعين شيئاً مثيراً خلال الـ ٢٤ ساعة القادمة.

لم أجبه عن سؤاله بأية صيغة، ولكن قلت له:

ـ ربما انتقلت إلى منطقة الحدود غداً.

ـ هل هناك شيء مهم؟.

ـ ربما.

ـ هل أترك الصفحة الأولى مفتوحة إلى آخر لحظة.

ـ سأعرف ذلك غداً عند منتصف النهار. وآنذاك سأتصل بكم.

ودّعني رئيس التحرير بحرارة. وقد لمست أنه أصبح بوسعه الآن أن يتفاخر بتقاريري كما يفعل عادة. فهو الذي أرسلني إلى هنا مراهناً على نجاحاتي السابقة وقدرتي على اختراق ما هو مكرّر على صدر الصحف الفرنسية الأخرى. أما الآن فقد أحسست أن مهمتي تضاعفت وأصبحت أكثر صعوبة إذا وضعت نفسي تحت المجهر أو قيد الاختبار. كان أول شيء فعلته بعد تلك المكالمة الهاتفية هو أن اتصلت بالشاب «ربيع» الذي تعرفت إليه في بهو فندق «تيرانا» الذي كنت أقيم فيه. لقد سمعت ربيع يتكلم بالعربية مع صديق له، إذ كنت أعرف بعض الكلمات العربية من خلال زوجي السابق عبدالرحمن، كان ربيع يدس بعض الكلمات الفرنسية بين تعابيره، فأدركت أنه يتقن الفرنسية. قلت من المؤكد أن هذين الشابين ليسا ألبانيين. ثمة ألبان يتكلمون الفرنسية، ولكن ليس من المعقول أن تكون العربية والألبانية متشابهتين إلى هذا الحد. باختصار، لقد

بذلت كل جهودي من أجل أن أتعرف إلى ربيع بعدما غادره صديقه، وتركه جالساً لوحده في الكافتيريا. اكتشف ربيع بسرعة أنني أحوم من حول طاولته، فكان أكثر جرأة مني حين قال لي:

ـ هل تبحثين عن شيء أستطيع أن أدلّك عليه؟.

لم أرتبك كما يحدث لي عادة إذ كنت أبحث فعلاً عن فرصة للكلام معه. وحين هممت بالكلام دعاني إلى الجلوس. خلال ساعة رسم ربيع الخطوط العريضة للسبق الصحافي الذي كنت أبحث عنه، على صفحة رأسي. وكان جزؤه الأول المقال الذي نال إعجاب رئيس التحرير. والذي لم يكن من الممكن إنجازه لولا المساعدة التي قدّمها لي ربيع. والحقيقة أنني حتى اللحظات الأخيرة من وصولي إلى قرية «ميتروفيشكا» الحدودية، لم أكن متأكدة من أنني سأتمكن من إنجاز ذلك الحوار الذي سيجعل قيادة الحلف الأطلسي تحتج لدى وزارة الخارجية الفرنسية لتتدخل هذه الأخيرة من أجل منع نشره ولكن، بعد فوات الأوان كما يحدث في غالب الأحيان.

أجلسني ربيع، وكان بصحبة صديقه تومرت، في غرفة شبه خالية، باستثناء المقاعد الأربعة والطاولة الصغيرة، والتي ليس من الصعب أن نعرف أنها وضعت على عجل. وبعد لحظات سمعت خطوات وأصواتاً تأتيني من الردهات المفتوحة على البرد. ثم فجأة دخل ربيع ومعه رجل آخر في مثل عمره ملتح وذو عينين زرقاوين. قال لي ربيع: سأتولى الترجمة، ويمكنك أن تسألي ما تشائين. هذا أحمد وهو القائد الميداني لمنطقة جنوب وشرق كوسوفو. إنه يفهم بعض الكلمات الفرنسية لكنه يفهم العربية جيداً.

قلت لربيع:

- القائد أحمد ليس عربياً.

فقال بسرعة:

- لا.. لا إنه من كوسوفو. فهم أحمد ما قلته لربيع فأكّد قائلاً:
- لست عربياً. ولكنني تعلمت اللغة العربية في ليبيا بمعهد جمعية الدعوة الإسلامية. تعلمت هناك لمدة أربع سنوات. وقد كان لي أصدقاء كثيرون في يوغسلافيا، هم الآن مسؤولون كبار في البوسنة.

حين سمعت اسم ليبيا انتفض قلبي وقلت في خاطري: ها أنني أقع على الذي كنت أبحث عنه. إن ليبيا في حد ذاتها تثير شهية القرّاء. ثم إن وجود ليبيا في هذه المعمعة الأطلسية من خلال هؤلاء القادة لجيش تحرير الكوسوفو، لا شك أنه أمر محيّر. وسألته وكأني أريد أن أثبت أن ليبيا غير بعيدة عن تلك المعمعة.

- وهل تدربت على السلاح في ليبيا؟.
- نعم، ولكن ذلك كان في وقت لم يكن أحد يفكر في ما نحن فيه الآن.

أثار جوابه فضولي، كما زاد في قناعتي من أن ليبيا متورطة في المعمعة رغم ادعائها الحياد فسألته ثانية:

- هل معك رفاق آخرون كانوا قد تدرّبوا في ليبيا على القتال؟
- لا أعتقد. لكن لدينا رفاق عرب جاءوا من بلدان عديدة وهم يساعدوننا على التدريب فقط.
- هل يدعمكم القذافي حالياً؟.

ـ أبداً. ليست لدينا أية علاقة مع ليبيا.

كان ربيع يقوم بالترجمة الفورية بدقة لما ينطق به أحمد القائد الكوسوفار، الذي كان يجيب على أسئلتي هو الآخر بهدوء وبدقة.

قلت لأحمد:

ـ جيشكم عبارة عن مجموعات سرية لا هوية محددة له. فقد ولد في عدّة أسابيع وهو يطالب بدور الزعامة اليوم. هل هو وسيلة عسكرية في يد السياسيين؟ أم أنه طرف سياسي في كوسوفو؟ أم أنه مناورة صربية؟

ـ لم يولد جيش تحرير الكوسوفو في أسابيع عدة. فهو موجود منذ عام ١٩٩٣. وقد قام بعمليات عدة ضد الصرب، لكنه لم يجد من يصدق وجوده في الصرب. وفي نهاية ١٩٩٧ بات هذا الجيش حقيقة واقعية. إنه رمز شجاعة شعبنا ومثابرته.

ـ كل ما نعرفه عن جيشكم أنه يضم عناصر ماركسية كانت تدين بالولاء للديكتاتور السابق أنور خوجا في الثمانينيات؟

ـ هذه دعابة رخيصة أيضاً. نحن لا ننفي أن يكون هناك عناصر كانت ماركسية في وقت ما. ولكن ليس صحيحاً أننا صنيعة أنور خوجا. فحين مات خوجا في العام ١٩٨٦ كان أغلب مقاتلي جيشنا تلاميذ صغاراً في المدارس.

ـ لم نسمع بهذا الجيش إلاّ حين أصبحت الولايات المتحدة سيّدة الموقف في البلقان. هل هذا مصادفة؟

ـ قبل أن تهتم أميركا بالمسألة اليوغسلافية، كنّا موجودين كقوة سياسية على الأقل. أميركا لا تقوم بتفريخ المقاتلين أو صناعة

الجيوش، لكنها تضطر إلى التعاون معها. حين أصبح جيشنا يشرف على ستّ مناطق عسكرية وكان قد تحول من تنظيم الدفاع عن النفس يغلب عليه الطابع الارتجالي إلى تنظيم محكم، تقرّبت إلينا أميركا.

- ما هي الدول التي تمدّكم بالسلاح؟
- إننا نشتري كل سلاحنا. إن الحصول على السلاح في ألبانيا ليس بالأمر الصعب. ثم لا أريد أن أخفي عنك أن ألبانيا وضعت تحت تصرفنا قواعد للتدريب. ونحن لا نغفل أبداً تنويع مصادر سلاحنا.
- هل يأتيكم سلاح من تركيا؟.
- يأتينا كذلك من إيطاليا. ما العجب في ذلك؟ بالمال يمكننا الحصول على السلاح.
- ومن أين يأتيكم المال.
- لدينا نظام ضرائب طوعية. ثم لدينا دياسبورا كثيرة العدد في سويسرا وإيطاليا وألمانيا. وهؤلاء لا يبخلون بالمال على وطنهم.
- والمخدرات.. يقال إنكم تشرفون على مزارع الماريجوانا في هذا السهل الخصيب.
- هذا ليس صحيحاً. ولو أن ذلك صحيح، لامتنعت أميركا عن التعاون معنا.
- أميركا لاتساع مصالحها وانتشار إمبراطوريتها، قد تضطر أحياناً إلى التعاون مع الشيطان. لم يعد سرّاً أنها كانت تتعاون مع المافيا ومزارعي الحشيش في أفغانستان وتجار المخدرات في

كولومبيا. أوَ ليس هذا صحيحاً يا كابتن أحمد؟

ـ لست متأكداً من ذلك. ولكني أعرف أن الصحافة تبحث عن الإثارة. تأكدي حين تصرّ الصحافة الغربية على مثل هذه الدعاية، فإنها لا تفعل سوى أن تدعو على نحو غير مباشر شباب الغرب إلى الانهماك في تجارة المخدرات. تأكدي كذلك يا سيدتي أن أموال الماريجوانا أو الكوكايين لا تصنع مقاتلين جيّدين.

ـ هل تتلقون مساعدات مالية من منظمات إسلامية؟

ـ لا أعرف. لست في المكان المناسب لكي أجيبك. ولكن أعرف أن بعض الدول الإسلامية تقدم لنا مساعدات إنسانية مثل كثير من الدول الأخرى.

ـ يقال إن الملياردير السعودي أسامة بن لادن يمدّكم بالرجال والسلاح والأموال؟.

ـ أعرف بن لادن من خلال الصحف. لا أعتقد أن ذلك يحدث بتاتاً.

ـ هل يوجد مقاتلون إسلاميون من بلدان أخرى في معسكراتكم؟.

ـ يوجد لدينا بعض المتطوعين يأتون كأفراد لا كمنظمات، وبعضهم كان يقاتل في البوسنة. لكن هؤلاء جميعاً لا يقومون بأية عمليات ميدانية. إنهم في القواعد الخلفيّة يقومون بالتدريب.

ـ هل تسمحون لهم بالقتال حين تتوسّع الحرب.

ـ لا أعرف. هذا سابق لأوانه.

ـ يقال إنكم تتهيأون لإعلان كوسوفو جمهورية إسلامية؟

ـ ليس لدينا برنامج من هذا النوع.

ـ يقال أيضاً إنكم ستقبلون بتقسيم الكوسوفو إلى منطقتين شبيهتين بتلك الكيانات التي أنشئت في إسبانيا (الأندور) وإيطاليا (سان مارينو) أي كيانات ذات حكم محلي لكنها لا تتمتع بسيادة كاملة؟

ـ هذا أيضاً لا أعرف شيئاً عنه.

ـ أنت رجل يعرف الميدان جيّداً. يقال أيضاً إن هناك اتفاقاً تكتيكياً بين ألبانيا وصربيا حول خط التقسيم لإقليم كوسوفو. يمتد الكيان الأول من داكوفيكا غرباً باتجاه بريشتينا شرقاً حيث تظلّ المعالم المسيحية الكبرى ضمن صربيا إلى جانب كوسوفو بولجي، وهو الموقع الذي شهد هزيمة الصرب أمام العثمانيين عام ١٣٨٩ وكذلك الثروات المعدنية في تريبكا وميتروفيشكا. أما الكيان الثاني فيحاذي ألبانيا ويرسم حدوده النهر، وهو يحتوي على كوسوفكا ومناجم الفحم في بيلا سوفاكّ.

ـ ليست لديّ خرائط كيانات ودول. لديّ خرائط عسكرية فقط. أعتقد أننا لا نفكر في هذه الطريقة. لو كان الأمر واضحاً على هذا النحو، فإن اجتماعاً واحداً بين الرئيس الألباني «ميداني» والصربي ميلوسفيتش يمكنه أن ينهي المشكلة.

ـ لكنك تنسى أن الحلف الأطلسي ربما لا يوافق على ذلك؟

ـ حين تقولين ذلك إنما تحاولين إقناعي بأن سيناريو التقسيم الذي رسمته بالكلمات أمامي قبل حين، ليس هو من اقتراحات الحلف الأطلسي، أو بعض الدول الأعضاء.

ـ هل تعتقد أن الحلف الأطلسي يريد الحرب بأي ثمن؟

ـ لا أعرف.. يخيّل إليّ أنه جوقة يوجد فيها أكثر من صوت. جوقة خالية من الإيقاع.

ـ لماذا تقول ذلك؟ هل هذه قناعة جيش تحرير الكوسوفو؟

ـ لو كان الفرنسيون أكثر تماسكاً في رامبوبيه لكنّا توصلنا إلى نتائج جيدة. ولا أعتقد أن جولات رامبوبيه ستكون ذات جدوى. الفرنسيون يتكلمون أكثر من لغة. ثم إنهم حسّاسون جداً للدور الأميركي. وحتى عندما جاء الأميركان إلى رامبوبيه لدفع المفاوضات، رفض الفرنسيون أن يكونوا مجرّد خدم في قصر المفاوضات. كانوا يريدون أن يكونوا سادة، أي أصحاب الدور الأول، أي قابلة لأي اتفاق، ولكن القوة كانت تعوزهم. وكذلك الخيال. كانوا معلّقين بين إعجابهم بالنزعة القومية لدى الصرب وبين نفورهم من الهيمنة الأميركية على أوروبا.

* * *

ساعدني ربيع في إرسال الحوار بعد أن حررته في أقل من ثلاث ساعات، حين طلب من القائد الكوسفار أحمد ردفان ونحن لا نزال واقفين أمامه على عتبة الغرفة التي أجرينا فيها الحوار، أن يأخذنا السائق إلى مكان

يوجد به فاكس. لم أغادر القرية الحدودية ميتروفيشكا التي تحولت إلى منطقة حرب غير معلنة. وقد أخذني ربيع إلى فندق صغير لأنام فيه وهو يطمئنني إلى أنني سأكون سعيدة حين أتمكّن من إنجاز ما لم ينجزه صحافيون آخرون. سكنت في فندق «بولكا» لمدة يومين. كان يقع على ربوة عالية فيشرف بطوابقه الثلاثة على سهل فسيح ورائع، كان يحتاج إلى قليل من الاهتمام والخيال ليصبح فندقاً جميلاً، ولكن أجواء الحرب قد جعلته خالياً من الزبائن وكذلك من المتعة. كنت أرى رجالاً يدخلون ويخرجون من فوق «البلكونة»، لكنني لم أفكر قط أن أولئك هم شباب من كوادر جيش تحرير الكوسوفو.. ففي طريق العودة إلى تيرانا، أخبرني ربيع أن ذلك الفندق قد تحوّل إلى مقرّ للقيادة العامة للجيش، وأن الحكومة الألبانية قد وضعته تحت تصرّف قيادة الجيش.

أثناء وجودي في ميتروفيشكا، كتبت مقالاً آخر حول فكرة تقرير المصير. وربما تحت تأثير أجواء الحرب بدت لي تلك الفكرة نحساً. وقد رأيت أنها الفكرة الأكثر دفعاً نحو المذابح خلال القرن العشرين. قلت كذلك إن العالم لن يجد سلامه في التشظّي اللامتناهي. كما أن الجغرافيا الأوروبية ربما لن تقبل بالنزوع إلى التمزيق العرقي والإثني. وكل ما يحدث الآن وغداً تحت إغراء تقرير المصير، لن يصنع أكثر من مذبحة تضاف إلى تلك المذابح القديمة التي ولدت فوقها ما يسمى بأهرامات العالم الحديث. تساءلت كذلك في ذلك المقال ما إذا كان حق تقرير المصير حقاً يجب أن تتمتع به جميع المجموعات البشرية، وهل يحق للمجموعات الصغيرة أن تفرقع بناء المجموعات الكبيرة؟ وكيف يمكن ضمن هذا المبدأ المطّاط بناء علاقات جديدة بين أكثر من ٣٠٠ مجموعة

بشرية أخرى يمكن أن تضاف إلى الكيانات الحالية؟

أوحى إليّ بفكرة ذلك المقال رجل قد تجاوز السبعين من عمره التقيت به في الصالون الصغير لفندق بولكا. وقد ظلّ ذلك الشيخ يرمقني بعيون نصف مفتوحة للحظات طويلة ثم قرّر أن يكلّمني وكأنه أحسّ بأنني كنت أحتاج أنا أيضاً إلى من أتكلم معه. سألني باللغة الإنكليزية: من أي بلد؟ فقلت من فرنسا. بدا لي وكأنه قد عثر على كنز، فقال لي بسرعة:

ـ هل تقبلين بأن أنتقل إلى طاولتك؟

قلت له: سأنتقل أنا إليك. سألته عن اسمه فأجابني:

ـ فراشكان. ثم أضاف: فراشكان أشكنتي.

سألته ما إذا كان من ألبانيا أو من ألبان كوسوفو. فأجابني:

ـ أنا ألباني. ربما جذوري تعود إلى اسطنبول. ولكني من مواطني ألبانيا. أضاف فراشكان يقول وهو يرشف قهوته: كنت أسكن في تيرانا، ولكني حين تقاعدت، اخترت أن أسكن في بولكا لأن هواءها يساعد صحتي. لم أكن أتوقع أن بولكا الجميلة ستصبح مسرحاً للحروب. كنت أعتقد أن الحرب قد أصبحت من الماضي. صمت قليلاً ثم قال:

ـ كم تقدّرين عمري يا سيّدة..؟

ـ إيزابيل. اسمي إيزابيل. أنا صحافية من فرنسا يا سيّدي. بعد ذلك أجبته:

ـ يمكن أن أقدره بنحو ٦٥ عاماً. أليس كذلك؟ (في الحقيقة كان يبدو قد تجاوز السبعين، ولكنني أردت أن أخفف عليه آلام الشيخوخة وثقل الزمن).

ـ لقد أخطأت. لقد تجاوزت الـ ٧٨ عاماً قبل ثلاثة أشهر.

ـ ألهذا سمعتك تقول إنك كنت تعتقد أن الحرب قد أصبحت من الماضي؟

ـ نعم، كنت مقاتلاً في صفوف المقاومة ضد الطليان الفاشست خلال الحرب العالمية.

ـ إذن كنت شيوعياً؟

ـ نعم، ولكني لم أكن شيوعياً جيّداً كما يقال. أحببت الشيوعية حين كانت فكرة، ولم أحبها حين تحولت إلى حياة نمطية، إلى نظام. ربما كان ذلك بسبب مزاجي. وربما كان بسبب تربيتي القديمة. فقد كنت رسّاماً، وكنت من عائلة موسرة تضررت كثيراً في عهد الشيوعية. اندمجت في البداية، لكن حريتي لم أجدها في الاندماج. حتى رسومي كانت خاضعة لتعاليم الحزب. لقد أخضعوني لسنوات طويلة لعمل واحد هو رسم بورتريهات «القائد المعلم» أنور خوجا. وفي النهاية دمّروا موهبتي وجعلوني رسّاماً تابعاً للحزب. رسمت في البداية لوحات انطباعية عن روح المقاومة الألبانية. وبعد الاستقلال طلبوا مني أن أرسم بورتريه لستالين. وخلال نحو ثلاث سنوات رسمت ما يزيد على ٥٠ بورتريه لستالين في جميع الهيئات والقياسات. بعد ذلك قالوا لي: يكفي ما رسمت لستالين. فجاءت مرحلة ماو تسي تونغ التي أخذت من عمري سنوات عدة. بعدها دخلت في مرحلة أنور خوجا. ولا شك أنك الآن تملكين فكرة عن مدارس الرسم في ألبانيا. من

الانطباعية الحماسية إلى الستالينية ثم الماوية وأخيراً المدرسة الخوجية.

ـ وهل توقفت الآن عن الرسم؟

ـ تقريباً. لم أعد قادراً عليه. لا بل فقدت الإحساس به. لم تعد أصابعي قادرة على حمل الريشة. حتى الشعور بالحرية لم يُعد لي موهبتي الضائعة.

أغراني فراشكان بحديثه إذ كان يتحدث بلهجة مؤثرة وساخرة فقلت له:

ـ هل تعرف يا سيد فراشكان، حين كنت طالبة في الثانوي، كنت عاشقة لبلدكم. ولكن كان يخيّل إليّ أن ألبانيا تقع بالقرب من الصين، وليست هي على مرمى حجر من أوروبا.

ـ أنا نفسي كنت أعتقد أننا نقع في آسيا، وليس في أوروبا. ولكن هل تعرفين من أين كان يأتيني ذلك الإحساس؟ إنه إحساس العزلة الممزوج بالاستبداد. بلادنا هي أكثر بلدان أوروبا حرماناً وغموضاً. حتى لغتنا لا نعرف جذورها. نقع بين أثينا وروما، أي بين الإغريق والرومان، ولكن حظّنا العاثر أو بلادتنا أو طيش حكّامنا هو الذي جعلنا شعباً غريباً وملبّداً بالغرور والطلاسم والغباء. إن فكرة الاستقلال اللعينة والإحساس القوي بالاختلاف والأنفة المبالغ فيها.. كل ذلك زائد الأفكار الشيوعية، قد أغلق علينا أبواب الماضي. كان بالإمكان أن نكون جسراً بين أثينا وروما. فإذا بنا نصنع من بلادنا صخرة آسيوية في قلب أوروبا. وتلك هي مأساة الذين يركضون وراء الاستقلال بأي ثمن.

ــ مع ذلك لا يبدو أن جيرانكم قد تعلّموا من محنتكم؟

ــ تقصدين شعب الكوسوفو. هؤلاء هم ضحايا آخرون لما يسمّى بفكرة الاستقلال. سوف يندمون ذات يوم، لأنهم يتبعون النموذج الألباني.

صمت فراشكان قليلاً ثم تنهّد:

ــ آه لو أنهم يمعنون النظر في ما هم يفعلون.

أضاف فراشكان يقول:

ــ بعض الأفكار ترسّخت في أذهاننا عبر حقب طويلة حتى باتت من قوانين الطبيعة، لكنها أفكار معاكسة للتاريخ. وأظن أن فكرة تقرير المصير هي أكثر تلك الأفكار الخاطئة والتي لا تقود إلاّ إلى المذابح والانغلاق.

ــ وهل أنت مقتنع فعلاً بما تقول يا سيّد فراشكان؟

ــ نعم. ولكن يجب أن نجد من يفهم ذلك لكي نقوله له. هل تعرفين يا سيدة إيزابيل أن فكرة تقرير المصير هي فكرة حديثة جداً جاءت مع الثورة الفرنسية. (على فكرة، أنور خوجا كان شيوعياً، ولكنه كان كذلك بونابرتياً. فهو متأثر بالثورة الفرنسية وكان في بداية حياته معلّماً للغة الفرنسية). أضاف فراشكان يقول: كان تقرير المصير أداة من أدوات الدعاية أثناء الثورة الفرنسية. كانت الثورة مهددة بتحالف القوى الأوروبية المحافظة، ولذلك راحت تستنهض الشعوب الأخرى للوقوف إلى جانبها. وحين قامت الدولة الفرنسية، كفّت تلك الدعاية. بل أصبحت خطراً على الدولة الفرنسية نفسها، غير أنها

كفكرة كانت قد تجاوزت أوروبا، بعد أن مزّقتها شرّ تمزيق، إلى العالم الآخر. هل تعرفين أن الأفكار التي ننتجها لا تبقى إلى جانبنا بل هي تسافر؟ فهي غالباً ما تتحوّل إلى قوة مضادة لنا. لقد استفادت بروسيا من فكرة تقرير المصير ونهضت عليها ثم تشامخت إلى حدّ تسبب في حربين عالميتين. وكان على أمم أوروبا الشرقية أن تنتظر حربين، لكي تدرك أن سعادة تقرير المصير قد تأخرت. ثم كان عليها أن تنتظر نصف قرن وهي قابعة وراء الستائر الحديدية، لكي تدرك أن السعادة ما زالت بعيدة. وربما كان على بعض هذه الشعوب أن ينتظر نصف قرن آخر لكي يعرف أن سعادة تقرير المصير كاذبة. أعتقد أن التمزيق الجغرافي لن يصنع أية سعادة لهذه الشعوب.

آنذاك أعجبتني فكرة فراشكان. وجدتها مثيرة وتستحق التسجيل. وقد استطاع أن يشرحها لي على نحو جميل ويدافع عنها أمامي كما لو أنه ناطق باسم الحكمة المفقودة في أرض البلقان اللعينة. وسألته عما إذا كان ما يحدث الآن ليس إلا عبثاً من وجهة نظره، فقال بحزم:

- لا شك في ذلك. تقرير المصير أصبح فكرة بالية. الذين يدعون إلى العولمة لا يحق لهم أبداً أن يتكلموا عن تقرير المصير. ثم إن ذلك لا يصلح أبداً لشعوب البلقان. فهذه المنطقة تختار الجنون كلّما شعرت بعدم التوازن. إن الجغرافيا السياسية لهذه المنطقة لا تتطابق أبداً مع الجغرافيا العرقية. هناك مناطق كثيرة في العالم لا تحتمل مثل هذا التقسيم الجغرافي الاعتباطي. فلو طبّقنا فكرة تقرير المصير في كل مكان، فإن

العالم سوف يتحول عما قريب إلى مسرح عبثي تتراقص فوقه
مئات المجموعات البشرية الجديدة وهي تتلاعب بالبارود.

حين أنهى فراشكان كلامه، رأيت ربيع يتقدم نحونا وهو يبحث عني. استأذنت من فراشكان بأدب ثم ناديت على ربيع الذي جاء ليخبرني بموعد العودة إلى تيرانا.

* * *

«تنمو الأخطاء السياسية في مناخ عدم الواقعية أو الواقعية الرثة. فالخلط الشنيع الذي يقوم به العولميون الجدد بين العصر القومي وعصر العولمة قد يؤدي إلى هدنات مؤقتة وغير عادلة على الجبهات الساخنة، ولكنه حتماً سيؤدي إلى تجريم مصداقية حماة حقوق الإنسان. فالحروب الجديدة التي يخوضها العولميون بالتحالف مع حماة حقوق الإنسان ومع قوميي ما بعد الحرب الباردة لا تزال مجهولة العواقب. وهي قد تؤدي إلى الهدف ونقيضه، أي إلى عقاب المجرمين المفترضين وكذلك إلى ارتكاب جرائم أخرى. فهذا النوع من الحروب التي قد تندلع للمرة الثانية في يوغسلافيا لا يقتل المجرمين الأصليين بل يعمل على إنتاج مجرمين جدد». هكذا بدأت مقالي الجديد الذي كتبته بعد يوم فقط من عودتي إلى تيرانا من قرية ميتروفيشكا الحدودية. لقد عنونته بحروب ما بعد الحداثة. وحاولت أن أرسم ذلك المأزق الذي يجعل من حروب عصر العولمة لحماية حقوق الإنسان، حرباً ضد حقوق الإنسان. لاحظت أن الحلف الأطلسي كان يتعاون على الأرض مع قوميين متعصبين ضد قوميين متعصبين آخرين. كما حاولت أن أؤكد أن ما يسمّى بالأصولية الإسلامية لها ضلع في هذه الحرب. فكوسوفو المسلمة قد التقى حولها أكثر من طرف. لقد

جمعت تناقضات عديدة. فأن يتبنّى حماة حقوق الإنسان الوسائل العسكرية لأهدافهم، وأن يحارب العولميون إلى جانب القوميين والأصوليين، وأن يقف الغرب المسيحي إلى جانب المسلمين، وأن تهبّ أوروبا إلى مساعدة جماعة مسلمة في الكوسوفو بينما هي تقمع الباسك والإيرلنديين والكورسيكيين.. كل ذلك لن يقود إلاّ إلى العودة إلى سياسة القرن التاسع عشر بقيادة الأحفاد الأكثر غباءً في مادة التاريخ. كل ذلك لا يصنع إلا مأساة شاملة. كل ذلك لا يرسم إلا صورة قاتمة في السنة الأخيرة من القرن العشرين، للصفحة الأولى من القرن الواحد والعشرين. وكل ذلك لا يمكن أن يسمّى إلاّ بالانحطاط. فعندما تستنجد النزعة الإنسانية بالعسكر، لا يمكن أن يكون ذلك إلاّ الانحطاط في أرقى تجلياته.

بعد ثلاثة أيام من كتابة هذا المقال، بدأت الحرب. لقد فشلت كل المفاوضات وأعلنت ساعة الصفر. كنت آنذاك أفكر في طريقة لإقناع ربيع بأن يرتّب لي لقاء مع أحد الأصوليين الإسلاميين العرب الذين جاءوا للقتال مع جيش تحرير الكوسوفو. كان ربيع لا يستطيع أن يخفي تلك الحقيقة، فهو نفسه قد اعترف بأنه جاء من بلاده لنصرة أخوته في الكوسوفو. صارحني بأن الأمر معقد جداً إذ لا أحد يريد أن يتكلّم للصحافة. ثم وعدني بأنه سيقترح على مسؤوله المباشر ذلك، لكنه لم يكن متأكداً من أنني سأصل إلى هدفي. وفي اليوم الثاني من اندلاع الحرب، اقترح عليّ أن أذهب معه إلى المناطق القريبة من الجبهة. كان يصعب عليّ أن أرفض التوجه إلى حافة الجبهة. كان بالإمكان أن أفعل كمعظم المراسلين الذين يكتبون مقالاتهم من مدن أخرى بعيدة عن

الجبهة. كنت أريد أن أكون مثلما أحببت أن أكون. فقد عملت كمراسلة حربية في حرب الخليج. وقد أثبتّ جدارتي في ذلك. كما لم يكن بالإمكان أن أخدع نفسي ولا قرائي. عدت بذهني إلى ما حدث معي عند عودتي من حرب الخليج، وتذكرت كيف أن رئيس التحرير قد أحالني إلى قسم كتّاب المقالات وهو قسم المتقاعدين في أية صحيفة، ولكن ذلك لم يحبطني. كنت فخورة كوني امرأة موجودة في ساحات الحرب. وفخورة كوني لا أزال على حماستي لمهنة الصحافة. بعد تجاوزنا لمدينة ميتروفيشكا، اقتربنا من مناطق مناجم الفحم. وفي قرية «شاراتيما» التي لا تبعد عن كوسوفو اليوغسلافية سوى ثلاثة كيلومترات، فاجأني ربيع بخبر سارّ حين قال لي:

- من المحتمل أن يكون حظك جيّداً. ربما التقيت بأحد الإسلاميين العرب هنا.

كنت على وشك أن أقبّله من الفرح. ولكن ربيع الذي كان حريصاً على ألاّ أصاب بالخيبة، استدرك قائلاً:

- إذا لم تتمكّني هذا المساء من اللقاء بالشيخ أبو عمر، فإن الأمل سيكون ضعيفاً بعد ذلك.

وبالرغم من أن ربيع قد قطع عنّي لذة العثور على ما كنت أبحث عنه، إلا أنني واصلت الاستمتاع بتلك اللذة. كانت شاراتيما خالية تقريباً من السكان. بيوتها القليلة والمغطاة بالقرميد الأحمر كانت جدّ متواضعة. لقد تحولت معظم تلك البيوت إلى مساكن لعناصر جيش التحرير وعناصر من الأمن الألباني. وقد أوضح لي ربيع أن طريقاً خارجية بعيدة عن القرية قد فتحت للاجئين القادمين من كوسوفو وهم في طريقهم إلى مدينة الخيام

التي نصبت بالقرب من ميتروفيشكا. في المساء.. في مساء ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى شاراتيما، حيث أقمت في بيت تحول إلى مستوصف لاستقبال الحالات الطارئة، غاب ربيع حوالى ساعة ثم عاد. طرق باب غرفتي ثم ناداني من وراء الباب وقال:

ـ أنا ربيع يا إيزابيل. استعدي سأعود بعد ربع ساعة.

لم أشكّ للحظة أن ربيع قد توفق، وأنه عاد ليأخذني إلى أبي عمر الذي حدّثني عنه، ولكن لم أتوقع قط أن أبا عمر كان ينتظرني في الغرفة المجاورة. كان شاباً طويلاً قدرت عمره بنحو ٣٥ سنة. نحيفاً أسمر، ملتحياً ويرتدي «كومبة» عسكرية. بدا لي منذ اللحظة الأولى أنه صاحب إصرار. وأثناء الحوار الذي أجريته معه وجدته رجلاً قوياً على استعداد للدفاع عن أفكاره بكل طريقة. قال لي إن المعركة بالنسبة إليه هي معركة من أجل الإسلام. وإنه لا يعتبر نفسه جندياً متعاوناً مع الحلف الأطلسي، مثلما حدث في أفغانستان مع مجاهدين آخرين. أخبرني كذلك أن القوى الكبرى غبية بطبيعتها وهي تتصرف في أغلب الأحيان وفق مصالحها، لكنها لا تعرف بالضبط أين توجد مصالحها. تساءل كذلك عن المصالح التي تقاتل من أجلها أوروبا أو أميركا في هذه المنطقة الفقيرة؟ وقال: ماذا جنى الغرب بعد عشر سنوات من حرب أفغانستان؟. وماذا نجنى من البوسنة أو من الصومال؟ كل ما فعله أنه فتح الطريق أمام المجاهدين الإسلاميين لكي يكونوا في كل مكان. بعد أفغانستان، أصبحنا نتواجد في كل مكان. من جنوب الفيلبين إلى جبال الكشمير، ومن الصومال إلى البوسنة، ومن كوسوفو إلى الشيشان. بعد ذلك شكك أبو عمر في جدوى الحرب الفوقية التي يخوضها الحلف الأطلسي، وتوقع أن

يخسر الحلف الحرب إذا لم ينزل إلى الأرض. وأضاف أن النظرية الأميركية «القتيل صفر» تشكل أفضل وسيلة لتجريد حلف الأطلسي من سلاحه. لكنه أكّد أن المجاهدين لن يسمحوا بخسارة الحرب. وحين سألته ما إذا كان عدد المجاهدين كبيراً، لم يجبني بصراحة مكتفياً بالقول: إن العدد لا يعني شيئاً، فحين نكون مصمّمين على القتال ومؤمنين بقضيتنا يكون الواحد منّا يساوي ألفاً من الأعداء. وتساءلت أمام أبي عمر، كيف يحارب المسيحيون لنصرة المسلمين أو كيف يتحالف المسلمون الأشد تطرفاً مع المسيحيين، فأجابني بأن الحرب في الأساس مسيحية ـ مسيحية. ونحن لا نفعل سوى أن نحفر عميقاً في أوروبا المريضة. وعن تصوراته لنهاية الحرب، قال أبو عمر: إن أميركا لا تملك تصوراً لما بعد الحرب. ستحاول احتواء جيش تحرير الكوسوفو، ولكنها ستصطدم بقوة هذا الجيش.

خلال الحوار الذي دام حوالى الساعة، كان أبو عمر يحاول ألاّ يرتطم بالمحظور. ومع ذلك فقد انتقد استراتيجية الأطلسي وكشف عن براغماتية المجاهدين الذين يستخدمون أميركا وغيرها من أجل انتشارهم. وقد أثار دهشتي حين لاحظ أن الرقابة التي يمارسها الحلف الأطلسي على وسائل الإعلام رقابة مكارثية. وأن انزعاجه من تلك الرقابة التي تريد أن تقتل الحقائق وتغطي إنجازات المجاهدين، هو الذي دفعه إلى التحدث للصحافة.

بعد ذلك عدت إلى غرفتي. وفيما كنت ممددة على الفراش أستجدي النوم وأحدق في خشب السقف المطلي باللون الأزرق، تذكرت أن أبا عمر اليمني لم يقل لي إلى أية جماعة ينتمي؟ ومن يقف وراءه؟ ومن يموّل رجاله ويمدّهم بالسلاح؟

خبأت كل تلك الأسئلة لأطرحها على ربيع في الصباح. وإذ خامرني

شعور بأنني بلغت بعض النجاح بعد أن التقيت بالشيخ أبو عمر، وجدت أن ذلك كله لن يساوي شيئاً بعد أن ينشر. وهذا هو القلق الأبدي الذي يعيشه أي صحافي. فهو باستمرار مطارد من طرف قراء شغوفين، جائعين وجاحدين، لا ذاكرة لهم ولا هم يعترفون بالجميل.

* * *

عند الفجر من تلك الليلة الموغلة في الصمت الموحش، غادرت الفراش وأنا أشعر بقلق مشوب بالفرح. وفي الغالب الأعمّ، فإن ذلك ما طرد النوم عنّي مع احتمال بسيط أن أكون في عجلة من أمري لتسجيل الحوار الذي أجريته مع أبي عمر على الورق. دخنت ثلاث سجائر قبل أن أبدأ الكتابة. كنت كما لو أنني دجاجة تبحث أين تضع بيضها. فلكي يدخل المرء إلى قلب الكتابة، ولكي يجتذب إلى معاناتها، عليه أن ينسى كل ما يوجد حوله. عليه أن ينسى حتى ذلك البرد الذي كان يتسرّب إليّ من بين شقوق النوافذ. فالكاتب هو الشخص الذي عليه أن يكون سعيداً في مكان لا يوجد فيه أحد. وبمزيد من الدقة، فإن الكاتب، أي كاتب عليه أن يتوحد بذاته خارج المكان الذي يوجد فيه وينسى الوقت الذي يمرّ من فوق رأسه المغروس في الورق. ولو أنه تذكر فقط الصمت المطبق من حوله، فإنه لن يفعل شيئاً، لذلك عليه أن يصنع ضوضاء من احتدام الكلمات وخربشة القلم وحفيف الورق.

انقضى الآن وقت طويل وأنا جالسة إلى جهاز الكومبيوتر النقّال من نوع «كومباك». وقت يصعب تحمّله على أكثر الناس قدرة على الصبر، ولكنه كان وقتاً قصيراً جداً بالنسبة لي. فحين طرق ربيع باب غرفتي، كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً تقريباً. وآنذاك فقط فرغت من كتابة

مقالي عن أبي عمر الذي كان عليّ أن أرسله قبل منتصف النهار. تناولت الإفطار مع ربيع، وأثناء ذلك عرفت من خلال حديثي معه أن أبا عمر من أصل يمني، وهو قائد لمجموعة من المجاهدين العرب الذين جاءوا من بلدان عدة. وأنه كان مقيماً في لندن قبل أن يأتي إلى كوسوفو. وقد سبق له أن حارب في البوسنة وتدرّب في السودان. وهو ينتمي إلى منظمة تدعى «حدائق السماء». أوضح لي ربيع كذلك، وكأنه كلّف خصيصاً بتلك المهمة، أن «حدائق السماء» منظمة جهادية تضم العديد من الشباب العرب المسلمين. وهي تختلف عن غيرها من المنظمات الجهادية الأخرى لأنها اختارت أن تعتمد على نفسها وتبرعات رجال الخير وخدام الإسلام، ولها مجموعات مقاتلة متحركة في كل من الجزائر وأفغانستان والكوسوفو وكشمير، أما أميرها فهو أبو يحيى الأنصاري.. كان ذلك آخر ما نطق به ربيع، حين أخبرته أنه لا بدّ أن أرسل مقالي قبل منتصف النهار، ولا بد أن أعود مساء اليوم إلى تيرانا.

عرض عليّ ربيع الذهاب معه إلى مقدونيا وقال إن مجموعة من المجاهدين الإسلاميين يوجدون هناك منذ نحو ثلاثة أسابيع. ثم قال إن حكومة «سكوبيا» قد أمرت الشرطة بترحيلهم لأنها لا تريد أن تمتدّ أيادي المجاهدين إلى أيادي إخوتهم المسلمين في مقدونيا. رفضت ذلك العرض، وكان تفسيري لذلك الرفض هو أن أعود حالاً إلى تيرانا ثم أفكر في ذلك. هكذا قررت أن أعود إلى تيرانا. كنت أطفح بالفرح وكذلك بالقلق والوحشة. لم يكن من السهل عليّ أن أتحمل تعب الطريق الوعرة والمتعرجة. فربيع الذي كان يقود سيارة «التويوتا» هو الذي اختار تلك الطريق الجانبية والتي تتعرّج مع الوديان والجبال إلى درجة أنني أحسست

بالتلاشي أكثر من مرة ونحن نعبر جسوراً قديمة بناها الطليان في الأربعينيات من القرن. قررت أكثر من مرة ألاّ أترك الخوف يستولي عليّ، ولكن ربيع الذي بدا لي وكأنه ولد وتربّى مع الرعاة الألبان إذ كان يعرف جميع المسارب والطرق التي أصبح يرتادها مهرّبو السلاح والحشيش، كان لا يتركني لحظة للخوف. كان يمازحني مرة، وأخرى كان يغازل شجاعتي، فيغرقني تارة في بركة من الضحك وأخرى في بركة من الأوصاف الممجدة للشجاعة. وقبل أن نقطع وادي «الهمثار» الذي يتعرّج على تيرانا من جهة الشرق أوقفتنا دورية أمن. وبعد فحص أوراقنا، أنزلوني من السيارة ثم وضعوني في جيب عسكري كان رابضاً تحت شجرة صنوبر كبيرة. أما ربيع، فقد احتفظوا به ثم أنزلوه من السيارة وقادوه إلى مكتب من الصفيح يشبه عربة قطار قديمة قد نصبت في الخلاء على نحو سريع وعشوائي. آنذاك بذلت قصارى جهدي للوصول بالخوف إلى الحدّ الأدنى. فحين نقع في كمين، علينا أن نضغط على الخوف إلى الحدّ الذي يصبح فيه رفيقاً وأنيساً لنا. حدثني ضابط الأمن بالألبانية فلم أفهم شيئاً. ومضى وقت طويل قبل أن يعرف أنني لا أفهم الألبانية. ظلّ يكرّر كلماته وهو يكوّرها ويرميها بقوة باتجاهي، لكنها ما إن تصل إليّ حتى تتفتت. ولا شكّ أنه تعب من إلقاء السؤال نفسه فنادى على زميله. سألني هذا الأخير بإنكليزية لا يتكلّمها إلاّ رجال الشرطة، فقال ما يمكن ترجمته على النحو التالي:

ـ ألبانية لست أنتِ. أوروبية نعم. نعم.

ردّدت ما قاله لي:

ـ لست ألبانية. أنا أوروبية.

ـ عرفت، عرفت. ها. ها. ها. عرفت، عرفت.

ـ بريوديستا أنتِ؟

ـ نعم أنا ذاهبة إلى تيرانا.

ـ بريوديستا أنتِ..

ـ نعم، نعم.

ـ ها.. ها.. ها.

كانت البلاهة بادية على الشرطي الأول. أما زميله فكان أكثر بلاهة، لأن ثقل دمه لا حدود له. ضحكا طويلاً. ثم أمر السائق (العسكري) بإيصالي إلى تيرانا. لم أكن أعتقد أن الأمر سيتم بتلك السرعة، إذ لم أكن واثقة من اجتياز ذلك الكمين بلا ضرر. ولكن ذلك ما حدث فعلاً. بعد نحو نصف ساعة تقريباً وجدت نفسي أمام فندق تيرانا. كنت جائعة، ولكن قلقي على ربيع أنساني عويل المعدة. وبتعبير أكثر صراحة، فإن وصولي سالمة قد أنساني كل شيء. فالذات البشرية ضعيفة وهشة وأنانية. وسبب ذلك كلّه هو: الترنح بين ما حدث وبين ما سوف يحدث.

٢٢

منذ أن بايعوني أميراً، أصبحت إنساناً آخر لا علاقة له بالإنسان الذي كنته. لقد نزعت جلباب عبدالرحمن، الذي كان شبه حائر وشبه تائه بالرغم من أن العزيمة على فعل شيء مهم لم تخنّي للحظة، ثم ارتديت جلباب الأمير أبو يحيى الأنصاري. الأمير الذي عليه أن يكون قائداً وآمراً وحتى مستبدّاً إن لزم الأمر. كان لقب «أمير حدائق السماء» في حدّ ذاته يجعلني مفتتناً بنفسي إذ كان يثير بداخلي طيفاً من العواطف المختلطة والجياشة والمتلاطمة والتي تمتدّ من الرأفة إلى الغلاظة، ومن الشعور بالفطنة إلى الخبل، ومن حبّ الحياة إلى الرغبة في الاستشهاد، ومن الطوفان فوق الأرض إلى التكاسل المريح.

هل كنت فاقداً للتوازن العاطفي؟ هل كنت متأرجحاً بين أكثر من عالم؟ هل كنت متردّداً في تحمّل تلك المسؤولية العظمى؟ لا أعرف. كل ما عرفته مع الأيام، أنني أصبحت قادراً على إصدار قرارات الموت، وهذا هو الشيء الذي كان يحفر بداخلي على نحو متواصل إلى حدّ أصبح عذاباً

يومياً.. ولكن الأمراء يجب ألاّ يستسلموا لمثل ذلك العذاب، وإلا تطور إلى عقدة ذنب دائمة أو إلى ما يشبه العجز. بدأت أميراً على أربعة مجاهدين.. والآن وبعد أربع سنوات، أصبحت أميراً على مئة «عين» أي على نحو خمسمائة مجاهد. وهؤلاء إلى جانب الأنصار لا شك أنهم يشكّلون قوة دافعة لي لتجاوز أية محنة أو ضعف أو حتى تهاون.

ومع مطلع كلّ شمس، كانت «حدائقي» تتوسع ومعها آمالي وكذلك إرادتي. كان مجاهدو «الحدائق» قد وصلوا حتى الكشمير. وقد شاركوا في عمليات استشهادية ضد الجنود الهنود. وكانوا قد قاتلوا إلى جانب إخوتهم في الشيشان، وهم الآن موجودون في كوسوفو وفي أكثر من بلد آخر. كنت أطفح بالسعادة حين يبلغني نبأ استشهاد أحد المجاهدين، إذ كنت واثقاً من أن أي شهيد إنما هو ذاهب إلى تشييد حديقة صغيرة في السماء بعد أن أدّى واجبه على الأرض. خلال تلك الفترة قرأت الكثير عن الحدائق وأصبحت عارفاً بمؤسسيها الأوائل وهندساتها المتعددة وعلاقتها بالفكر والفن والمعمار والله. كنت أقول: إذا حرمنا من الرسم كمسلمين، فإن تشييد الحدائق كان هو رسمنا منذ العهد الأموي. لقد حول أولئك المجاهدون الأوائل الصحراء العربية إلى حدائق في الشام وحلب وبغداد ثم انتقلوا بها إلى أرض النيل ثم إلى الأندلس. وإذا كانت بعض المصادر حسبما قرأت، تنسب تشييد حدائق الشرق إلى النبطيين لمعرفتهم العميقة بحركة الأفلاك السماوية ونمو النباتات والزرع والشجر، فإن النبطيين هم أجداد العرب الذين أدركوا تلك العلاقة بين السماء كقوة رهيبة حبلى بالمطر، وبين الأرض كقوة حاضنة للخصب والحياة. كانت تسمية «الحدائق» بالنسبة لي رغم أنني اخترتها عن طريق الصدفة،

ملتقى للأرض والسماء، وانعكاساً روحيّاً للجنة. ولا شك أن كلمتي «جنان» و«حديقة» تحملان المعنى نفسه والتصور نفسه. وبما أنني سبق أن قرأت مرة أن المقبرة أحياناً يعبر عنها باسم الحديقة، فقد رأيت كم كان اسم الجنة حاضناً لمعنى الكلمتين. إن الماء يشبه كثيراً الدم لدى العرب والمسلمين. فهما نبضَا الحياة، ورمز الشرف والكرم، ثم هما نادران بحيث يتعانقان ليعطيا كذلك المعنى نفسه للحديقة والجنة. فنحن نسقي الحديقة بالماء ونسقي طريق الجنة بالدم، لذلك فهما يجمعان بين البركة والخصوبة والشهادة والتضحية. وإذا كان أحدهم يقول أحياناً إن دمي ليس ماء كي أهدره، فهو في الواقع يريد أن يقول إن مائي يشبه الدم، لذلك ليس من الحق أن أهدرهما إلا في سبيل الله. وهو ما يعني تالياً أن خطيئة هدر الماء توازي خطيئة هدر الدم إذا لم يكن ذلك للصالح العام أو لله.

كنت أعرف أن فلاسفة كثيرين قد فكروا في تأسيس تلك الحدائق السماوية. اختاروا أسماء أخرى مثل «مدينة الله» و«المدينة الفاضلة» و«مدينة العالم» وجزيرة «اليوتوبيا» و«أطلانطيس الجديدة» و«كريستيانو بولس» و«مدينة الشمس». ولكن لم أقرأ أن أميراً قد فكّر في ذلك. فالقديس أوغسطينو، ذلك المسيحي الأصولي كان يقول إن انهيار الإمبراطورية الرومانية ربما كان بسبب الوثنيين البرابرة، لكنه كان يعتقد بأن سقوط ملك الإمبراطورية كان أمراً حتمياً لأنها مجرّد مملكة دنيوية. إلى جانب ذلك كان يعتقد بأن بروز المجتمعات السياسية إلى حيز الوجود هو حصيلة سقوط الإنسان في الخطايا. وهكذا لم أكن بعيداً عن تفكير القدّيس أوغسطينو الذي ولد وعاش في الأرض التي كانت عطشى

للإيمان. في الأرض التي ستشهد ميلاد آبائي وأجدادي. فهل يعني هذا أن القديس أوغسطينو كان زنديقاً كما قيل عنه؟ وهل يعني هذا أنني أمير زنديق إذا فكرت مثله بعد سبعة عشر قرناً؟ أوَ ليس ذلك هو لقاء الأرواح الأصيلة؟!

كان عليّ أن أقرأ أمهات الكتب في ما يتعلق بالسلطة والسلطان. قرأت «الأمير» لـ ميكيافيلي بتركيز شديد ثم قرأت بعض الفصول من كتاب «جوامع سياسة أفلاطون» وهو ملخص لما كتبه ابن رشد. بعد ذلك اتجهت إلى ما كتبه «الفارابي» وخصوصاً كتابي «الفلسفة السياسية» و«رسالة السياسة». ثم اتجهت إلى قراءة بعض النصوص في التفكير الإسلامي السياسي عندما تلاشت النزعة الميتافيزيقية عنه وقد انضمت إليه النظريات والمبادئ الفقهية البحتة. وقد قرأت في هذا المجال «عيون الأخبار» لابن قتيبة و«الأحكام السلطانية» للماوردي. وجدت ذلك مفيداً جداً إذ عرفت من «عيون الأخبار» الأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها الأمير وأصول محبته ومعاملاته ومشاوراته وواجباته. وقد استعان ابن قتيبة بنوادر وحكم حكماء الفرس والهنود. أما الماوردي فقد بيّن لي صفات تعريف الإمامة وشروطها وصفات الإمام وواجبات الأمة نحوه ثم أصول الإمارة وأنواعها وحدود القضاء وشروطه والغنائم والجزية والحدود. ولم أهمل ما كتبه الغزالي في رسالته «علم السياسة» الذي عرّفه بأنه علم تدبير وتنظيم شؤون الأمة والدولة. وبعد الغزالي، جاء دور أبي بكر الطرطوشي الأندلسي، فقرأت كتابه «سراج الملوك» حيث تناول كل صفات وعيوب الملوك بالتفصيل، والطغيان ونتائجه الوخيمة. بالإضافة إلى ذلك لم أهمل ما كتبه ابن تيمية وأحمد بن أبي الربيع وحتى ابن

خلدون. لقد خصّصت نحو ٥ ساعات يومياً للقراءة. كنت كسولاً في التقاط الأفكار الجديدة في البداية، ولكن بعد فترة أصبحت شغوفاً بتلك النصوص إلى حدّ أنني أصبحت قادراً على الاجتهاد والتأويل وفرز الأفكار الأصلية من الأفكار المكررة. قلت لنفسي: حين يقرّر الأمير شيئاً، لا بد أن يفعله على أحسن وجه. اكتسبت المعرفة والخبرة وكذلك الخطابة ومعنى أصول الكلام. كنت أخصص نحو ساعة يومياً للقراءة بصوت عالٍ لكي أسمع نفسي وأراقب طريقة نطقي ثم لأستمتع بلذة نطق الحروف. فالأمير هو إمام في الوقت نفسه والخطابة الفصيحة هي نصف الملك، إذ كيف يمكن لأمير غير فصيح أن يكون أميراً ناجحاً؟ هذا ما طرحته على نفسي. فالأمير هو رمز اللسان واللسان هو رمز الحكمة، والحكمة هي كل التراث الإنساني الأصيل الذي يقودنا إلى طريق الله.

في كلّ يوم كنت أندفع بحماسة أكبر من حماسة الأمس إلى الكتب والأوراق. كانت لذّتي كبيرة وقد فاقت كل لذّة أخرى. كان علمي يحتاج إلى الثقافة، وآنذاك أحسست بأن دعامة العلم هو الثقافة. فالعلم يظل أعمى بلا ثقافة. وحين يمتلك الأمير العلم والمعرفة والثقافة والرجال والأموال وكذلك الحب يمكنه أن يحقق انتصارات مذهلة على نفسه وكذلك على أعدائه. أصبحت أدرك أن كرامة الأمير لا توجد فقط في شجاعته أو قراراته الجريئة وإنما أولاً وقبل كل شيء في معرفته وثقافته. كنت في السابق غالباً ما أتكلم بسطحية عن الحياة والموت والجهاد والسلطة. أما اليوم فقد أصبحت أدرك معاني تلك الكلمات وكذلك ما وراء معانيها. فالذي يعرفه الأمير ليس له شخصياً وإنما هو للناس الذين

ينتظرون نجاحاته ويكبرون لانتصاراته ويعملون لتشييد إمارته وحدائقه. علّمتني القراءة إلى جانب ذلك كله العزلة. تلك العزلة الجميلة والحميمية، تلك العزلة التي تجعلنا شفّافين مثل قطعة كريستال. تلك العزلة الضرورية والتي يحبها الله. لكن وللحقيقة، في لحظات ما، من تلك العزلة الشفافة، كان يحضرني جسد الأميرة سمية. لا بل كان يحاصرني مثل قدري وأنا أعرف أن قدري ليس ملكي إذ هو قدر الذين يجاهدون معي، إن ربحوا ربحنا جميعاً وإن خسروا كانت الخسارة عظيمة لنا جميعاً. هكذا أيضاً كانت سمية تحاصرني من ليلة إلى أخرى فتدفعني إلى الاستيهام. تغرقني في حلم يقودني غصباً عني إلى الرعشة الأخيرة وأنا معلّق فوق أعواد المشنقة. لا ميتاً ولا حيّاً كنت. ولكن جسدها المتناسق الرنان مثل النحاس، لحمها العابق بروائح العود الهندي والعنبر، شهقتها الشهية ذات المذاق العذب، كل ذلك كان يفتح عيني مرة ويغمضها مرة أخرى حتى لتبدو لي المشنقة وكأنها أرجوحة تأخذني نحو اليمين واليسار.. نحو احتدام الشبقية فيما سميّة تمنعني من تقبيلها.. من لمس صدرها أو مداعبة شعرها الفاحم والمتهيّج. وحين أستيقظ أحاول استعادة المكان الذي كنت فيه، فلا أجد سوء صور ذابلة ومتداخلة وحتى باهتة، وهي تبتعد عني كلما حاولت جمعها أو تركيبها في شريط حيّ.. آنذاك أستعيذ من الشيطان، وأعود إلى نفسي وربّي.

لم أكن أحتاج إلى مزيد من الشجاعة، فأنا بطبعي شجاع إلى حدّ التهور. كنت أعرف أن الشجاعة حين تقترن بالقوة غالباً ما تؤدي إلى التسلّط أو الجور أو الطغيان، غير أنني جعلت من القوة أداة للتبصر. وجعلت من الشجاعة دليلاً للقوة والذكاء. هكذا جمعت فضيلة

الشجاعة ونجاعة القوة، فكانت الأشياء تبدو لي أكثر وضوحاً، أوضح مما كنت أعتقد من قبل حتى أن الأهداف لم تكن لتبدو بعيدة رغم بعدها. كنت أكاد ألمسها بيدي. بل كنت على يقين أنني بالغ لا محالة إلى يوم النصر. الشجاعة مع القوة هو ما يحتاج له الأمير لقيادة الجهاد الأكبر. بالإضافة إلى ذلك كلّه، كنت على قناعة تامة أن الأمير الذي لا يفكر في الجهاد المقدس لا يقيم حتى خيمة، فما بالك إذا كان يريد أن يقيم خلافة بكاملها! إن التفكير في الجهاد هو ما يجعلنا أناساً غير عاديين لا يفكرون في هناء الحياة أو في مصاعب الحرب. أما الأمير الذي يفتقد ذلك الحسّ فهو أمير بلا مواهب جوهرية. وما هي تلك المواهب الجوهرية؟ هي بلا شك المعرفة والذكاء ثم الكرم والسخاء ثم الشجاعة والمروءة، ثم العزيمة والأريحية، ثم الصراحة والكبرياء، ثم الورع والتقوى ثم الطموح والوضوح، ثم الحصافة والفطنة، ثم العفو والرحمة، ثم الطمأنينة والسعادة ورباطة الجأش. فالمعرفة حكمة التقرّب من الله. والذكاء هو حكمة التخلّص من الأعداء. والكرم هو التوق إلى عزة النفس. والسخاء هو كسب الأعداء. والشجاعة هي القدرة على رؤية ما لا يرى. والمروءة هي ضبط العواطف النازفة. والعزيمة هي المشي في الطرق الموحشة. والأريحية هي تحقير وتذليل المصاعب. والصراحة هي سكين لذبح النذالة. والكبرياء هي التحليق في أجواء المهابة. والورع هو الخوف من ظلم الناس. والتقوى هي تباشير النجاح. والطموح هو الإصرار على تجاوز المحن. والوضوح هو تجاوز الحالات الحرجة. والحصافة هي الرأفة والقسوة حين تجتمعان. والفطنة هي تجنب الخذلان في لحظة فقدان القوة. والعفو هو مصادرة الأحزان والأحقاد. والرحمة هي استعادة

الأمل للمظلومين. أما الطمأنينة والسعادة ورباطة الجأش فهي خفة الإنسان في طيرانه نحو حدائق السماء.

في لحظات العجز والارتياب، وهي لحظات قليلة ولكنها دامية للقلب والحسّ، أجد نفسي وكأنني أحتاج إلى الشفقة. وتلك أتعس لحظة يعيشها أيّ أمير أو قائد. فالشعور بأننا نحتاج إلى الشفقة ينزلنا من أعلى السلّم في قرارة أنفسنا إلى أسفل من السافلين. من المحتمل أن ذلك هو نداء الضمير الغارق في المباهاة وهو معذّب ومحقّر! من المحتمل أن يكون ذلك ناتجاً من تفكير الآخرين نحونا! من المحتمل أن يكون رهافة في الوجدان أو رجاحة في العقلّ ! من المحتمل أن يكون خوفاً من الاغترار أو الخوف من التحوّل إلى مجرد هواة يلعبون لعبة غيرهم دون أن يدركوا ذلك إلى أن يجدوا أنفسهم وسط المحرقة!. ثمة تفسيرات عدة تنتابني وتتعاقب في على رأسي، ولكن التلعثم الذي يصيبني في لحظات الضجر يجعلني فاقداً للمعنى ومتلبّساً بالغموض ومتشككاً في نفسي وصامتاً بل ومسحوقاً.. حين لا أعود ذلك الزاهد والمهووس بحبّ الجهاد، ذلك الثمل بحبّ الله، أو ذلك الأمير المتّقد الحماسة أو ذلك الرشيد والمنعزل لحكمة الله وخير الناس. تلك لحظات رديئة وبائسة ومحقرة للنفس ومعذبة للضمير وجاحدة. بل ومدمّرة إذ تكاد تسحبني إلى الرذائل التي ازددت ترفّعاً عنها والمخاوف التي ابتعدت عنها وحتى إلى الجفاف اللفظي والتعبيري. ففي النهاية يمكن أن يتعلّم الأمير من الضجر والارتياب مثلما يتعلّم من الأريحية والموضوعية. كما يمكنه أن يتخلص من الأدران ويتسامى بنفسه حين لا يترك للضجر فرصة أخذه إلى التشاؤم ولا يترك للأريحية أن تطبعه بالتفاؤل الكاذب. وأعتقد أن مثل تلك اللحظات

كانت امتحاناً لكل قدراتي وصفاتي، بل هي كانت تمجيداً للألم حين يضاعف من العزيمة وتنزيهاً لليقين حين يتغلب على الشك والارتياب. وأخيراً فهي تحقير للمباهاة والغلو في الإسراف أو في القوة أو في ما شابه ذلك.

وإذا كان لا بد من أنصف نفسي، فإنني لم أكن قط ميّالاً إلى المباهاة. وقد لازمني الحذر من المباهاة منذ أن كنت شاباً صغيراً ويافعاً. وللدقة أقول إن المباهاة في شكلها التقليدي والكريه لا أعرفها أبداً. أما ما أعرفه فهو ذلك الصفاء الروحي الذي يهبط عليّ من حين لآخر، حين أكون أفكر في أمر خطير، أو حين أكون أراقب نفسي أمام المرآة لكي أزن نفسي بنفسي قبل أن يزينني الآخرون.

كانت سمية هي التي فاجأتني ذات يوم بأن أوقفتني أمام المرآة قائلة:

ـ عبدالرحمن، الرجال لا بد أن يروا أنفسهم قبل أن يراهم الآخرون!

ـ ولكن الرجال ليس من حقهم أن يتشبهوا بالنساء المتبرجات يا سميّة.

ـ الأمراء يختلفون عن الرجال، لا بدّ لهم أن يحبّبوا كل الناس فيهم، ولا بد أن يجعلوا الناس متلهفين لرؤيتهم في أحسن هيئة. إذا ظهر أمير أمام الناس في هيئة متواضعة ولباس بسيط، خفّ وزنه وقلّت سطوته، يا عبدالرحمن.

كانت سميّة قد وضعت حول عنقي «إيشارب» أحمر ثم وضعت على رأسي طربوشاً أحمر، وبعد أن رشتني بروائح العنبر قالت لي:

- انظر الآن إلى المرآة.. ألست أميراً قلباً وقالباً؟ بعد ذلك سألتني:

- ألا تذكرك المرآة في شيء تحبّه كثيراً يا عبدالرحمن؟!

قلت لها وأنا منشغل بترتيب الطربوش على رأسي:

- الأمير الواثق من نفسه هو مرآة نفسه فعلاً.

مرت أمامي، وأنا أحدق في المرآة وقد اقتربتُ أكثر من سميّة، هيئات وأحداث غريبة عاشها أمراء آخرون. أصبحت نفسي ممتلئة بالغبطة للحظات، ولكن بدا لي وكأن المرآة قد أصبحت ممرّاً للتلك الأحداث إلى عيني ونفسي. فكرت في أن إطالة الوقوف أمام المرآة قد تفقدني ألفة الأشياء الأخرى والانهمام بصورتي. ولأن الأفكار تأتي متداخلة ومتشابكة فإني لم أعد أعرف لا النفي ولا الإثبات لأي حالة أو أية فكرة حتى لكأن المرآة تحولت إلى أداة هدم أو هي بالأساس أداة هدم للذات وكذلك لمحيطها. آنذاك سمعت سمية تقول:

- لم تقل لي بماذا تذكرك المرآة يا عبد الرحمن؟

- بماذا يا سمية؟ المرآة لا تذكرنا بشيء. ربما بالسنوات التي مرّت. ربما بالماضي. ولكنها تجعلنا نعرف أننا كائنات زائفة، هشّة ورخوة وناعمة إلى حدّ بعيد. إنها ترسم صورنا كما هي لا كما نريد أن نكون. تساعدنا أحياناً في تذكّر ما مضى، ولكنها لا تنطق بأية نصيحة. حصيلة الوقوف الطويل أمامها ترعبنا لأنها مشرقة وساذجة وصامتة. أمام المرآة لا أستطيع أن أكون إلا ذاتاً غبية ومنتفخة يا سمية.

- أمام المرآة تستطيع أن تكون أمام الحقيقة الجارفة. الحقيقة

الجارفة مثل شلالات المياه المتدفقة.

- ربما هذا إحساسك أنت يا سمية. أما أنا فالمرآة تجعلني بلا ذات، إنساناً يحتاج إلى الشفقة. إلى شهادة من نفسه المتألمة لنفسه المتبجحة. إنساناً مسطّحاً بلا أبعاد مثل النساء.

- ضحكت سمية من كلامي ثم قالت:

- كأنك تحتاج إلى العزاء يا عبدالرحمن، وأنت خارج للقاء رجالك.

- بل قولي إنني أحتاج إلى شيء آخر يا سميّة. هل تعرفينه، ذلك الشيء الذي أحتاج له يا حبيبتي؟ إنه ليس العزاء بل هو الحب.

آنذاك تنحّيت عن المرآة وذهبت لأجلس على الأريكة. وضعت الطربوش على الطاولة ثم ناديت عليها:

- سمية، أشعر بأن الفضائل تثقلني. بل تجعلني رجلاً سقيماً. إن جسدي هو الذي يحتاج إلى العزاء.. اجلسي إلى جانبي.

كانت سمية مثل غيمة ناضجة بالمطر وعلامات الخصوبة والإغراء. وكنت أنتظر أن تجلس إلى جانبي كما ينتظر الفلاحون أية غيمة حتى وإن كانت عابرة أو كاذبة. بدت مضطربة، ولكن ذلك الاضطراب كان نوعاً من الإغراء، بل هو تخثر الدم في العروق، هو نفسه الذي يجتاحني أنا في هذه اللحظات. وبأي حال من الأحوال لم يكن لي أن أثبت ما إذا كانت سمية راغبة في مضاجعتي في ذلك الوقت، وبالذات في الصالون، لكن تحت ثوبها الخفيف والناعم رأيت أن إرادتها قد أصيبت بعطل ما. دافعت عن إرادتها المغلوبة بمهارة رائعة في جعلي أكثر هدوءاً،

ولكن التواءات الرغبة جعلتها أمامي عارضة حقيقية من عارضات الأزياء الرشيقات، المتمايلات مثل الأشجار، المنهمكات في إغواء الرجال، الماشيات على حواف القلوب، الأليفات مثل كلاب الصيد، المزوّقات للألم، والخاليات من أي عقل. والممتلئات بالشهوة فقط.

أخيراً أخضعت سميّة إلى نزوتي. ربما كان لا يليق بأمير أن يضاجع أميرته فوق الأريكة ثم يمرغها على السجاد، ثم يمزّق ثوبها بيديه ثم يمزق كيلوتها بأسنانه.. ثم يجعلها تحبو على ركبتيها وقد وضع على ظهرها «الشارب» الأحمر.. ثم يسكب فوق ردفيها ماء الحياة.. ثمّ يدلكها بذلك الماء، ثم يطلي وجهها بتلك الرغوة ذات المذاق المالح و.. يتركها أمام المرآة. مراراً وتكراراً قلت لها كلمات محقّرة. ومراراً وتكراراً سمعتها تهذي بكلمات مبهمة ثم تشهق راضية متلذّذة مفعمة ومنفرجة. كان «الشارب» الأحمر الكشمير يجعلها أكثر شبقية كلما مررته على ظهرها النحاسي. وكنت أنا كفارس قد امتطى جواداً أصيلاً، سلس القيادة يرتع في نعيم لا يريده أن ينتهي. نعيم بلا نهاية. غير أن كل ذلك البهاء كان يحمل شقاءه، كل ذلك العنفوان كان يحمل ارتخاءه. وهذه هي لحظات القسوة الطارقة على ألواحنا كقدر محتوم.

لم يكن من بدّ أن أهرب من الواجب. فصحوت على الواجب، وكان ذلك في حدّ ذاته أردأ أنواع الصحوة. فكلّ واجب أتى بعد نزوة هو عقاب على تلك النزوة. جمعت أشلائي ودخلت إلى الحمام. كان السخف والتحقير للذات الغشاشة قد حطّا عليّ بثقل، ولكن حين نظرت إلى المرآة، وجدت وجهي أكثر إشراقاً وتوهجاً. لا أعرف إن كان حاملاً لعلامات السذاجة أيضاً؟ وفي تلك اللحظة فهمت أن المرآة ليست صامتة

كما كنت أعتقد، بل هي ناطقة، ناطقة بالروح، ناطقة بتلك المسافة التي توجد بين ما كنّا وأين أصبحنا، تلك الأحاجي التي كان يصعب فكّها في الماضي، وكذلك بذلك المرح الذي يخلع عنّا القسوة والتخثّر والغلاظة.

كنت محصّناً ضد الإهمال والتراخي والكسل ومتسربلاً في نسيج الواجبات إلى حدّ لا تطيقه حتى سميّة الحريصة على نجاحي، ولكن من حين لآخر يتسلّل إليّ ذلك الكسل اللعين والممتع، ومعه تتراقص أمام عيني راحة البال والاستسلام لمداعبة الزمن. مع ذلك، فإني روحي الحرة والنبيلة والتي هي على قدر كبير من الملل لا تترك لي أية فرصة للتلاعب أو التخابث. فهي تنتفض من شدة توقها إلى الكمال وتبعث بداخلي برقاً يدعوني إلى القيام بالواجب في أحلك وأعتى الظروف. ثم تجعلني قاسياً مع نفسي ومع الآخرين. ومن هم الآخرون؟ هم بالتحديد مجاهدو «حدائق السماء» الذين يريدون أن يقهروا اليأس والبؤس. هم صانعو المستقبل الذي يقهقه لنا من بعيد ساخراً مرة من أحلامنا وسكران ومرة من نجاحاتنا وقلقاً مرة من طول انتظارنا. أوَلم أعلّمهم الشدة مع الذات حتى يكونوا أصحاب أرواح كبيرة وجامحة؟. أوَلم أعلّمهم تقديس الواجب، حتى نتحول جميعاً في النهاية إلى شياطين يلعبون في الظلام مع شياطين آخرين أكثر منهم بأساً وقسوة وخبثاً؟

في الحقيقة لا أدّعي أنني علّمتهم أكثر من أن يكونوا منصتين جيدين لنبض الحياة. ففي قاع كل إنسان يوجد شيء غير قابل للتعليم، أو بالأحرى يوجد شيء لا ينضب هو نبض الحياة. والحياة التي أقصدها هنا، هي ذلك العيش المتلاطم والمتناقض. ذلك العيش الذي يجرح قناعاتنا الأولى ويمرغها في

التراب، ثم يصقلها جيداً مثلما يصقل «الغرانيت» لكي يكون في النهاية خالياً من حماقة القوة وحاملاً للمعان الصلابة.

وأنا أودع سميّة خلف الباب الخارجي، سمعتها تكرّر لي ما قالته قبل نصف ساعة تقريباً:

- عبدالرحمن، لم تقل لي إلى الآن بماذا تذكرك المرآة!
- إنها لا تذكرني بشيء. إنها تدعوني لأن أكون حذراً من الزمن.
- ومن الشهوات أيضاً، ربما، يا عبدالرحمن!
- ها أنك رشيقة يا سمية. أحياناً أقول هذه المرأة متحذلقة كغيرها، أحياناً أقول إنها لا تظهر رشاقتها إلا في الجنس، أحياناً أقول إنها تبحث عن رغبة جديدة. لكنني الآن وجدتك رشيقة. رشيقة فعلاً في ذكائك.

وحين أدركت أن سميّة هزمتني في ذلك الصباح وأنها كانت تبحث عن مناطق الضعف فيّ لكي تتمكن من السيادة، قلت في نفسي: لا شيء أغرب من النساء. فهنّ والحقيقة عدوان يتقاتلان على كل أرض، ومنذ بدء الخليقة. لكن ولا واحدة انتصرت على الأخرى. الحقيقة لم تجعل من المرأة كائناً سوياً، والمرأة التي استبدلت الحقيقة برغبة جامحة نحو التملّك والسيطرة، عاشت دائماً ما دون أو فوق الحقيقة. كل شيء، حتى حماقاتها وغباؤها وادعاءاتها ومقتها لنفسها، كل شيء في رأسها وقلبها وتحت عانتها يوحي برغبة واحدة هي رغبة التملّك. ولأن مثل تلك الرغبة الجامحة تعبّر عن خوف دفين، عن انحراف فطري أو عن خوف من فقدان غريزة الحنان، فقد رأيت أن أضمّها إلى صدري بحنان قبل أن أفتح الباب وأخرج.

٢٣

منذ الوهلة الأولى رأيت الأميرة سميّة تطفح بالحنان والمحبّة والعطاء. ويبدو لي أن الحنان طاقة لا تنضب مع الأيام، هو غريزة، غريزة غير قابلة للجفاف والنضوب. ولربما كانت غريزة متعارضة أساساً في تكوينها مع الحقيقة، حقيقة العيش المتناقض، العيش الراقص على نغمات كثيرة ومتعددة. فإذا تخلّت المرأة عن غريزة الحنان شعرت بالخواء، أما إذا استبدّ بها البحث عن الحقيقة، فإنها كذلك تتعرض للنكوص والانكماش والانطواء. كان كل شيء يبدأ عند سميّة من نقطة مرسومة في الفراغ. ثم تتحسس خطواتها عن طريق الحاسة السادسة، تلك الحاسة التي تعوض بها المرأة عجزها عن بلوغ منطقة الأشياء. وأستطيع أن أقول اليوم وبعد نحو سنتين من المعاشرة، إن سميّة تملك غريزة حنان عارفة حتى وإن كانت لا تملك منطقاً أو عقلاً. كانت تملك قدرة فائقة على تزيين الحقائق وإغوائها حتى تجعلها مستسلمة لما يسمّى بغريزة أخرى، هي غريزة الموهبة. إن سميّة هي التي جعلتني أعرف أن الموهبة غريزة هي أيضاً، وأن الحبّ موهبة كما

الإبداع. وأن القدرة على العطاء هي غريزة أنثوية أو هي موهبة مخبأة تحت رداء الحياء الذي يفسد عليها أحياناً التلذّذ بذلك العطاء، وقبل ذلك يفسد عليها متعة الكشف عن موهبتها.

طرحت عليّ علاقتي بسميّة تساؤلات مبهمة ومريعة في الوقت نفسه. كنت لا أعرف كيف أجيب نفسي ما إذا كنت خادماً للحقيقة بوسائل جيدة أو بوسائل سيئة، أو ما إذا كنت طامعاً في مال سمية أكثر مما كنت طامعاً في تحقيق آمال سمية، أو كنت أسلك طريقاً ملتوية لبلوغ النضج والمجد مع سمية، أو كنت محظوظاً مثل أمراء القصص الخيالية، أو ما إذا كنت خجولاً من تلك العلاقة أو معتزاً بها، أو ما إذا كانت تخضعني لرغباتها الدفينة أو هي روح كبيرة وذات كرم غير مقيّد بأية شروط، أو ما إذا كانت تريد التوبة والتكفير عن ذنوب ثقيلة وخطايا ومعاصي ارتكبتها هي أو أحد الذين أحبتهم؟

الشيء الوحيد الذي كنت متأكداً منه أن الكرم كثيراً ما يكون من علامات التوبة في مراحلها المتقدمة، ولقد كانت سمية كريمة ومعطاءة، لم تبخل عليّ بالمال ولا بالحبّ والحنان، ولا حتى بالخوف ممّا كانت تسميهم بغربان الشؤم. كانت تدعو لي في صلواتها بالتوفيق والحماية الربانية والرشد وامتلاك الحكمة. وكانت تقول لي إن غربان الشؤم غالباً ما يحومون فوق الرأس دون أن ننتبه إليهم، لأنهم يظهرون في لحظة الطمأنينة القصوى. وكنت أجد في كلامها ونصائحها أحياناً الفطنة وأحياناً أخرى الرغبة في التطهر عن طريق خلاصي من أحابيل الشؤم والمكر. وما من شك أن تفسير التوبة لكل تلك التصرفات النبيلة وذات الأريحية، كذلك لكل تلك الإغواءات التي تلفني بداخلها مرة تلو الأخرى، كان أكثر التفسيرات معقولية

ورجحاناً في ذهني. وحين تكشفت لي سميّة أكثر من خلال حكاياتها وحياتها السابقة، ازددت قناعة أنها تبحث عن التوبة، عن الراحة النفسية. لم يكن ليخالجني أي تفسير آخر. فهي قد تكون ذات أخلاق نبيلة وتريد أن تساهم في خلاص العالم عبر انتفاضة ضد الزيف والألم، وهي قد تكون امرأة تعرضت للإهانة وسلب حريتها وتريد أن تستعيد كرامتها واعتبارها، وهي قد تكون من طبيعة فوارة وحساسة لا تتحمل الظلم أو الاستهتار. ولكن الأرجح أن سميّة تبحث عن التوبة والخلاص. عرفت ذلك من خلال بعض العوارض التي كانت تنتابها بين حين وآخر. كانت تمرّ بفترات هادئة ثم تنطلق إلى شهوة عارمة حتى أراها قد أصبحت امرأة فاجرة. وهذا ما يمكن أن يسمّى بنوبة استعادة الذات القديمة أو الذات الفاجرة، أو بنوبة لحظة انتفاضة الذات المعذبة. وكانت غريزة الحنان والعطاء أحياناً تنغلق ثم تنفتح لتصبح دفّاقة، حتى أراها وقد أصبحت ساذجة أو زاهدة أو متعففة عن وسخ دار الدنيا. وهذا هو مؤشر آخر إلى أنها تريد التخلص من الذات المالكة والمستحوذة. ثم كانت ذات سجية مريحة ومزاج عذب وخفيف، غير أنها كانت تنقلب أحياناً إلى امرأة تحمل معاول كثيرة لهدم خيالات السعادة إلى حدّ كنت أراها وقد اجتازت حدوداً كثيرة، عائدة إلى طفولتها، إلى عدم النضج، أي إلى الندم على كل ما فعلت وما لم تفعل. وهذه أيضاً نوبة أخرى من نوبات التوبة لدى سميّة.

ما كان يثير دهشتي حقاً في سمية، ليس توقها إلى التوبة أو شغفها بالله، وإنما تحولاتها التي كانت تبدو لي أحياناً مريبة ولجوجة. لم تكن تفتقر إلى الرهافة أو النبل أو الجذب السحري. ولكنها كانت تفتقر إلى التحكم في

خزان طاقتها الداخلية، طاقتها على الحنان وولعها بالطبيعة الأنثوية حتى لتبدو وكأنها صوفية أو جاهلة أو خجلى من ماض قديم أو عار ثقيل.. حتى لتبدو لي وكأنها مراهقة عجيبة وولهى وشغوفة ومستسلمة على نحو مهين. على تلك الخلفية، كنت أحذر من تقلباتها وتحولاتها. فالنساء ذوات الرهافة الجدية، التي تنقلب إلى الضدّ، لا يغفرن أبداً لأخطاء الرجال خصوصاً إذا كانوا موصوفين بالعفة أو واعدين بالأمل والخلاص، أو حاملين لآمال جديدة. وإذ كنت متأكداً من أنني لن أخيّب آمال سمية، فإنني كنت أخاف أن أعطب إحساسها ببعض الكلمات. كانت تريدني أن أقول لها كلاماً قبيحاً ووسخاً وحاملاً للدناءة والتحقير والوضاعة حين تكون في حمأة المضاجعة، ولقد فعلت ذلك معها تكراراً ومراراً ولكنني أصبحت أمتنع عن ذلك كابتاً رغبتها. ويحدث أحياناً أن أنطق بكلمة واحدة مثل «يا فاجرة»، فأتركها تتلوى وهي تشهق راغبة في سماع أكثر من ذلك كي تحدث عندها الجلبة والأبهة، ولكن فمي لا يعود يتكلم، بل يتحول إلى مطلق لآهات مطلية بالرغبة وثملة بألوان من التفخيم والوقار المحتشم. كنت دائماً أعتقد أن هناك لذة أخرى تأتي مع تذوق الاحترام، وهي لذة تنم عن عراقة وثقافة، غير أن سمية ربما كانت تريد أن تختبر عراقتي أو حماقتي، لم أمكنها من لمس العلاقة الفارقة إذ لم أكن متستراً أو متنكراً ولا مستهتراً أو متصابياً، ولذلك فقد كانت تقوم بعد كل مضاجعة وكأنها أكثر حيرة وأكثر شغفاً. كنت أعتقد أن العبارات السوقية قد تنهمر من أفواهنا من أجل أن نشعر بأننا نفعل شيئاً مدنّساً، وفي حالة سميّة ربطت تلك الرغبة في التحقير بتوقها إلى التوبة أو بالتوق إلى استعادة ذكريات قديمة. بالإضافة إلى ذلك، فإن الصمت

أو الامتناع عن قول أية عبارات سوقية هو إجلال لفعل الحبّ باعتبار أنه فعل مقدّس لا فعل مدنّس. ولذلك فقد كنت أقوم بفعل كل ما ترغب فيه سمية دون أن أقول لها ما كانت ترغب في سماعه وهو يندلق على جسدها كماء وسخ. كانت صفاقة جسدي بالغة وبليغة ولا تحتاج إلى صفاقة عباراتي. كنت ألمس وألحس وألعق وأناطح وأقبل وأبوس وأعض لكني لم أكن لأنطق بأكثر من كلمة أو كلمتين سوقيتين. وأستطيع الآن أن أتباهى أنني تغلّبت على تلك النزعة السوقية لدى سميّة، إذ أصبحت مع الأيام أكثر رفعة ونحن نتضاجع. لقد كفّت الألفاظ والعبارات السوقية عن أن تهزها أو تجعلها أكثر تهيّجاً. وأعتقد أنها خرجت من حالة العودة إلى البدايات أو حالة التذكرات الأولى، أو حالة الشعور بالدنس الذي ظل يلازمها لوقت طويل. لم تعد الألفاظ التي تريد سماعها هي أراجيح للذة المستعادة. فبعد تجربة العيش والمعاشرة المتكررة، ازدادت علاقتنا الجوانية تشابكاً وتداخلاً. بدا أن الحبّ الذي نفعله لا يحتاج إلى تقبيح أو توصيف سلبيّ لكي نتذوقه. بدا لي أن ذلك ما يحتاج له رجل متعدد العلاقات أو امرأة متعددة الذكريات. ففي كل علاقة حبّ أو غرام، لا يمكن للفتنة أن تسمو إذا كانت لا تأتي إلا على عكاز الألفاظ السوقية، كما لا يمكن للإثارة أن تنمو إذا كانت الأحاسيس الجوانية مختلفة المصدر أو تسكن في سوء الفهم أو تنطق بلغتين مختلفتين. لقد جاهدت كثيراً لكي أجعل أحاسيس سميّة مشابهة لأحاسيسي حتى أضمن استمرار تلك العلاقة مزدهرة، وأجعل من سميّة أميرة جديدة ومنتشية.

٢٤

يجب أن أوضح منذ البداية بأنني لم أعرف قصة الأميرة سميّة إلاّ مؤخراً. كذلك من الأفضل أن أعترف منذ البداية بأنني لن أفلح أبداً في إعادة سرد قصّة الأميرة سميّة كما سمعتها من فمها مهما بلغت موهبتي في فنّ السرد. فهي نفسها قد اعترفت لي بأنها روتها خلال حياتها ثلاث مرّات فقط، ولكن في كل مرّة بطريقة مختلفة. ولأنني أخاف من تحريف القصة أو تحميلها بعض التأويلات أو إهمال بعض المقاطع المركزية، فسأحاول قدر المستطاع أن أعيد سرد ما سمعته من سميّة.

لا بد لن أقول هنا إن سمية حين قررت أن تروي لي قصّتها، اشترطت عليّ أن لا أطلب منها ثانية إعادة سردها لأن ذلك يسبب لها أوجاعاً كبيرة. فقد قالت لي وهي تحاول إخفاء بعض آلامها: «من الجنون أن نستمرّ في إضاعة الوقت الجميل باستعادة الأوقات الحزينة». ثم أضافت: «إننا لا نستطيع أن نفتح جراحنا متى نشاء، فهي ليست صندوقاً خشبياً نضع فيه بعض حاجاتنا، ثم لا تنس يا عبدالرحمن أن النسيان قد طوى

بعض الفصول ولا أريد أن أعود في كل مرّة إلى الحفر في أعماق الألم. من الممكن أن يرى الآخرون في قصتي شيئاً ممتعاً، ولكنني لا أستطيع أن أمتع الناس وأتألّم أنا. إنني أرى في طفولتي ومراهقتي وجزء كبير من سنوات شبابي أكثر من قصّة عبودية مذلّة جداً للذات البشرية».

«أرادوا في البداية أ يحجبوا عني لقب «أميرة» منذ ولادتي في مطلع الستينيات ـ هكذا بدأت سميّة في سرد قصتها ـ لقد قرّر مجلس العائلة منذ ولادتي أن يضعني في دار حضانة للأطفال اللقطاء. ولقد ضغطوا على أمي لكي تقبل بذلك وإلاّ تعرضت للخطر، لكنها قاومت طويلاً من أجل أن تحتفظ بي إلى جانبها وقد أقنعت أبي، الأمير الضعيف الشخصية وهو ابن أخ الملك الحاكم، بأن تحتفظ بي في بيتها دون أن أحتفظ أنا بلقب أميرة (كانت تسوية ذكية جدّاً..). وحين كبرت وأصبحت صبية تبلغ من العمر ست سنوات، لمحت للمرة الأولى أبي الأمير سفيان. سألت أميّ من يكون ذلك الرجل الذي يدعى سفيان؟ فقالت لي: إنه خالك. ولكنها بعد نحو عام عادت فاعترفت لي بأن سفيان الذي أصبح يأتي من حين لآخر إلى بيتنا هو أبي، وهو ابن أخ الملك. والحقيقة، أني فرحت آنذاك وأنا أكتشف أن أبي أمير، وأن الملك عمّ أبي. لكنني حزنت فيما بعد حين اكتشفت أن أبي لا يريد أن يعترف بي كابنة شرعيّة له خوفاً من عمّه الملك ومن ومجلس العائلة الذي هدّده بالعزل والنفي إذا ما تجاسر واعترف بي كابنة شرعية له. وبسبب زلّة لسان من أبي وهو يتحدّث إلى أميّ ذات مساء عن رحلة صيد قام بها بصحبة عمّه الملك، اكتشفت أن أمي ربما كانت جارية في قصر الملك الحاكم حين كان لا يزال ولياً للعهد. قال أبي ـ بحماسته المعهودة التي قد تكون أوقعته في

مطبات كثيرة ـ لأميّ، إن عمّه سأله ما إذا كانت «أم سميّة» لا تزال تحن إلى الرقص وتتقنه كما كانت تفعل في السابق. ضحكت أمي باحتشام ثم قالت لأبي: عمّك الملك كان بديناً جداً. لم يكن يقوى على الحركة. كان مدفوناً في كيس من الشحم وكان يحب الجلوس إلى طاولة الروليت. وحين اكتشفت أمي أنني بدأت أنتبه لكلماتها وقد توقفت عن اللعب بدميتي، غيّرت الحديث قائلة لأبي: آمل أن يفهم عمّك الملك أن سميّة ابنة بريئة، وابنة شرعية وتستحق لقب أميرة. فهي ليست أقلّ من عشرات الأميرات الأخريات اللاتي ولدن من خادمات أو جاريات زنجيات».

حين أصبحت سميّة في سنّ المراهقة، عرفت من خلال أمّها، أن الملك الحاكم قد وعدها بالزواج الشرعي حين كان ولياً للعهد لكنه نكث وعده. لم تقل لها إنها عاشرته طويلاً ثم أحالها بطريقة ملتوية إلى ابن أخيه، والد سميّة، ثم عاد ليطاردها من أجل أن يجعلها إحدى محظياته أو عشيقاته وحين رفضت ذلك وقد أصبحت زوجة لابن أخيه، أراد أن يعاقبها فأبعدها عن العائلة والقصور الملكية ثم منع عن ابنتها سميّة لقب أميرة. كل هذا عرفته سمية فيما بعد ـ حين أصبحت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ـ عن طريق خالتها وقد انتقلت إلى القاهرة لمواصلة دراستها في الجامعة الأميركية.

وتضيف سمية: «انتقلت إلى القاهرة مع والدتي التي تمكنت بعد معاناة طويلة من إعادة لقب «أميرة» لي بعد أن هددت والدي الأمير وعمّه الملك بنشر كل شيء في الصحافة إذ لم ينصف ابنتها ويعترف بها كابنة شرعية. ولكن أمي توفيت بعد سنة فقط من انتقالها للسكن في القاهرة

بحيث بدت وكأنها تنتظر العودة إلى بلادها لتموت فيها بين أهلها».

قالت لي سمية وهي تمنع دموعها من الانهمار: «في القاهرة توفيت والدتي على إثر إنفلونزا قوية وكانت لا تزال جميلة وفاتنة. كانت قد تجاوزت الأربعين بثماني سنوات فقط. وأعتقد أنها كانت تريد أن تموت بعد أن تخلصت من «السجن الملكي» الذي وضعت فيه إذ هجرها أبي وتزوج سيدة أخرى من بلاده. كانت تنتظر، بصبر السجين وبطاقة اليائس، أن تتحرر قليلاً. وحين تحرّرت أرادت أن تموت. لم تكن تكره أبي بل بالعكس كانت تحترمه كثيراً وتحبّه كثيراً. وكان ذلك واضحاً جداً بالنسبة لي إذ لم أسمعها مرة تذكره بالسوء أو تستقبله ببرودة حين كان يأتي لزيارتنا خفية. ولكنها كانت تختزن كراهية مقيتة لعمّه الملك واحتقاراً شنيعاً لشخصه إذ كانت تسمّيه «بالدب النتن» مرة وبـ «الثور الهائج والوسخ» مرة أخرى.

تركتني أمي في مهبّ كل الرياح. كنت ناضجة ولكن بحاجة إلى الحنان، ذلك الحنان الذي ذهب مع أمي فوجدته في خالتي، غير أن أبي قد حذّرني من زيارة خالتي ثم أرسل بتهديداته إذا ما عصيت أوامره. كانت خالتي مغنية ذات صوت حلو وقد علا نجمها في سماء الفن في ذلك الوقت. وككل فنانة فقد طبعتها شائعات مغرضة حتى بدت وكأنها مستهترة. لم أكن لأجرؤ على عصيان أبي، فقد كنت أخاف أن يحرمني من متابعة دراستي وكذلك من ميراثي في الثروة. فالقصر الذي كنت أقيم فيه في منطقة المعادي بالقاهرة، كان مسجلاً باسمه وقد وضع في تصرّفي سائقاً وخادمة واثنين من الحرّاس، أحدهما كان يعمل في سفارة بلاده أيضاً. وهكذا لم أكن أستطيع أن أتصل بخالتي السيدة «ريمان» إلاّ

عن طريق الهاتف. كنت أكلمها يومياً تقريباً ولكن لم يكن في الإمكان أن أزورها في البيت الذي يقع في الزمالك. لم تكن هي الأخرى لتجرؤ على المجيء إلى بيتي خوفاً من أن تسبب لي الحرج، ولكنها من حين لآخر كانت تأتي إلى كافتيريا الجامعة. كانت تصغر أمي بنحو سنتين فقط. وكانت تبدو فاتنة وجميلة وحلوة المعشر وذات مزاج مرح يجعل عينيها الخضراوين اللتين ورثت لونهما عن أمّها الإسطمبولية ذات الدم السلافي، ترسلان لمعاناً من شأنه لو صوّب جيداً أن يخترق كتلة من الحجر. لم تكن خالتي لتبخل عليّ بالمحبة والحنان، ولطالما قالت لي: أنت بمثابة ابنتي يا سمية. لم يشأ الله أن يرزقني بابنة حلوة مثلك ولكني أشعر أنك ولدت لتكوني ابنتي أنا أيضاً.

ذات يوم جاءني الحارس أحمد ببرقية قال لي إنها وصلت إلى السفارة توّاً. فتحتها بسرعة فإذا أبي يهددني بالحرمان من الميراث إذ بلغه مرة أخرى أنني التقيت بخالتي «ريمان». لا أعرف من الذي أخبر والدي بلقاءاتي مع خالتي في كافتيريا الجامعة، ولكن أميرة مثلي حين تلتقي بفنانة مثل خالتي ريمان، لا بد أن يصبح لقاؤهما حدثاً في مانشيتات الصحف. هاتفت والدي في الحين وأخبرته بأنني لن أكرّر ذلك أبداً. ثم رجوته أن يكون أكثر تفهماً لأنني لا أستطيع أن أمنع خالتي من المجيء إلى الجامعة. قال لي بلهجة حادة: أنا الذي سأمنعها. سأرسل برقية إلى السفارة بوجوب منعها قانونياً من لقاء ابنتي. حاولت أن أثنيه عن ذلك حتى لا تنتقل خلافاتنا العائلية إلى الصحف، ولكنه فعل ما رآه صائباً في ذلك الوقت.

تابعت دراستي في العلاقات الدولية بهدوء لمدة ستة أشهر. وفي العطلة

الصيفية طلبت من والدي أن يسمح لي بزيارة الولايات المتحدة فلم يمانع. ذهبت إلى فلوريدا ثم إلى واشنطن ونيويورك وكنت بصحبة الخادمة سميرة والحارس أحمد. وحين عدت إلى القاهرة اعترفت لأحمد، وكنت قد عملت على كسب صداقته خلال الرحلة، بأنني لا أستطيع ألاّ ألتقي خالتي، وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أعصي أوامر أبي. ثم قلت له: فكّر يا أحمد، لو كنت مكاني ماذا كنت ستفعل؟. في تلك اللحظة رأيته ذابلاً.. ثم رمقني بنظرة رشيقة وقال:

- لا أعرف يا سموّ الأميرة. إنك تضعينني في أصعب مواجهة مع ضميري.
- أنا أعتمد على ذكائك وحساسيتك، ولكني أعدك بأنني لن أتركك في العراء. إن أبي سيغضب لو علم بذلك، ولكني سأجعله يندم لو تصرّف معك بعنجهية وعسف.

كان أحمد يكبرني بنحو خمس سنوات. كان وسيماً ومواظباً ومنطقياً. انتدبته السفارة للعمل قبل مجيئي إلى القاهرة بنحو سنتين، كما أخبرني، وقد أخضع لتدريبات على استعمال الأسلحة الخفيفة ثم أخضع لاختبارات قبل أن يحمل مفاتيح السفارة. ولقد اختاره أبي لحراستي بعد استشارة السفير الذي امتدح أحمد كثيراً واقترحه لهذه المهمة لأنه أكثر شباب السفارة أمانة وحرصاً، حسب عبارة السفير كما روى لي ذلك أحمد. وما لفت انتباهي فيه هو أنه كان مؤدباً جداً وخجولاً وصبوراً وتكشف نبرة حديثه معي عن ثقافة ودراية بالحياة. وأثناء الرحلة إلى أميركا ازداد إعجابي بسلوكه الدمث وكذلك بصبره وقدرته على التحمل وابتعاده عن النزق أو الطمع الذي يتحلّى به أغلب الحرّاس.

مع الأيام بدا لي أن أحمد بات متعاطفاً معي. لم ينطق بأي شيء يجعلني متأكدة من تعاطفه ولكن تصرفاته أوحت لي أنه سيغضّ الطرف لو رآني مع خالتي. لم أستعمل معه لا طريق الغواية، ولا إغداق الهدايا، ولكنني كنت أعامله باحترام شديد لا يعرفه أيّ حارس لا مع الأميرات ولا مع الأمراء. وفي أحد المساءات وكان ينتظر خروجي من الجامعة ناديت عليه باسمه من بعيد قبل أن يرمقني كي أدغدغ حواسه. ولما اقترب مني قلت له وأنا بين المزح والجدّ:

ـ ما رأيك لو تأخذني أنت والسائق إلى خالتي؟ إنها تحتفل بعيد ميلادها هذه الليلة.

رجاني أن لا أعيد هذا الطلب أمام السائق ثم قال:

ـ أعتقد أنك تمزحين.

ـ لا يا أحمد. ما قيمة أن أعيش وقد انتزعوا مني حق زيارة أهلي؟ هل ترضى أنت بذلك؟

صمت أحمد وبدا متألماً، ثم ابتسم قليلاً وقال:

ـ لا تكرّري هذا أمام أحد. حذار السائق. وسوف أفكر في الموضوع فيما بعد.

حين وصلنا إلى القصر في منطقة المعادي انتابني إحساس مفاجئ بأن الحصار الذي ضرب من حولي قد بدأ يتلاشى. رفعت رأسي إلى الأعلى وأنا أتمشى في الحديقة ثم قلت: يا رب لا تجعلني ألتجئ إلى الخطيئة وأعطني القوة لأصفح عن ذنوب والدي ووالدتي. في تلك اللحظة رأيت أحمد يتقدم مني ويقول لي:

ـ هل تريدين الذهاب إلى خالتك؟

كاد قلبي أن يخرج من صدري، وقد أيقنت أن أحمد استسلم أخيراً لعذابي. كنت أدرك أنه يرتكب مكروهاً قد يدفع حياته ثمناً له. وكنت أعرف أن والدي يملك من القسوة ما يجعله منحطّاً مثل عمه الملك. ولكن قوة الحياة كانت تمنعني من التفكير في العواقب، ففي النهاية ليست حياة كل شخص إلاّ مواجهة مع حياة شخص أو أشخاص آخرين.

اصطحبني أحمد إلى خالتي. وقد رجوته أن يدخل إلى بيتها ليتعرّف إليها عسى أن ينزع من رأسه الصورة التي نسجت حول خالتي.. وفي الصالون قدمت أحمد إلى خالتي وأنا أقول لها: هذا الرجل هو الذي أتى بي إلى هنا، ولولاه لما حضرت عيد ميلادك. رأيتها تبكي بحرارة وهي تنهار فوق كتفي. وبعد عناق طويل قالت وهي توجه كلامها إلى أحمد وقد أحسّت بحدسها الأنثوي أن ما من علاقة بين امرأة ورجل إلاّ تنتهي بقصّة حبّ:

ـ هذه ابنتي.. وأرجو أن تبقى أمانة بين يديك يا أحمد.

استأذن أحمد للخروج قائلاً إنه سيعود إليّ بعد حوالى ساعتين. آنذاك هاجمتني ذكريات كثيرة لا تريد أن تمضي. تذكرت أمي وهي تموت غير آسفة على الحياة. ثم تذكرت أبي وهو يغريني بكلمات شبه ميتة.. ولكن خالتي التي عادت إليها نضارتها وتألّقها، دفعتني بقوة إلى خارج الصالون الصغير وهي تطلق زغرودة قوية قائلة لصاحباتها: الأميرة وصلت، لقد وصلت الأميرة. انتهى ذلك الحفل بالنسبة لي حين دقّ جرس البيت وطلب مني أحمد العودة إلى القصر. كنت ثملة ومنتشية رغم شعوري الداخلي بأنني أشبه أي مريض يريد أن يطيل في حياته بأي ثمن.

* * *

في الطريق سألني أحمد ما إذا كنت ارتحت قليلاً من الوحشة؟ فقلت له: حياتي لم تعد ملكي يا أحمد. أنت تعرف أن سلالتي تتكوّن من القسوة والغلظة. ولا بد للمرء حين يكون في مثل حالتي أن يكون مثل الشفرة وإلاّ خسر المعركة. لا أدري ما إذا كان أحمد قد فهم ما كنت أقصده، ولكن ردّه أوقعني في حذر الاندهاش والتأويل المبهرج. لقد قال لي: الشفرة تلمع مثل البرق، عليها أن تقطع حتى تكون برقاً. وبعد لحظات صمت عاد ليقول لي: لو كان متاحاً لنا أن نصحّح أخطاء آبائنا وأمّهاتنا، لما وقعنا نحن الأبناء في هذا العذاب. ثم أضاف: السعادة دائماً توجد في مكان آخر. أو لعلّها هي شيء آخر. هو ذلك الشيء الذي نرغب أن نفعله.. سألته:

- وهل تنتهي السعادة برأيك حين نفعل ما كنا نرغب فيه؟ فقال:

- لا أدري. أكثر الناس حظاً يفتقد السعادة حين تكون قد اختفت.

أعطاني أحمد بكلماته القوة والانبهار. وإذ رأيت أنني انتصرت عليه حين جعلته يستجيب لطلباتي كلما اشتقت لرؤية خالتي، فقد كنت أشعر من ناحية أخرى أنه هو الذي انتصر عليّ حين جعلني أتحرك بمشيئته في البداية ثم جعلني أشتاق للحديث معه وأرغب في مصاحبته. لم يعد أحمد بالنسبة لي مجرد حارس مأجور، بل أصبح يمثل الرجل الذي قد أكون معه سعيدة. عشت موجات متضاربة بين التألق والانطواء، وأخرى بين الحماسة والفتور. ولم يكن بإمكاني أن أبوح بإعجابي به، إلاّ حين شجعتني خالتي على ذلك وهي تقول لي:

ـ لا تتركيه يضيع منك. لا تتركي الأمر نائماً في أحشائك ـ ثم أضافت ـ: الحبّ يشبه اللقيط. هو لا يعرف أباه، ولكنه يعرف أمّه جيداً. في البداية يكون حمله ثقيلاً على الأم لأنه عار. ثم يصبح طيفاً من الرغبات والاندفاعات لفصل الاشتباك بين الحياة والموت.

هكذا بدأت فكرة الزواج من أحمد تولد مع فكرة الحبّ. منذ البداية قلت لنفسي: لن أسمح لنفسي أن أنساق مع المغامرة إلاّ إذا كنت متأكدة من أنني سأتزوج أحمد. إننا غالباً ما نفرح لفكرة جديدة تنبت في الرأس. هذه المرة وجدت أن الفكرة تستظل بشجرة العاطفة، وهذا أمر نادر، لذلك كلّما اجتاحتني الفكرة أحسست بالارتعاد في مفاصلي. كانت علاقتي بأبي شبه معطلة، وكنت أعرف أنه قد يصاب بالجنون لو فاتحته بموضوع الزواج من أحمد. ثم إنني لم أكن واثقة من أن أحمد سيكون مستعداً للمخاطرة، بل قد أبدو له فتاة طائشة أو ابنة ضالة أو مجرّد رحلة عاطفية خاطفة. خالتي ريمان هي التي دفعتني إلى الأمام مرّة أخرى حين حدثتها في الموضوع وقالت لي: إن كان تفكيرك في أحمد مجرد رغبة أو شفقة أو رداً للجميل أو انتقاماً من والدك، فحذار أن تكوني قد ارتكبت ما لا يمكن إصلاحه. أما إذا كنت تشعرين بأن أحمد هو الرجل الذي سيسعدك، فكوني شجاعة ومقدامة.

ولكن كيف أكون شجاعة؟

هكذا طرحت السؤال على نفسي.. فلم أجد بين أصابعي إلاّ خيطاً رفيعاً يربط بين هشاشتي كفتاة تحتاج إلى الحب والحنان والحرية وبين خوفي من تكرار تجربة أمي بطريقة أخرى. شيئاً فشيئاً أدركت أن حياتي قد فقدت

مذاقها القديم. لقد وقعت بسهولة في حبّ أحمد حتى لكأن الأمر كان يحتاج فقط إلى بداية. وعبر ذلك الشعور بالحبّ، تسلّل إلى داخلي الشعور النبيل بالحريّة. ولكن ما كان ينغص عليّ متعتي هو أنني لم أهتد إلى طريقة لإقناع والدي بحبّي لأحمد. كنت لا أعرف كيف سأبلغه. وأحمد نفسه كان يرفض وهو يتعلّل، مرة بأن والدي مريض ولا يتحمل أية صدمة، وأخرى بأن الوقت لم يحن بعد وثالثة بأنه يحتاج إلى مهلة لكي يتأكد من أنه عازم على الزواج. كنّا قلقين من الذي ينتظرنا. ولكن كنّا عامرين بالرغبة في الارتباط. والحقيقة أن أحمد كان أكثر قلقاً منّي ولكنه كان أكثر انتباهاً للمخاطر، غير أن ذلك لم يجعله متردداً أو ناكثاً لوعوده. فبعد نحو ثلاثة أشهر فقط من أول علاقة حبّ بيننا، ارتبطنا بعقد زواج عرفي. لم نخبر أحداً. حتى خالتي لم أخبرها. اتفقت مع أحمد أن يبقى ذلك سرّاً حتى تأتي الفرصة لإعلان ذلك. وفي جميع الأحوال لم أكن أتوقع قط أن تحين الفرصة مع موت أبي الذي جاء سريعاً ومفاجئاً. فقد استيقظت ذات يوم لأجد أحمد يخبرني أن والدي الأمير موجود في القاهرة، وبالتحديد في المستشفى العسكري، وقد حملته طائرة خاصة على جناح السرعة بعد جلطة مفاجئة أصابته في الدماغ.

أستطيع الآن أن أستحضر حالة أبي وهو نائم في المستشفى، ولكني لن أفعل ذلك لأني لا أريد أن أتذكر تلك اللحظات الموجعة. وباختصار، يمكنني القول إنه فهم وهو نصف ميّت أنني أحبّ أحمد. فمنذ أن دخلت عليه بعد أن أستيقظ من غيبوبة استمرت معه يوماً ونصف اليوم، تعرّف إليّ ثم حدّق طويلاً في عيني، وكان أحمد واقفاً عند رأسه، قال:

ـ سميّة، أريدك أن تتابعي دراستك. أنا أثق في اختيارك. عليك

أن تغفري لأبيك الذي لم يفعل كثيراً من أجل أن تعيشي إلى جانبه.

بعد صمت طويل، التفت إلى أحمد وهو يقول له:

ـ هذه سمية أريدك أن تقف إلى جانبها. ربما أصلح الله حالكما.

تلك كانت بالفعل آخر مرّة أرى فيها والدي. فبعد يوم فقط توفي حين عاودت الجلطة ضربتها بقوة على رأسه. وحتى وفاة والدي لم أكن أعرف أن ليس لديه أبناء غيري. كان متزوجاً من سيدتين ولكنه لم ينجب منهما. كنت أعتقد أن لي أخوة آخرين لا أعرفهم ولا يعرفونني، فإذا بي أكتشف أنني ابنته الوحيدة. حزنت جداً كونه لم يرزق سوى بابنة وحيدة شاءت العائلة أن تحرمه منها لأن أمها لم تكن سيدة نبيلة أو لأنها كانت راقصة ذات يوم. وهكذا بعد فترة قصيرة اكتشفت أنني وريثته الوحيدة، إذ إنه لم يشأ أن يحرمني من ثروته، وقد تصرّف بنبل. وأعتقد أنه كان مرغماً خلال حياته على أن يكون قاسياً مع أمي ومعي.

ابتعد الحزن عنّي كثيراً وقد سار إلى الخلف لمدة أربعين يوماً، فأعلنّا أنا وأحمد زواجنا على الملأ. كان حفلاً بسيطاً حضرته بعض الزميلات في الجامعة وبعض صديقات خالتي. أما أحمد فاكتفى بحفل صغير أقامه مع بعض أصدقائه في أحد الفنادق. ثم سافرنا إلى الهند والباكستان وماليزيا لقضاء شهر العسل. بعد عودتنا من الرحلة الآسيوية، بدا لي أن الأمر قد أصبح أقل بريقاً مما كان عليه في الماضي. وعلى الرغم من أنني كنت أحبّ أحمد، إلا أنني أصبحت لا أراه في الهيئة التي أحببته فيها. اكتشفت مع الأيام أنه لم يكن الرجل الاستثنائي الذي كنت أبحث عنه.

بدا لي ضعيفاً ومستسلماً للراحة والواجبات الصغيرة. لم يكن مهتماً بأي شيء كبير، ولم يكن هناك ما يشغله. بعبارة أخرى لم يكن يملك لا قلق المعرفة ولا شبق الحياة ولا صراحة الرجال المحبين للمغامرة ولا حتى الاستعداد للاندماج في مشروع أو قضية. فجأة أحسست أن الأفق بدأ ينسدّ من حولي مرة أخرى. وأن روحي تذبل وتنطوي. كنت خائفة من التقهقر ومرعوبة من فكرة العيش سجينة مع رجل بلا أفق. بالإضافة إلى ذلك، فإن حياتنا الجنسية كانت شبه بائسة إذ أصبحت روتينية. ولكن ما دفعني إلى طلب الطلاق هو أنني وجدت نفسي وبعد مدة، مجرّد زوجة.. ولكن بلا أفق وبلا أطفال.

كان طلاقي من أحمد أسهل بكثير من الزواج منه. أقنعته بأن لكل شيء نهاية، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه وكأنه قد خدع لأنني قد تزوجته بقرار مني ثم طلقته بقرار منّي. ولطالما تعذب إذ رأى نفسه وكأنه خرقة بالية. وأذكر أنه انتفض وغضب وزمجر مراراً وتكراراً، ولكنه لم يجد حيلة لكي يمنع الطلاق. وبما أن العصمة كانت بيدي في عقد الزواج الشرعي، فقد حكم لي القاضي بالطلاق. ولو أن أحمد كان بلطجياً، أو كان يريد الفضائح، لسبّب لي مشاكل كثيرة. فبعد أن بات مقتنعاً بفكرة الطلاق، اتفقنا أن نفترق كأصدقاء. ولقد ساعدته كثيراً. وهو الآن يعمل في التجارة وقد أصبح رجلاً غنياً بعد أن دلّ على حذق ومهارة. والشيء الوحيد الذي لا زال يعذّبه حتى الآن كما قال بنفسه لأحد أصدقائه، أنه «كان يسمّى بزوج الأميرة سميّة ثم أصبح يعرف بمطلّق الأميرة سميّة».

* * *

سردت لي سميّة قصتها دفعةً واحدة وكأنها كانت تريد أن تتخلّص منها

نهائياً. أذكر أنني نهضت بسرعة حين انتهت من الكلام ثم اتجهت بسرعة نحو الحمام لأغتسل بماء بارد. كنت أرغب في قليل من العزلة. أغلقت الباب جيداً واختليت بتلك اللحظات التي بدت لي خفيفة. لم أجد في قصّة سميّة شيئاً ينغّص حياتي. بل شعرت بالانتصار لأنني لم أتعرض للغش أو الخداع. لم أكن أعرف أن «ريمان» هي خالة سميّة، ولكن حين عرفت ذلك لم أندهش ولم أغضب ولم أر في ذلك كذباً. فإذا كنت الآن أعيش مع الأميرة سمية تحت سقف واحد وأعاشرها كزوجة، فذلك يعود أولاً وأخيراً إلى الخالة «ريمان» التي التقيتها مع زوجها نجيب في اسطمبول. عرفت كل ذلك قبل يومين فقط من سفري إلى أفغانستان، ولربما أحست سمية بأن الرحلة قد تطول أو أن الزمن قد يخدع أحدنا، فأرادت أن تسرد لي قصتها. قالت لي إنها كانت ترغب منذ فترة في أن تفعل ذلك، ولكنها كانت مترددة لأنها كانت تخاف أن تفقدني.

أضافت سميّة وهي تتنفّس بقوة ضاغطة في تنهيدة قوية:

- وبما أنني الآن سأفتقدك لفترة طويلة، إذ أنت ذاهب إلى أفغانستان، فقد حكيت لك كل شيء.

بعد برهة مثقلة بالهواجس أضافت:

- كنت أرغب كذلك في إنجاب طفل منك، ولكني كنت أخاف أن أفقدك لو فاتحتك في هكذا موضوع. وبما أنني سأفقدك لفترة، فقد قررت أن أحبل منك.
- لم أجد ما أقوله لسميّة في تلك البرهة المعلّقة بين زمنين. وإذ هممت بالكلام، سمعتها تقول لي:

ـ أنا حبلى يا عبدالرحمن. لا تلمني. أنا سعيدة. وأريد أن أنجب طفلاً منك لأكون دائماً سعيدة.

استعدت صوابي ثم نطقت:

ـ ها أنتِ تعيدين سيرة أمك يا سمية. إني أخاف عليك من العذاب. أنت تدركين جيداً أننا لسنا متزوجين على سنّة الله ورسوله.

قاطعتني سميّة بقوّة مدهشة لتكشف لي عن سعادتها فقالت:

ـ لا تقل هذا يا عبدالرحمن. لن أستطيع أن أنجب من رجل غيرك. ثم لم يعد أمامي متسع من الوقت. إذا لم أفعل هذا معك. فكيف سأكون أمّاً؟ هل تريد حرماني من الأمومة يا عبدالرحمن!؟.

كانت كلماتها تشقني إلى نصفين. إلى رجلين. رجل حزين لأنه قد يموت ولا يرى ابنه، ورجل سعيد لأنه أخيراً سيرزق بابن من أميرة حتى وإن لم يتزوج من أمّه على سنّة الله ورسوله، وإن لم يكن موافقاً على ذلك. أنصتُّ جيداً إلى نصفي الثاني ثم قلت:

ـ كما ترغبين يا أم يحيى.. ثم أردفت: ما رأيك في اسم «يحيى» لو كان صبيّاً؟

ـ أنا موافقة. إنه اسم جميل يا أبا يحيى. أما إذا كانت طفلة، فإني سأمنحها اسم أمّي: زينات.

أحسّت سميّة باعتزازي وأريحيّتي فقالت:

ـ الآن يمكن أن تسافر إلى أفغانستان وقلبك مملوء بالمحبة.

كان وجهها آنذاك، في تلك البرهة الفاصلة، في تلك الليلة التي تسبق

سفري.. كان وجه امرأة عاشقة متوسلة. فبعد ساعات جميلة وفاتنة ونقية على الفراش مع سميّة، طلبت مني أن أقول لها بصوت واضح ومرتفع بأنها أقنعتني. كررت لها ذلك ثلاث مرّات ثم أخلدت إلى النوم إذ لم يكن لدي أي سبب لكي لا أنام بعمق.

٢٥

قبل أن أتوجه إلى مطار لندن ومنه إلى إسلام آباد مروراً بدبيّ، كان عليّ أن أحلّ إشكالاً طرأ في اللحظة الأخيرة يتعلق بخلاف سياسي بين «منظمة حدائق السماء» وأحد التنظيمات الجهادية العاملة في الجزائر. كان أصل الخلاف قد نشأ من تضارب في الاجتهادات حول خطف الأجانب في البلدان الإسلامية التي تخضع لحكم الذين صدرت ضدهم فتوى التكفير. ولما كان أغلب الأمراء المحليين العاملين في الداخل قد اتبعوا استراتيجية الخطف أينما كانوا يشعرون بالقوة والدعم اللوجستي، فقد وافقت باعتباري أمير «حدائق السماء» وأحد الأمراء الثلاثة الذين يشرفون على مجلس الشورى الجماعي لترشيد الحركة الجهادية في عموم ديار الإسلام، على تبنّي تلك الاستراتيجية. كنا ثلاثة في مجلس الشورى الجماعي، وهو أعلى هيئة قيادية: أنا أبو يحيى الأنصاري، وأبو هارون الذي كان أميراً على الجماعات المصرية، ثم أبو يوسف علوان أمير الجماعات ببلاد الحجاز.

تطوّر الخلاف بيننا نحن الثلاثة حين انتقل النقاش إلى أحقية أو مشروعية

قتل المخطوفين. في البداية لم يكن «القتل» وارداً البتة وقد استبعدناه كحلّ حتى لا نشوّه الحركات الجهادية ونلطخ أيدي المجاهدين بدماء ضحايا قد يكونون أبرياء. ولكن مثل تلك الأشياء كان لها منطقها القاسي. فقد فرضت الظروف على بعض المجاهدين أن يجنحوا إلى قتل مخطوفيهم. بل كنت أرفضه كحلّ لأنه كان حلاً شيطانياً. وقد سجلت ذلك مرات عدة في مجلس الشورى، غير أن أبا هارون لم يكن ليوافقني على رأيي. أما أبو يوسف فقد كان متردداً ويميل إلى «حلّ القتل» إذا كان لا بدّ من ذلك كما كان يقول في كل مرة يثار فيها هذا الإشكال.

كنت مدركاً جداً أن المنظمات الإسلامية إذا ما انزلقت إلى ذلك الفخّ، فإنها ستحكم على نفسها بالتمزيق والإفلاس وتصبح منظمات إرهابية حتى في نظر المتعاطفين معها. وبما أنني كنت رافضاً لخيار الخطف بالأساس، فقد عرفت أن الأمور قد تتطور وتفلت من الزعامات الروحية للجماعات الإسلامية، وأعني مجلس الشورى الجماعي. فالطيش، وفقدان الحسّ الصائب، وروح الانتقام والاستعجال وسيطرة الروح الانتصارية، كلها أمراض موجودة ومستفحلة في صفوف المجاهدين، وهي قد تقود إلى حرب إبادة ضد أنفسهم لو أننا أصدرنا ـ نحن في مجلس الشورى ـ فتوى بوجوب قتل المخطوفين.

كانت الطموحات الشخصية هي التي تدفع نحو هذا التطرف وهذا السبق المحموم مع الدم داخل جماعات المجاهدين في الجزائر. كان كل واحد يريد أن يفرض رأيه بالدم، ولذلك فإن الفتاوى التي كان يصدرها البعض في الداخل أو الخارج يعتبرها البعض الآخر بدعة أو تواطؤاً. ولما كانت الأغلبية لا تعلم بما يدور في الغرف المغلقة أو في ثنايا الجبال

والوديان، فقد دعوت أبا هارون وأبا يوسف للتروي قبل أن نصدر أية فتوى بشأن تحليل أو تحريم قتل المخطوفين الأجانب. كنت أعرف أن الخلافات في الداخل تحسم بالكلاشينكوف أو بالفؤوس في بعض الأحيان، وهذا ما تسبب في خسارة أفضل الشباب من صفوف المجاهدين. وقد بلغ الأمر بأن قتل بعض المجاهدين مرشديهم السياسيين وأمراءهم بدعوى الفتور والتواطؤ. كانت المؤامرات تحاك يومياً. ورغم التسويات التي قمنا بها في مجلس الشورى الجماعي حين اجتمعنا ببعض القادة الميدانيين في البوسنة، إلا أن الانشقاقات زادت استفحالاً. وبات كل قائد ميداني يعود من الخارج إلى الداخل مضطراً إلى إعلان أكبر قدر من التطرف لكي يبسط نفوذه. حين تمّ اختطاف طائرة الـ «إير باص» الفرنسية لم يكن مجلس الشورى قد تشكل بعد. وقد رأيت آنذاك أن تصدير الحرب إلى فرنسا قد يقضي على قواعد المجاهدين اللوجستية في عموم أوروبا، وقد تمّ ذلك بسبب تلك الأخطاء. بعد ذلك اقترحت أن يشكل مجلس شورى جماعي لترشيد المجاهدين الناشطين، ولكن مثل تلك الأخطاء القاتلة قد ازدادت، إذ تم اختطاف سبع من الراهبات من ديرهن في منطقة المدية. وبينما كنّا لا نزال نجمع معلومات حول عملية الاختطاف، تم قتل الضحايا بدعوى أنهن «وثنيات مسيحيات» يحاربن الإسلام في عقر داره. وجدنا صعوبة في الدفاع عن ذبح هؤلاء الراهبات، ولكن أبو هارون خرج ببيان يعلن فيه أن القتل يرتكز على أساس شرعي، فنشب خلاف حادّ بيني وبينه. أما أبو يوسف فقد التزم الحياد والصمت. ندّدت من جانبي بعدم مسؤولية وجهل من قاموا بذبح الراهبات، ولكني امتنعت عن إصدار أية فتوى لأحافظ على وجود مجلس الشورى. ولو

أنني فعلت ذلك لحكمت على مجلس الشورى الجماعي بالموت وكذلك على «الأمير» الذي قام بذبح الراهبات. فأنا، ولا سيما بالنسبة للمجاهدين في الجزائر كنت مصدر الفتاوى الأعلى والمرجع الشرعي لجميع المجاهدين في الداخل.

كان أبو هارون، وهو مجاهد قديم وعنيد ضد الروس، عاد من أفغانستان إلى لندن بيد واحدة وعين واحدة. ثم ما لبث أن خسر عينه الأخرى، لكنه لم يفقد قط حماسته للقتال. فهو متشوّق «لإرهاب النصارى والكافرين والملحدين في كلّ ديار الإسلام». ولما كان يعلم بموعد سفري إلى إسلام آباد، فقد هاتفني قبل أن أتوجه إلى المطار بنحو ساعتين وطلب مني الحضور على شكل عاجل لأمر هام ثم مرّر سماعة الهاتف إلى الأمير أبي يوسف الذي رجاني هو الآخر الحضور وتأجيل السفر.

٢٦

كان لقاؤنا ـ أنا وأبو هارون وأبو يوسف ـ في كافتيريا الرواق المؤدي إلى الجناح الثاني من مطار «هيثرو»، القريب من كونتوارات الرحلات الآسيوية. كانت مشاعر الوداع أقوى من لحظة اللقاء. ولذلك فقد غلب على كلامنا طابع المجاملة وتنميق الكلمات الأكثر توغلاً إلى ما تحت الصدر.. ثم قوة الإقناع. قال لي أبو هارون، وقد حاول أن ينسى غضبه:

ـ أنت الآن يا أبا يحيى ذاهب إلى ميدان المعركة، وسيكون طريقك إن شاء الله مفتوحاً. ولكن ما يحدث في الجزائر الآن يحتاج منك إلى وقفة شجاعة ومتأنية. لا شك أنك تدرك أن كل ما قمنا به حتى الآن يمكن أن يعود إلى الوراء. إن المجاهدين يحتاجون إلى كلمة منك حتى لا يصبحوا مجموعات مشتتة ومتقاتلة فيما بينها.

كنت لا أزال أفكر في ما سوف أنطق به وأنا أنظر إلى عيني أبي هارون المغمضتين حين تكلّم أبو يوسف خارجاً عن حياده:

- إننا لا نستطيع أن نبارك قتل المدنيين الأجانب، وإلا فإننا سنجعل من جهادنا حفلة لأكل لحوم البشر.

أعطاني أبو يوسف جرعة من الصمت ثم شحنة من الشجاعة والأفكار، فقلت وأنا أخاطب أبا هارون:

- إن الفرق بين اليوم والأمس هو أن مجموعات المجاهدين قد تدربت اليوم على القتل. لقد اجتازوا مرحلة القتال وأصبحوا يجرون وراءهم رصيداً حافلاً بالحقد. كثيرون منهم لم يعودوا يعرفون الحدود الفاصلة بين القتال والقتل. آخرون لا يعرفون أين ينتهي واجب الدفاع عن الإسلام وأين يبدأ واجب الدفاع عن الإنسان كإنسان. وعليه، فإن مهمتنا الأولى هي وضع حدّ لذلك اللبس بين الواجبات. وأعتقد من ناحيتي أننا حين نؤيد قتل الإنسان البريء، إنما نحن نؤيد قتل الإسلام كشريعة وتسامح. وكلّنا نعرف أن العنف لا يولد إلاّ العنف. وكلّنا نعرف أن البحث عن الجاه والبطولة والثروة يؤدي بنا إلى العنف الأعمى والمجاني. وإذا لم نكن واضحين ومتشددين في هذه المسألة، فإن ما ندعوه اليوم بالجهاد قد يحوّله الجنرالات إلى مذابح ومجازر بشعة.

انتظرت قليلاً حتى يستوعب أبو هارون منطقي ثم أضفت أقول وأنا أقترب من أذنه اليمنى لاعتقادي أن من يفقد بصره يصبح سمعه المنطقة الأكثر تأثيراً وتوثّباً في جسده:

- هل يعجبك يا أبا هارون أن يصبح الإسلام مطحنة للروح البشرية؟ هل يعجبك يا أبا هارون أن يصبح المجاهدون جزارين

ومرتزقة وشاربي دماء وبائعي أعضاء للبشرية؟! لقد بلغ العنف درجة لم نعد نعرف إلى أين سيؤدي بنا جميعاً. كل شيء أصبح مباحاً لرجال خانتهم الشجاعة والذاكرة والحمية. ذبح التلميذات الصغيرات أمام المدارس واختطاف الفلاحات واغتصابهن باسم زواج المتعة، اغتيال الأيمة لمجرّد أنهم لا يفتون بقتل أبنائهم، تدمير العمارات السكنية بواسطة الفخاخ والديناميت، تقطيع الأطفال لأنهم يبيعون سجائر وصحف الدولة، اغتيال الموسيقيين أمام المدعوين وخطف العرسان أمام أهلهم.. قل لي يا أبا هارون إلى أين سنصل بكل هذه الحماقات التي نسميها: مجرد أخطاء، بكل هذه النذالات التي نسميها مجرد تجاوزات. إن الإمعان في الصمت هو بالضبط إمعان في اقتراف الفظاعات. وإذا لم نضع حداً لكل ذلك، فإننا سنصبح شياطين الإسلام لا مجاهدي الإسلام.

كنت أعتقد أن أبا هارون قد أصبح جاهزاً لقول شيء ما. شيء مختلف عمّا كان يردده دائماً. صمت قليلاً لأفسح له المجال لكنه استمرّ في الصمت وهو يشنف سمعه باتجاه صوتي. راهنت نفسي وأنا أغمز أبا يوسف، على أنه سيتكلم وقد أصبح موقفه ناضجاً، لكنه استمر في الصمت وتمطيط شاربيه. وبعد برهة قصيرة قال بصوت خافت وكأن تعباً ثقيلاً قد هبط عليه فجأة:

– إني أفهم من كلامك وكلام أبي يوسف أننا أصبحنا أوصياء على ميدان المعركة فيما نحن نعيش في عواصم عالمية بعيدة. إن اعتقادي بأن السياسيين غالباً ما يجهزون على مكاسب

المجاهدين لا يزال قوياً. وأنا أريد ألاّ نجعل من مجاهدينا فريسة للإحباط والمناورات. إن المسؤولية ثقيلة ربما في ما يفعلون، ولكن سنكون مذنبين لو أننا اعترضنا على عملياتهم. إني أخاف أن يتمرّدوا بعيداً عنّا. إننا لا نستطيع أن نوقف كل ذلك الزخم، وإلاّ فإننا سنكون قد أورثنا أبناءنا التقاعس والعار والخوف.

بدا لي أن أبا هارون في تلك اللحظة قد اختار السكن خارج المنطق. بل بدا لي وكأنه لا يريد أن يتخلّى عن أفكاره حتى لا يُتهم بالعار. لا بل بدا لي وكأنه ارتدى العار نفسه وهو يعتقد أنه يكافح من أجل ردّ العار. كانت لحيته الكثيفة والفوضوية والتي غزاها البياض تلتحم بوجهي كلّما أراد أن يثبت في أذني كلمة من كلماته القوية. ردّد أكثر من خمس مرات عبارة: السياسيون غالباً ما يستحوذون على مكاسب المجاهدين. وهدّد بالانسحاب على نحو إيحائي أكثر من مرة قائلاً: «لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية خيانة المجاهدين». وحاول أن يضعني في صدام مع أبي يوسف أكثر من مرة حين قال: «لن يتّم هذا الزواج المغشوش بين التسامح وبين التراجع» مضيفاً أنه «لا يبارك مثل هذا الزواج» بل سيجعله «باطلاً».

عند ذلك الحدّ، كان يفترض أن أنهي المساجلة. وإذ وجدت من الصعب عليّ أن أودّع أبا هارون وهو يتّقد غضباً، جمعت كل ما أوتيت من صبر ومن كلمات دافئة لأخفّف من قوة الضغط ثم قلت له:

ـ لن أختلف معك أبداً يا أبا هارون. لا بل لن تنجح في إثارتي أو في زعزعة ثقتي في حكمتك. وإني على قناعة بأن الموضوع معقد ويحتاج إلى وقت للتدقيق في ما كنت على حق أو

كنت أنت على حق. إن الصورة العامة لا تزال مشوشة وأعترف بأن قوة الدعاية المضادة غالباً ما تجعلنا تحت الضغط وتدفعنا إلى القرارات المتسرعة. ولكن هل أكون مخطئاً لو طلبت من أخي الشيخ أبي هارون مهلة أو هدنة حتى تنضج لنا الصورة؟

وسألني أبو هارون بسرعة وهو يستعجلني في تفسير كلامي فقال:

ـ ماذا تقصد يا شيخ أبا يحيى بالمهلة أو الهدنة؟

لم أتباطأ في الإجابة وأنا أعتقد أنه أصبح أكثر ليونة أو أكثر استعداداً للوصول معي إلى تسوية. فقلت:

ـ نصدر بياناً نعلن فيه عن هدنة نوقف بموجبها خطف وقتل الأبرياء والأجانب المدنيين. يمكن كذلك أن نحدد المهلة بثلاثة أشهر أو أربعة. ثم نتفق على عقد اجتماع موسّع لنقرر بعد ذلك ما يمكن أن نفعله.

غمزت أبا يوسف ليساعدني ببعض الكلمات، فقاطعني قائلاً:

ـ نحن الآن في مفترق صعب. إننا لا نعرف ما إذا كنا ذاهبين نحو الثورة الإسلامية أو نحو المجزرة. كذلك لم نعد نعرف ما إذا كنا منتجين لقيم التسامح ومعايير العدالة أو كنا مولّدين للعنف والهمجية. إن التصور الحالي للجهاد لدى المجاهدين يشبه تصوّر الحرب لدى الجنرالات. فهو قد أصبح مثل الحرب يجعل من القوة والعنف والبطش أداة للرقي وطريقة لتكديس الثروات وفرصة للانقضاض على السلطة. ورغم أننا نضع فوارق بين هذا القائد الجهادي وذلك القائد، إلا أنهم

محكومون بصورة تخيّلية مشتركة مستمدة من الماضي مثل صورة القرصان في العهد العثماني، والقائد في العهد الفرنسي، والعقيد في عهد حرب التحرير، والوالي العسكري في عهد ما يسمّى بالاستقلال.

أعجبتني تلك الغزارة التي تكلم بها أبو يوسف. بل سحرني تحليله إذ كشف لي عن شفافية نادرة في أفكاره. وإذ ظلّ أبو هارون ينتظر المزيد من كلمات أبي يوسف وهو يشنّف سمعه باتجاه صوته، أضفت أقول على نحو سريع:

ـ إننا نريد أن نخلق صنفاً آخر من القادة.. هو صنف المجاهد / القائد.

وسألني أبو هارون عن الطريقة التي سنصنع بها المجاهد/ القائد.. وما إذا كان ذلك سيتمّ في الميدان أم في الأفران السياسية؟ وإذ شممت بعض الاستهزاء في سؤاله أجبته بحزم:

ـ نحاول ألاّ نجعل من العنف معياراً للنزوع إلى الارتقاء. فالميدان العسكري إذا تركناه للعنف فقط، فإنه سيصنع لنا ديكتاتوراً آخر. والجهاد إذا ما حبسناه في الميدان السياسي، فإنه لن يصنع لنا إلاّ اللصوص السياسيين. إنني لا أطالب بإحداث قطيعة بين هؤلاء وأولئك، أي بين الجهاد العسكري والجهاد السياسي. ولكن أمراء الميدان الحاليين باتوا ضحية لتخيلات نتاج الماضي. ليسوا كلهم، وإنما أغلبهم يحققون ارتقاءهم عن طريق العنف.

أضاف أبو يوسف يقول على النسق نفسه:

- إن الحرب باتت هي النموذج الثقافي الوحيد الذي يسود المجتمع. إن مجاهدينا قد أصبحوا يقلّدون أعداءهم من العسكريين. وإذا استمرت تلك الثقافة، فإن الزواج بين الجهاديين والعسكريين لن يتأخر كثيراً.

وشرحت ذلك على نحو آخر فقلت وأنا أرغب في الوصول إلى نتيجة مع أبي هارون حفاظاً على وحدتنا وتماسكنا:

- لم يعد العنف نزعة انتحارية أو جهادية، بل بات وظيفة اجتماعية. يجب أن نعرف أن الدولة تنفق أموالاً طائلة على التسليح والتجنيد، ونحن مضطرون لمواجهتهم بالأساليب نفسها. وما أعنيه بالوظيفة الاجتماعية هو أن العنف أصبح نشاطاً اقتصادياً في البلاد من الناحيتين. وأن هذا الاقتصاد الفعّال هو الذي يفسّر إطالة المعركة بيننا وبينهم. وما أخافه هو أن تنتهي المعركة إلى المساواة بين الابتزاز، أو المساواة بين الرعب. والحلّ هنا لا يكمن في الانتقام، ولا في قتل المدنيين ولا في الاستنجاد بضحايا أجنبية بريئة، ولا بالاستسلام إلى دائرة الابتزاز ولا حتى في الانتصارات الحاسمة في هذا الوقت. إن الحلّ الممكن بالنسبة لي يا أبا هارون هو إعلان هدنة. هدنة ولو كانت قصيرة ننظف خلالها صفوف مجاهدينا من المغامرين. ونضع فيها استراتيجيا جديدة تقوم على إنتاج القيم الجهادية.

آنذاك رأيت أبا هارون صامتاً، وكأنه قد أقسم على ألاّ يتكلم من بعدي. ولكني حين قلت له:

- أريد أن أسمع رأيك، لم يبق على موعد إقلاع الطائرة غير نصف ساعة، أجابني بكلمات قصيرة ومركزة:
- لن أكون حجر عثرة أمام أية هدنة. ولكن يا أبا يحيى أريد أن تعرف أن أمراء الداخل سيطلبون توضيحات.
- ستتولى أنت وأبو يوسف توضيح المسألة. أعتقد أن أغلبهم يحتاج إلى مثل هذه الهدنة. سأرسل لكم مقالاً للعدد المقبل من المجلة. آمل أن يتمّ توزيعه كذلك في شكل بيان حامل لتوقيع مجلس الشورى الجماعي.

عانقت أبا هارون بدفء، وحضنت أبا يوسف بحرارة وأنا أشدّ على أيديهما، ثم تقدمت نحو مدخل الصعود باحثاً عن باب الرحلة المتجهة إلى دبي.

٢٧

لن أنسى أبداً وطوال ما تبقّى من عيش لي في هذه الدنيا، تلك الليلة القمرية السمحاء التي وصلت فيها إلى قندهار. كان البدر في أوج استدارته، وقد أرخى ضياءه على معسكر «أسامة بن منقذ» بكامل انشراحه وصفوه فزاد المكان ألفة وسحراً حتى بتنا ككائنات مغمورة بالفرح وتنضح بالوعد الكبير الذي لم تنطق به بعد السماء، سماء قندهار والتي تبدو كخيمة ربانية كبيرة تمنح الدفء والصفاء لأبنائه المجاهدين.

نسيت كل تعب الرحلة التي استغرقت يومين كاملين، والتي امتدت من لندن إلى دبي ثم إسلام آباد. بعدها مررت بلاهور ذات الصوامع المجيدة والنحيفة والمتناسقة رغبة مني برؤية المعمار المغولي. ومن هناك إلى مدينة بانو فالحدود الأفغانية ـ الباكستانية وصولاً إلى قندهار. كان مرافقي أثناء تلك الرحلة البرية الصعبة شاباً أفغانياً يتكلم العربية بطلاقة يدعى صدر الدين سمائي، ركب إلى جانبي في المقعد الخلفي بسيارة «اللاندروفر»، وكان لا يبخل عليّ ببعض التوضيحات حول الطريق. بل لاحظت أنه

كان يجتهد في ملاطفتي لكي أنسى التعب. وطوال الرحلة كان يحتضن بندقيته «أم ـ ١٦» الأميركية، بقوة، وكذلك بحبّ. أما السائق الذي نسيت اسمه الآن، فلم أسمع صوته إلا مرة واحدة حين أوقف السيارة أمام باب حديدي أخضر كبير، وترجّل ليفتح لي باب السيارة وهو يقول:

ـ الحمد لله على السلامة.

قادني مرافقي صدر الدين نحو الباب الأخضر. كان يتقدمني بنحو ثلاث خطوات. وقف الحرّاس الأربعة وقفة واحدة لتحيتنا ثم أمسك كل اثنين دفة من الباب وسحباها إلى الخلف بخفة وسرعة. بعدها سرت مع صدر الدين مسافة عشرين متراً نحو بناية مركبة اصطناعياً. صعدنا سلّماً حديدياً ثم أدخلني إلى قاعة فسيحة فيها كراسٍ عدة وبضع «كنبات» وطاولة وسبّورة لا تزال تحمل بعض الحروف العربية والرموز والأشكال الهندسية والرياضية وقد كتبت بالطبشور الأبيض والأحمر.

بعد برهة عاد صدر الدين ومعه رجل في الأربعين من عمره، ملتحٍ، صلعته بدت واضحة، داكن السمرة، نحيف وطويل، يرتدي بدلة عسكرية نظيفة ومتناسقة. سلّم عليّ بحرارة واحترام على الطريقة الإسلامية واضعاً رأسه على كتفي اليمنى ثم حضنني طويلاً وهو يربّت كتفي.

بعد السلام مباشرة، وآنذاك فقط، عرفت أنني أمام أبي عمر اليمني، ذلك الشاب اليمني الذي التقيته لأول مرة في معسكر أبي ذر الغفاري في السودان ثم التقيت به في لندن قبل أن يتوجه إلى كوسوفو. تأكدت منه حين ابتسم وكشف عن أسنانه البيضاء المتناسقة، وكذلك عن تلك

الشامة في الجهة اليسرى من وجهه. احتضنته بذراعي اليمنى ثم قلت له:

ـ في الغالب تنتصر المبادئ على جبن الأدعياء. ها أننا مرة أخرى نلتقي على درب الله في بلاد الإسلام.

ابتسم أبو عمر مرة أخرى ولم يجد ما يقوله لي سوى أن أعاد عليّ ما قلته له على نحو آخر:

ـ الصمود هو الذي يجعلنا علامات مميزة يا شيخي الجليل.

بعد ذلك أضاف يقول لي:

ـ أنا آمر هذه القاعدة..

والليلة سنحتفل بك يا شيخ أبا يحيى. لقد أعددنا كل شيء من أجل أن نحتفل بقدومك. في هذا المعسكر يعيش حوالى ٣٠٠ مجاهد عربي، ولكن الحاضرين هذه الليلة لا يزيدون على الثلث. الآخرون في مهمات أخرى.

تقدم أبو عمر أمامي في الرواق المؤدي إلى الباحة الكبرى للمعسكر، فسرت وراءه وسار ورائي صدر الدين سمائي بمقدار ٢٠ متراً. ومن على مصطبة ذلك البناء الجاهز، الذي هو عبارة عن مكاتب للعمل، رأيت ثلاث خيام وقد انتصبت في الباحة، وجمعاً غفيراً من الشباب. كانوا، بمعظمهم، قد ارتدوا ثياباً أفغانية، عمامات بيضاء أو سوداء مع صدريات داكنة وفوقها جاكيتات من القماش الخشن وتحتها سراويل واسعة عند الحجر تضيق شيئاً فشيئاً إلى أن تلتصق بالأرجل. هناك أيضاً من ارتدى الدشداشة الخليجية، وهناك من ارتدى بدلات عسكرية خضراء داكنة. كانت روائح الشواء تخترق الأجواء. وبينما رميت بصري إلى آخر الباحة التي تنتهي عند سور حجري مسنود إلى ربوة عالية، صاح أبو عمر في

جنوده لكي يتجمعوا لتحيتي.

كان واضحاً أن عاطفة هؤلاء الشباب تتحرق لفعل شيء مهمّ. لم يكونوا خائبين، أو لم تبدُ عليهم الخيبة والمقت كما رأيت ذلك في عيون أخوتهم في السودان، وإنما لمحت فيهم الإصرار والإعجاب والاستعداد للترفع عن آلام الحياة وقسوتها.

بدا لي نزوعهم نحو الحياة قوياً. كان جمالهم أكثر تألقاً في عزلتهم. كانوا جميعاً على قدر كبير من الوسامة والرشاقة. ولحاهم الكثيفة قد زادتهم قوة وفحولة. كانوا مزدهرين بالأمل وتوّاقين للحركة وكارهين للبخل. وحتى لو بدت ثيابهم رثة أو فضفاضة، فإن الأناقة قد عرفت كيف تسكن بداخلهم. وحتى لو كانت الحياة قاسية، فإن روعتها هي التي اختارت أن تكون شيئاً مشعاً على جباههم. أما الورع، فكان حقيقة رائعة تظهر في حركاتهم وكلماتهم.

بعد أداء تحية جماعية، أدخلوني إلى الخيمة الوسطى ثم أجلسوني وسط الأرائك والسجاجيد ذات الزخرفات الأفغانية المتقنة. سمعت أبا عمر يقول:

ـ العشاء يا شباب.

دارت الحلقات بسرعة. كل خمسة نسجوا حلقة وقد تربعوا على الأرض. ثم جاءت القصعات الخشبية وهي تترنح بالرز المحمّر والمشويات. انهمكنا جميعاً في الأكل. كنت فعلاً جائعاً إلى درجة لم يعد فيها بمقدوري أن أخفي تهالكي على الأكل. كان أبو عمر الذي جلس إلى جانبي يناولني بين الحين والآخر قطعة من اللحم المشويّ وهو يقول لي بكرم وعطف:

ـ هذه لك يا شيخ.

ولكثرة ما فعل ذلك، شعرت بالإحراج، غير أنني لم أقم بأية حركة حتى لا أحرجه. لقد أكلت كل ما قدّم لي.

كنّا ثلاثة فقط حول القصعة. وقد أتينا على آخر لقمة فيها بالرغم من أنها أعدت لتكفي خمسة أشخاص. لاحظ أبو عمر أنني لا زلت أمد يدي نحو جوف القصعة فنادى على أحد الشباب:

ـ منصور، هل تأتي بقصعة أخرى إلى هنا؟

في الحين طلبت من منصور ألا يفعل ذلك. وهمّ أبو عمر بالقيام فلم أدعْه يفعل. قلت له:

ـ لقد أكلت الليلة ما يعادل أكل ثلاثة أيام. لن أقدر على المزيد. لقد غامرت بهذا الحدّ ويكفيني.

بعد ذلك قادني أبو عمر إلى خارج الخيمة للاغتسال. صبّ على يدي قليلاً من الماء الدافئ من إبريق نحاسي ثم ناولني منشفة صوفٍ وهو يتابع حركاتي بكلمات دافئة: «هنيئاً. بصحتك. صحتين. صحتين يا شيخ أبا يحيى».

تنهدت بعمق وأنا أسحب هواء جديداً ثم قلت لأبي عمر بعدما وقفت وأنا أتطلع إلى السماء:

ـ هذا هو المكان الذي كنت أتطلع إلى المجيء إليه. إلى هنا أنتمي. إلى هنا أشعر أنني أنتمي. كرّرت تلك العبارة ثلاث مرات. ثم رأيت وجه أبي عمر وقد تشرّب بنور القمر وهو يقول:

ـ من هنا، من هذا المكان سننطلق بعزيمة لن تنفرط.

امتلأت في لحظات باحة المعسكر بالشباب وقد فرغوا من الأكل لتوّهم. أخرجوا من تحت الخيام بعض السجاجيد والأرائك ليفرشوها على الأرض على شكل حلقة كبيرة. جلسنا جميعاً. جاء حوالى سبعة من الشباب وهم يحملون سبعة بنادير (طبول). ثم بدأت المدائح والأذكار تخرق عنان السماء، سماء قندهار الصافية. قندهار التي نذرت نفسها لبداية جديدة مع الإسلام فاحتضنت أبناءه المعذبين والمجاهدين والتواقين إلى الحياة.

* * *

جئت إلى قندهار وأنا ممتلئ بوعود كثيرة. تركت الأميرة سمية حبلى. ثم كنت قد أقنعت أبا هارون وأبا يوسف بهدنة مؤقتة تمنحنا الوقت والتفكير الصافي. وقبل ذلك كنت قد أقنعت نفسي بأن قندهار هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يعطي لسيرتي الشخصية معنى جديداً ويعطي للجهاد الإسلامي قوة دفع جديدة.

كان هناك شيء يتعينّ عليّ تسجيله منذ اللحظة. إن رحلتي من لندن إلى قندهار كانت مبرمجة ومعدّة من أكثر من شخص. ولكني لم أفطن إلى ذلك إلاّ حين وصولي إلى إسلام آباد. آنذاك فقط بدت لي الأشياء أكثر تعقيداً وترتيباً مما كنت أتصوّر. فالضابط الباكستاني الذي ختم لي جواز السفر والذي قدّم لي نفسه على أنه ضابط اتصال يدعى «غلام حقاني» كان يتكلم العربية بطلاقة. وقد سألني بإلحاح وبعناية شديدة عن صحة أبي هارون. قال لي كذلك إنه يعرفه جيداً، وهو مجاهد من الطراز الرفيع، ولم يكن يجاريه أحد في الشجاعة والرجاحة. بل قال أكثر من ذلك إذ وصفه بالكريم والنبيل والمقدام، ثم ختم كلامه قائلاً: «لو كان

هناك مئة مجاهد من صنف أبي هارون، فإن العالم الإسلامي سيتغير حتماً».

بعد ذلك، سلّمني الضابط غلام حقاني إلى رجل مدني آخر عرفت أن اسمه الأول «عبد السلام» قائلاً له:

ـ هذا ضيف جليل في ديارنا. فلترافقه إلى «هناك».

لم أعرف ما الذي كان يقصده بـ «هناك» إلا حين أصبحت أمام «فيلا» فخمة تقع في آخر الزقاق المسدود الذي يتفرع عن شارع «أحمد إقبال». «هناك» كان أحد مقرات الطالبان السياسية، حيث تسلّمني الضابط صدر الدين سمائي الذي قال لي بعد أن كرّمني بأنبل التحيات:

ـ سنشرب الشاي معاً، ثم نتوكل على الله.

أضاف صدر الدين الذي ملأني بالحزم والثقة:

ـ الطريق وعرة ولا بدّ أن نقطعها في ضوء النهار.

سألته بسذاجة:

ـ كم تبعد إسلام آباد عن قندهار؟

أجابني بسرعة وعلى طريقته:

ـ أنت ترغب في زيارة لاهور كما عرفت. اليوم سنذهب إلى لاهور. وربما نمنا الليل في مدينة «بانو» وغداً صباحاً سنقطع الحدود ونذهب إلى قندهار.

وإذ يبدو لي الآن وبعد ٦ أشهر من تلك الرحلة أنني كنت بمثابة «طرد بريدي» تداول على إيصالي إلى قندهار مجموعة من الرجال الكرماء والشجعان، فإني أجد من المناسب، بل من المنطقي أن أتحدث عن تلك

العلاقات القوية والحميمية التي نسجتها الأيام واللقاءات والمناقشات بيني وبين كبير أمراء الطالبان. فقد كتبت أقول لسميّة في أول رسالة بعثتها إليها عن طريق أحد الأخوة المجاهدين: «إنك لا تتصورين كم أنا سعيد بوجودي هنا. لقد شفيت من صدمات السودان. وكذلك من الضياع الذي كان يسكن في أعماقي. يخيّل إليّ أنني بصدد بناء حديقة جميلة لابننا «يحيى» ولجميع أطفال الأمة. ففي كل يوم تزداد ثقتي بأننا قادرون على صنع حياة جديدة. هنا الرجال طيّبون ومستعدون للعطاء. ثم إن أخوتنا الأفغان كرماء ومستعدون للتضحية. وهم لا ينسون دماء أخوتهم العرب. إنهم غاضبون من بعض التشويهات التي أُلحقت بجهادهم، لكنهم يصرّون على الانطلاق إلى الأمام.

لقد قال لي الأمير الملّا عمر حيراتي، وكنت في ضيافته البارحة فقط: «إن تعبير «الأفغان العرب» لا يسيء للأفغان ولا للعرب، بل هو يدلّ على أننا أمة واحدة تحت راية واحدة نقاتل عدوّاً واحداً. وهذا هو الشعور العام الذي يملأ مجاهدينا في قندهار. لن أذكر عددهم، ولكن بإمكانك أن تتخيّلي رقماً كبيراً دون الخوف من خطأ في التقدير».

* * *

في كل مرة ألتقي فيها بالملّا عمر، أشعر بالقوة والنشوة. فعلاوة على أنه يتقن اللغة العربية التي تعلّمها في الأزهر الشريف وهو في الخامسة عشرة من عمره حين كان والده يعمل مستشاراً في سفارة بلاده، فإنه طلق اللسان والتعبير. ثم هو قادر على استقطاب الأفكار المعقدة وتبسيطها على نحو ساحر ومشهدي. وقد عرفت من خلال لقاءاتي معه أن رجال الطالبان هم في الحقيقة الجيل الثاني من المجاهدين المحترفين. أولئك الذين

توزعوا على السفارات والجبهات ثم باتوا يتقاتلون على الغنائم والجاه حين غادر السوفيات أرض أفغانستان الطاهرة.

بدأ كل شيء في حيرات القريبة من قندهار العاصمة المكية القديمة، حين رأى الشاب عمر في الحلم وقد عُهد إليه بمهمة إنقاذ البلاد من السماسرة. وفي صباح اليوم التالي جمع عمر أبناء قريته «حيرات» فنظّمهم وأشاع في داخلهم التقوى والجهاد ثم أمرهم بالهجوم على إحدى العصابات المتوحشة التي كانت تغتصب النساء وتتاجر بالحشيش. شاع خبر ذلك الانتصار كما النار في الحقول المتيبّسة فهرع شباب القرى المجاورة لينضموا إليه. وفي أسابيع قليلة أصبح رجال الملّا عمر يسيطرون على جزء كبير من جنوب أفغانستان.

كنت أتمشّى معه في باحة مسجد «شنغيصار» بعد صلاة الجمعة الفائتة، حين قال لي الملاّ عمر:

ـ من هنا، من مسجد «شنغيصار»، بدأت رحلتي. كنت إماماً لهذا المسجد. كنت لا أزال شاباً يافعاً يلقّبونني «بالإمام الأروزقاني» نسبة إلى بلدتي الصغيرة «أروزقان» حين انتميت إلى المقاومة ـ جناح برهان الدين رباني. كنت معجباً بالقائد «شاه مسعود» لعملياته الجريئة ضد السوفيات الملحدين، ولكنني لم أكن راضياً على تعاون المقاومة مع الأميركان. كان ذلك أمراً استعصى عليّ هضمه رغم إدراكي بأن التحالفات السياسية غالباً ما تكون مشبوهة. ذهبت إلى الباكستان لأتدرّب على السلاح ثم عدت مقاتلاً بوادي «بانشير» تحت إمرة القائد مسعود. فقدت عيني اليمنى في إحدى المعارك،

لكن لم أفقد رؤية الأشياء بوضوح. فقد عرفت أن من كانوا يسمّون بقادة المجاهدين هم أقرب إلى رجال عصابات منهم إلى القادة. وأن البطش الذي كان يلحق بالمجاهدين أقوى وأشدّ من البطش الذي يمارسه الجنود السوفيات. وأن الإسلام قد بات عبارة عن حقائب من الأموال. وفي لحظة صفاء مع الذات غادرت الجبهة مع ثلاثة من رفاقي، ولم نلبث أن عدنا إلى بيشاور في الباكستان. وهناك بدأنا في عملية تجنيد سرية للطلبة الأفغان الذين كانوا يدرسون علوم القرآن وبعض الدروس الأخرى في الجغرافيا والتاريخ والرياضيات. كانت معسكرات اللاجئين هي المخزن الذي لا ينضب من هؤلاء الطلبة اليافعين. فهم يتامى الحرب وضحايا الدمار. كانت ظروف عيشهم صعبة، بل قاسية. فهم يعانون من سوء التغذية وينامون على حصائر متآكلة على الأرض ويتجمعون في بنايات آيلة للسقوط. وطبيعي أن ينضمّ هؤلاء الطلبة بحماسة إلى حركتنا التي تكبر يوماً بعد يوم. وقد حصلنا على السلاح بسهولة لكثرته في مناطق بيشاور بأفغانستان. جمدنا عصابات الابتزاز فحزنا على إعجاب الكثيرين. آنذاك بدأ العالم يتحدث عن حركة الطالبان الجديدة. ثم طلبت منّا الحكومة الباكستانية تأمين الأمن والحماية لطابور من شاحناتها المتجهة إلى تركمانستان عبر أفغانستان فأثبتنا قدرتنا وثقتنا. فهذا الإنجاز كان في غاية الأهمية بالنسبة لإسلام آباد ولنا على حدّ سواء. إذ وجدوا فينا الكفاءة والقدرة ووجدنا فيهم الدعم والثقة.

وربما يكون ذلك سبب الاتهامات التي تنعتنا بأننا «الأولاد المدلّلون» للمخابرات الباكستانية. لقد خضنا معركتنا بالإيمان والمصداقية. وقد أحبّنا الناس لأننا كنّا نختلف عن المجاهدين القدامى. كما كان من الصعب على أيّ كان هزيمة الطالبان. كنا نستولي على المدن والقرى بلا معارك. ندخلها وبأيدينا القرآن ونحن نصيح: «لا تطلقوا النار إننا أخوتكم. وقد جئنا نحمل السلام، لا الحرب».

* * *

كانت آخر مرة رأيت فيها الأمير عمر حين جاء لتهنئتي في أحد المساءات بعد مبايعتي على الإمارة في معسكر «أسامة بن منقذ». كان بصحبة ضياء نقيب الله، وهو أحد رجاله المخلصين والأقوياء. أما أنا فكنت بصحبة قائد المعسكر أبو عمر اليمني. لم نتحدث طويلاً في ذلك اللقاء كما كنّا نفعل عادة. ولكننا قد تعرضنا إلى مناقشة مكثفة حول ما يسمّى «بالإرهاب الجديد». أذكر أن الأمير عمر، وقد التزم إلى حدّ ما بقواعد البروتوكول في تلك المرة، قد شدّد على عدم الخوف من تلك التهمة التي وصفها بالشيطانية. ثم قال لنا بشيء من التركيز: «حين كان الإسلاميون يقاتلون إلى جانب أميركا كانوا يوصفون بالمجاهدين. أما حين أصبحوا يقاتلون ضدّها، فقد باتوا يوصفون بالإرهابيين». ثم أضاف: «إننا لا نملك لا صواريخ ولا أسلحة أميركا. ومع ذلك نستطيع أن نضرب أكثر مفاصلها وجعاً. فإذا كانت أميركا تعتقد أنها إمبراطورية تنتشر في كل مكان، فإن الإسلام هو أيضاً ينضح بالحياة والجهاد في كل مكان. إن الطالبان ليسوا طلاّب حرب وإنما هم طلاّب علم وسلام. فهم الجيل

الثاني من «المجاهدين» الذين أفسدهم صراع المال والجاه. هم الجيل الذي نذر نفسه لرفعة السلام والإسلام».

ودّعنا الأمير عمر ومساعده الملاّ نقيب الله عند باب المعسكر، ثم سرنا (أنا وأبو عمر اليمني) نحو مكتبة المعسكر إذ كنت راغباً في قراءة بعض الصحف عبر الإنترنت. سألت أبا عمر عمّا يقرأه في زيارة الأمير عمر، فقال وكأنه كان ينتظر سؤالي:

ـ أعتقد أنه جاء ليبلغك مساندة الطالبان ومبايعتك.

نظرت في عيون أبي عمر للحظة، فأضاف يقول:

ـ لقد تحدث عن «الإرهاب الجديد» لكنه لم يكن مبالياً بذلك.

وسألته ثانية دون مداورة:

ـ ألا تعتقد أنه يواجه ضغوطاً بشأننا، نحن الأفغان العرب؟

قال أبو عمر:

ـ الأفغان لا يعيرون أي اهتمام لتهديدات الأجانب بشكل عام. والأمير عمر يرفض أية ضغوطات مهما كان مصدرها. لا أحد باستطاعته أن يُخضع الأفغان لإرادته. الطبيعة الوعرة أمدّتهم بالصمود والمثابرة، والإسلام علّمهم الصبر. إنهم شعب غير قابل للحكم من الأجانب. الإمبراطورية البريطانية بدأت في التراجع حين حاربت الأفغان. والإمبراطورية السوفياتية انهارت حين غزت الأفغان. وخطأ الأميركان الآن أنهم متمادون في عداء الأفغان.

ـ هل أفهم من خلال كلامك أن الطالبان لم يكونوا صنيعة المخابرات الباكستانية كما يشاع؟

- ربما فكّر الباكستانيون في صناعة مجموعة جهادية مضادة للمجاهدين القدماء حين بدأ الانسحاب السوفياتي. ولكن لولا تقاطع المصالح والأهداف لما تمكن الباكستانيون من التحالف مع الطالبان. وخير دليل على ذلك أن إسلام آباد قد أعطت كل شيء للمجاهدين القدماء ثم وفي لحظة ما فَقَدَ الباكستانيون كل سيطرة عليهم.

أمعنتُ في إثارة أبي عمر وأنا أرغب في سماع المزيد من مديحه للأفغان، حين قلت له:

- لا تقل لي إن الطالبان ملائكة نزلوا من السماء يا أبا عمرا
- لا لن أقول لك إنهم ملائكة نزلوا من السماء. إنهم في الحقيقة رجال نزلوا من الجبال إلى القرى والمدن. ففي أقلّ من سنتين سقطت كبرى المدن بأيديهم: قندهار، حيرات، جلال آباد، كابول ومزار شريف، وأخيراً باميان. صحيح أن الثمن كان باهظاً، ولكن الطريق كانت مفتوحة أمامهم لأن المجاهدين القدماء قد أصبحوا قطّاع طرق وتجّار حشيش.

لم يأت كل مقاتلي الطالبان من مدارس القرآن ومعسكرات التدريب في الباكستان. بل إن أغلبهم انشقّ عن المجاهدين. ثم هناك منهم من كان ينتمي إلى الجيش الحكومي السابق بالإضافة إلى الهاربين من أجهزة الباكستان لرفضهم الخدمة في صفوف حكمتيار بعد وقوفه إلى جانب صدام في حرب الخليج، والمتسلّلين الملكيين الذين كانوا يهيئون لعودة الملك السابق ظاهر شاه. وقد كانت ترسانة الأسلحة التي خلّفها

الجيش الأحمر ثم المجاهدون كافية لسدّ حاجاتهم في البداية، بعد ذلك جاءتهم الأسلحة من الرياض ودبي وأوكرانيا، فحققوا أهم انتصاراتهم. وكان الأميركان يأملون محاصرة إيران عن طريق ترشيدهم ودعم الطالبان من أجل إقامة ممرّ يؤدي إلى البلدان الإسلامية في آسيا الوسطى حيث النفط والمحروقات، لكنهم أصيبوا بنكسة في اللحظة التي تحركت فيها إيران ضد الطالبان، الأمر الذي أدى إلى عقد تحالف بين جارين مسلمين.

وجدت في كلام أبي عمر تهذيباً بالغاً. من العسير اتهامه بمحاباة الطالبان. فقد عرفته منفتحاً على الحياة وتوّاقاً إلى الأفكار الجديدة والحديثة. فهو قد حاز سمعة جيّدة في الخرطوم. كما عرفت أنه كان مدافعاً عن مشروع السلاح الجديد الذي كنت أنوي طرحه على الأخوة في السودان، ومرحّباً بي هنا في قندهار ومناديا بمبايعتي أميراً.. ولكن في اللحظة التي يبدأ فيها حديثه عن الطالبان بإعجاب، أجده مشدوداً إلى الماضي. وانتهزت لحظة من لحظات صمته، فسألته:

ـ ألا توجد أقنعة على وجوه هؤلاء؟

ـ لا أعتقد ذلك يا شيخ أبا يحيى. إنهم متشدّدون لأنهم طهوريون. إن أغلبية الأفغان يدينون بالمذهب الحنفي. وكما تعرف فإن هذا المذهب السنّي يعتبر أكثر تسامحاً، غير أن قربهم من الهند جعلهم يبدون متزمّتين. إن غياب اللغة العربية أو جهل المسلمين لها، قد جعل الإسلام متزمّتاً. ثم هناك مصدر آخر لهذا التزمّت أستطيع أن أصوغه لك كالتالي: بما

أن حركة النهضة الإسلامية الجديدة في شبه الجزيرة الهندية قد تزامنت مع صعود الحركة الوهابية في السعودية، وقد كانوا على اتصال كبير بها خصوصاً خلال فترات الحج، فإن مسلمي هذه المنطقة يبدون أكثر انغلاقاً وتشدّداً من غيرهم.

عند ذلك الحدّ قررت ألاّ أسأل أبا عمر عن أي شيء يتعلق بالطالبان. فقد مضى وقت يقارب الساعة وهو ينسج مديحاً مبهراً حول هؤلاء. صحيح أنني وجدت في كلامه المنطق والترابط، ولكن لم أكن لأستسلم لتحليلاته خوفاً من فقدان حاسّة النقد والغرق في منطق التعاطف. كنت دائماً مستعداً لسماع أي شيء يزيد من معارفي. بل كنت متعاطفاً في الأصل مع ما بثّه أبو عمر في داخلي، ولكني كنت متوثّباً لأقيم التعارض بين المعرفة والعاطفة. عدّلت من جلستي ثم اتجهت إلى شاشة الكومبيوتر لأتصفّح بعض الصحف على الإنترنت. ثم قلت لأبي عمر اليمني:

ـ سأقرأ الآن بعض المقالات في الصحف الفرنسية والعربية.

آنذاك قام أبو عمر مستأذناً ليتركني لوحدي وهو يقول:

ـ تصبح على خير يا أبا يحيى. لو كان الطالبان كما نقرأ عنهم في الصحف، لما تركوا لنا مثل هذا الكومبيوتر في مثل هذه المكتبة. إنهم لن يتنكّروا أبداً للاسم الذي يحملونه.

٢٨

بعد سبعة أشهر وسبعة أيام من وصولي إلى قندهار، وبعد شهر ويومين فقط من مبايعتي كأمير في معسكر «أسامة بن منقذ»، عرفت أنني أصبحت أباً. كنت قد فرغت للتوّ من صلاة العصر، حين دخل عليّ أبو عمر اليمني ليقول لي إن رجلاً عربياً قد وصل البارحة إلى قندهار يريد مقابلتك وهو حامل إليك رسالة من أبي يوسف.

قلت له بفم نصف مفتوح: هل عرفت عنه أشياء أخرى؟

لم أعطِ لأبي عمر أية فرصة للإجابة ثم أضفت على نحو جديّ:

ـ أدخله، أدخله. إنه ضيف.

توارى أبو عمر خلف الباب، فيما توارى ذهني خلف زمن بعيد، زمن بعيد وحلو، فرأيت عدة أطياف وهي تتزاحم فوق النافذة الواسعة والمفتوحة على حقل من شجر اللوز المخضوضر. عرفت أن نيسان/أبريل قد حلّ على وديان وجبال قندهار بأسرع مما كنت أتصور. لقد اختفى التراب البنّي وباتت الأرض حنونة وعطوفة وهي تتماوج بألوانها الصفراء

والبيضاء والخضراء والبنفسجية والزرقاء الداكنة لتحدث بداخلي شقاً عميقاً قد تسللت إلى داخله عيون الأميرة سمية المتقدة بالحبّ والوفاء والانتظار. تلك المرأة التي جعلتني أطفو فوق أحزاني وضعفي حين غمرتني بالعطف والعطاء. فكرت كم يكون الحلم طاغياً على الواقع حتى في الظهيرة الأكثر صفاء. يحدث لي هذا في أحيان كثيرة منذ أن غادرت لندن الداكنة. ولكن للمزيد من التوضيح، إن هذا الترابط بين الحلم والضوء المشعّ ما كان ليغمرني بهذه الكيفية لولا انشغالي الداخلي بسمية، أم يحيى التي تركتها بين انتظارين شيّقين. انتظار الصبيّ الذي لطالما تمنّت ولادته من قبل. وانتظار والده الذي غاب عنها حين أصبح أكثر قرباً منها. استحضرت قدراتي للدخول إلى المناطق الأكثر وجعاً على قلبي ثم ألقيت بنفسي في تلك الذكريات الملأى بالأحاسيس الشخصية، البسيطة منها والمركبة. فكرت في الليلة التي حكت فيها سمية عن قصتها مع والدها ووالدتها. كذلك في اللحظة التي قالت لي فيها إنها تريد أن تنجب صبيّاً منّي وتسمّيه «يحيى». هكذا عند الرغبة في الشيء نمنح أنفسنا فرصة للتراجع والمراجعة إذ غالباً ما نرمي تلك المسؤولية على الزمن. أما عند حدوث الشيء، فإننا لا نعود قادرين إلا على زواج الماضي القريب بالحاضر. كل هذا يراه الحالم في لمحة واحدة. في لمحة تدل على أزلية الله. في لمحة باهرة تجعلنا نتساءل عن الذي يحدث، وما إذا كان سيحدث لو لم نرغب في حدوثه. في لمحة مدهشة فاتحة لتاريخ جديد وصانعة لإرادات جديدة. تلك اللمحة هي نفسها التي جعلتني أفتح عينيّ على أبي عمر اليمني وهو يقول لي:

ـ هذا ضيفنا سميح عبد الغفار.

بخفة قمت أسلّم على الضيف وبحرارة. كان هندامه متناسقاً، وهو لا يزال يرتدي بدلة إفرنجية ولكن بدون ربطة عنق. ذقنه كانت محلوقة بعناية. لم تكن قامته أكثر طولاً من قامتي. فهو يميل إلى الطول والنحافة مع أنه قد تجاوز الأربعين بخمس سنوات على الأقل. وإذ ظننت أنه غير قادر على أن يجلس على الأرض، إلا أنه سرعان ما نزع حذاءه وأخذ مكانه إلى جانبي فوق كنبة أرضية مستطيلة وظهره إلى زاوية الحائط. وفي اللحظة التي فتح فيه حقيبته وبدأ يخرج منها أوراقاً ورسائل، رأيت أبا عمر ينسحب إلى الخارج. أصبحنا لوحدنا فبات الواحد منّا ينتظر ما سينطق به الآخر لكي يزن الكلمات التي سيردّ بها. ترددت بين أن أبادر بالكلام وبين أن أتركه يتكلم لوحده. ثم أخيراً سمعته يقول لي وهو يناولني حزمة من البيانات وبعض القصاصات من الجرائد ورسالتين:

– هاتان رسالتان لك يا شيخ أبا يحيى. واحدة من زوجتك الأميرة سمية. وواحدة من صديقك أبو يوسف. وهذه بيانات... لم أستمع إلى بقية شرحه إذ كنت مستعجلاً في فتح الرسالة الأولى، رسالة سميّة. قدرت بأنه سيلاحظ أنني كنت مهتماً بأخبار زوجتي أكثر من اهتمامي بأخبار الحركة. ومع ذلك فلم أقدر على منع نفسي من ذلك. فتحت الرسالة على عجل، والحقيقة أن زوايا الظرف قد بدأت تتآكل إذ كان يحتوي على رزمة من الصور ومعها ورقة جُعلت بعناية على حجم الصور. كنت متيقناً أن الصور هي صور سميّة وابني يحيى. ها هو في قماطه الأبيض على صدر أمه. إنه لا يكاد يقوى على فتح عينيه أمام فلاش العدسة. كانت ابتسامة سمية

أرحب من عيون يحيى. مع ذلك فهو يحرك يده في صورة أخرى وكأنه ينقل لي تحية. بدا لي أنه في صحة جيدة. ثبّتّ عيني على وجهه فكدت أستحضره دماً ولحماً. ثم ناولت إحدى صوره إلى سميح عبدالغفار قائلاً له: هذا ابني. إنه ابني البكر. الآن أصبحت أبا يحيى فعلاً. ثم انهمكت في قراءة ما كتبته سميّة. لم تكن الرسالة طويلة، لكنها كانت مكتنزة ومشعة بالفرح. لذلك قرأتها مرتين قبل أن أمدّ يدي إلى رسالة أبي يوسف. أخذت مني قراءة رسالة أبي يوسف حوالى عشر دقائق. لم أجد فيها أي شيء مثير. غير أنها أحزنتني قليلاً لأنها نقلت لي جوّ الخصومات بين بعض الأخوة في الساحة الجزائرية. كانت رسالة طويلة من أربع صفحات ومعها صفحة أخرى تتعلق بالضيف سميح عبدالغفار. قدرت أن ضيفي سينتابه الملل فتوقفت عن تقليب البيانات وقصاصات الجرائد التي حملها ثم قلت له:

- ما هي كنيتك يا أخ سميح؟
- أبو سفيان.
- هل لك أبناء يا أبا سفيان؟
- لي أربعة أبناء ذكور وبنت. سفيان وإبراهيم ومروان وإسماعيل وسلمى.
- كنت دبلوماسياً كما عرفت من رسالة أبي يوسف؟
- نعم. كنت مستشاراً للرئيس في بلادي. عملت كذلك سفيراً لبلادي في فرنسا لفترة. ثم عدت إلى القصر كمستشار مرة

ثانية. بعدها غادرت بلادي إلى أوروبا. لم أقتل ولم أسجن وكان ذلك وارداً، ولكنني فصلت ككلب أجرب. تسكعت طويلاً وتعذبت كثيراً. وأخيراً رأيت ضوءاً عظيماً.. وها أنني أمامك يا أبا يحيى.

لم أشأ أن أعيد أبا سفيان إلى ماضيه الكئيب. بل لم أكن مستعداً أن أستمع إليه وهو يروي لي قصته التي توقعت أن تكون مشوّقة وذات ثراء. فقد رغبت في أن أترك ذلك لوقت آخر يكون فيه مزاجي أكثر رحابة. وهكذا وجدت نفسي أنقله إلى عالم آخر، عالم يرتفع فيه الإنسان عن ألمه وأحزانه، وأنا أسأله:

ـ يقال إن الحقيقة موجودة خارج الألم، هل تعتقد أن في ذلك قدراً كبيراً من الأنانية؟

لا شك أن أبا سفيان تساءل عن الدافع الذي جعلني أفتح معه مثل هذا السجال. غير أنه ولسبب أعرفه جيداً، هو أن المرء الذكي غالباً ما ينطق بإجابته مهما كان السؤال الذي طرح عليه، سمعته يقول:

ـ ذلك وهم. وهمٌ مصدره على ما أعتقد أننا مجرد كائنات ضعيفة عليها أن تقبل بكل الفظاعات في صمت..

تنفّس بقوة ثم تابع يقول:

ـ إن حقيقة كل إنسان هي الحقيقة. وإذا لم نقبل بذلك، فإن حياتنا لن يكون لها أي جدوى.

وجدت في كلمات أبي سفيان القوة والمتانة، فسألته ما إذا كان يشعر بالندم لأنه أخيراً وصل إلى قندهار. صغت له سؤالي على نحو من المداورة حتى لا أعطيه انطباعاً كاذباً عن نفسي. أي حتى لا أجعله يشعر

بأنني نادم على مجيئي إلى هنا. وهكذا قلت له:

– متى يحتاج المرء إلى الندم؟

وأظنّه أنه فهم ما الذي أقصده بالضبط فقال:

– لدينا جميعاً من حسرات الندم ما لا يحصى. إن كل فرد لا يملك أية ضمانة بالنسبة للغد طالما هو حيّ، وهذا هو عزاؤه الكبير. وبهذا المعنى، فإن الوقت المتبقي لنا للحياة يساوي صفراً. وقد يدعونا ذلك إلى الندم، ولكن المفارقة، أن الوقت المتبقي لنا، وهو صفر، لا يجعلنا نندم. بل لا يعطينا الوقت للندم. إن المجاهد الذي يستعدّ لإلقاء نفسه على العدوّ وهو محشو بالديناميت، أو السائق الذي يستعدّ لرحلة بالشاحنة أو الشيخ الذي يذهب إلى الوضوء لصلاة العشاء.. جميعهم يعتقدون أن ما تبقى لهم من الحياة لا يستحق أن نقضيه في الندم.

وكنت سألته عن الوحدة التي يحبها ويخاف منها الإنسان. عن تلك العزلة التي تجعله يشعّ أحياناً مثل جوهرة، وأحياناً تجعله مهملاً وكئيباً ومثقلاً مثل كومة من الأوساخ، إلا أن خطوات أبي عمر قد بعثرت تركيزه، فاكتفى بالقول:

– إن الإنسان يولد وحيداً ثم يموت وحيداً، وخلال ذلك يعيش حقيقته وحيداً. إن الوحدة هي الحقيقة الطاغية.

وحين انضمّ أبو عمر إلى مجلسنا، كان المساء قد اقترب من النافذة، فكان علينا أن ننتقل إلى مناقشة مسائل عملية تتعلق بتنظيم الحركة وتفعيل جهاد منظمة «حدائق السماء».

٢٩

أبو يحيى هو الذي فتح شهيتي للكلام عن الوحدة. لا أعتقد أنه كان يختبر تحمّلي للوحدة. كما لا أعتقد أنه كان يريد أن يحرك بداخلي ذلك السكون المدلهم ويجعلني أكثر انطلاقاً. ولكن أعتقد أنه استطاع أن ينفذ إلى أعماقي منذ الوهلة الأولى ويستشفّ من ذلك أنني رجل وحيد فعلاً.

في العتمة الضاربة إلى الزرقة الداكنة كما يتحسس العميان عادة اللون الأسود، أو في الضوء الساطع المبهر للعيون الزرقاء، أجد لذة لا سبيل إلى بلوغها حين أكون وحدي. لذة امتلاء ذلك الفراغ الضيّق. لذة من اعتاد على وضع نفسه في مكان مريح. هي أيضاً لذة القدم وقد لبست حذاء مريحاً. إن المكان المعزول لا يجعلني أكثر راحة أو أكثر شعوراً بالوحدة. هذا انطباع خاطئ لو فكر أحدهم بهذا الطريقة، ولكن المكان المملوء والضاج بحركة الأجساد الصاخبة والأنفاس الحارة والنظرات القاسية، هو الذي يجعلني وحيداً. في آخر المطاف، لو كان المكان فارغاً فإنني سأعتبر ذلك خلاء وأعتبر وجودي صدفة أو ضرورة أو جزءاً من ذلك الخلاء.

وهو ما يعني أن الآخرين هم الذين يجعلوني وحيداً. بل هم الذين يعطون لوحدتي معنى ما.

لم أصبح على هذا النحو إلا حين عملت في القصر كمستشار للرئيس. ففي القصر تعلّمت ما معنى أن يكون المرء وحيداً. الرئيس هو الذي شرّبني تلك المعاناة في البداية. ومع الوقت بات كل منّا يشعر بمعاناة الآخر. كنت أجده وحيداً لأنه لا يعرف العالم إلا من خلال الورق أو من خلال مجموعة من المستشارين ذوي المصالح المتضاربة. ثم كنت أجد نفسي وحيداً لأنني لم أكن واثقاً قط من أن الرئيس يحتاج إليّ أو هو يعمل باستشاراتي، ثم لأنني في الأصل لم أكن أتمتع بتلك الأصالة التي تؤهلني لتبنّي أفكار الرئيس أو لأجعل الرئيس يتبنّى أفكاري. كان كل منّا غير أصيل بمعنى من المعاني. وكان كل منّا يعزل نفسه في بيت عالٍ من المكابرة والعناد بدعوى الحكمة وبُعد النظر.

إن المعاناة، معاناة الإنسان المغيّب وسط القصر الذي يحكم البلاد بقبضة من الحديد وأخرى من الرصاص، هي التي جعلتني أرتطم بحقيقة أن يكون المرء وحيداً. الحجج المدهشة والجميلة التي كنت أسوقها لنفسي لتخفيف تلك الوحدة، تبدو لي اليوم تافهة ولا تستحق الذكر. فإلى جانب الوحدة كنت أشعر بالعجز. ذلك العجز الذي يهبط علينا بثقل لا يوازيه إلاّ ثقل الموت. ذلك العجز الذي نشعر إزاءه بأن ما من منقذ لنا منه إلاّ الله.

وبما أنني لم أكن لا راهباً ولا ناسكاً، أو بالأحرى لم أكن أمتلك ثقافة دينية عميقة، فقد وجدت صعوبة في تحمّل ذلك العجز. كان تصعيد عجزي يتم عن طريق النسيان في البداية. ثم أصبح يتم عن طريق الشجار والخصام مع زوجتي. ثم بات نكداً مستديماً في حياتي الخاصة.

بعد ذلك تحول إلى كتابة خطابات قوية تنزع إلى الأدب والفلسفة. وأخيراً رحت أتلذّذ بكل عجزي. فقد أصبح عجزي هو محرّكي نحو اللامبالاة، أو نحو الفراغ، حتى أنني لم أعد أنطق بأية كلمة تدلّ على معناها. أصبحت أرى أشياء غير موجودة أصلاً، وأحارب أعداء غير مرئيين، وأخاطب رئيساً لا يسمع أبداً مخاطبيه، وأصنع سعادة وهمية وحمقاء. باختصار، أصبحت رجلاً وحيداً وعاجزاً يركض وراء شبح هو بدوره يركض وراء وهم الصورة التي سجن نفسه بداخلها.

لنسمّ ذلك ما شئنا: عجز السلطة، أو لا معنى السلطة، أو وهم السلطة أو زوال السلطة، أو فراغ السلطة، هذا كلّه صحيح. وقد عشته لوحدي وحيداً ومعزولاً. تماهيت معه بعد أن حاربته طويلاً. واستسلمت له بعد أن انتفضت ضده في أحيان كثيرة. ولم أتخلّص من تداعياته إلى اليوم. فإلى الآن حين أتكلّم أشعر أن لا أحد يسمعني. وإلى هذه اللحظة حين أخاطب شخصاً ما، يخيّل إليّ أنه غير موجود. وإلى اليوم، حين أرفع رأسي إلى السماء في وضح النهار، أرى فيها نجوماً هي زهور الفراغ الأزرق. الأزرق المعتم. عالم العميان.

حين انتقلت إلى باريس كسفير لبلادي، كنت راغباً في الخروج من تلك الحالة. ولقد أجهدت نفسي لكي أكون مفيداً لموقعي وبلادي ورئيسي. خرجت من القصر، ولكنني لم أخرج من عجز القصر. كنت راغباً في استعادة حريتي كإنسان، غير أن باريس التي عرفتها في السبعينيات كطالب خفيف وناشط وديناميكي وممتلئ بعنفوان اليسار، قد بدت لي وأنا سفير كمدينة جافّة ومغلقة أمامي. يقال إنها المكان الأفضل لأي ديبلوماسي يريد أن يصبح ذا شأن في بلاده، لأنها تمنحه الثقافة والقدرة

على الجدل والمعلومات والعلاقات، إلا أنها كانت بالنسبة لي المكان الأكثر مراقبة والمصدر الأكثر توليداً وتشابكاً لصنع المؤامرات. لقد وضعتني في امتحان مع نفسي مرة أخرى. فإذا كنت في القصر عبداً صامتاً للرئيس، فإن باريس قد جعلتني عبداً لجميع أفراد عائلة الرئيس.

أستطيع أن أقول إنني خضعت للابتزاز طوال مدة بقائي في باريس. كان ابتزازاً مزدوجاً وفظيعاً. فمن ناحية كان عليّ أن ألبّي طلبات عائلة الرئيس وعائلة زوجته. وهي طلبات نهمة وحتى مَرضية. ومن ناحية أخرى كان عليّ أن أستجيب لطلبات الرئيس وأغلبها استخباراتية وبعيدة عن مزاجي وثقافتي. كنت أسمّي ما أقوم به لعائلة الرئيس بـ «الواجب الثاني» أو «الواجب ما فوق الطبيعي»، وهو ثمن بقائي في باريس. أما ما كنت أقوم به للرئيس أي للدولة، فكنت أعتبره الواجب الأول أو الواجب الطبيعي. ولكن حتى هذا الواجب الطبيعي كنت أجده ثقيلاً ويتعدّى حدود طاقتي وأخلاقي خصوصاً أنه أصبح مرتبطاً بالواجب الثاني.

وخلال حوالى سنتين قمت بشراء السجاجيد الإيرانية والأفغانية وبيع الموز في مرسيليا وجلب الكريستال من براغ، وشراء السيارات من بروكسيل والبحث عن شركات التنقيب عن النفط وشركات الأسواق الحرة.. كما عملت كدليل سياحي لأخوة وأبناء خالات حرم الرئيس. جاءني في البداية عادل وزوجته. سكنا في فندق الهيلتون. وقد بلغت الفاتورة حوالى ٥٠ ألف فرنك لمدة أسبوع فقط. دفعت ذلك السفارة. كان المراقب المالي رجلاً فظاً معي، لكنه كان كريماً حين يتعلق الأمر بفواتير عائلة الرئيس. بعد ذلك استقبلت عدنان وأبناءه الخمسة، ثم خديجة الشقيقة الكبرى لحرم الرئيس وزوجها الثاني وأبناءها الأربعة من زوجها

الأول. ثم حلّت مريم، وهي الأخت الأصغر وكانت بصحبة فتاة أخرى قالت إنها خالتها رضوى وشابين تحت الثلاثين قدمتهما لي على أنهما خطيبان لها. عرفت الجيل الأول من العائلة وكذلك الجيل الثاني. كنت أحياناً أذهب لاستقبالهم أو لتوديعهم في المطار. وكان أغلبهم حين يأتي يحمل إليّ بطاقة من السيدة الأولى وصندوقاً صغيراً من البطرخ. كان ذلك كل ما أستحقه في نظر السيدة الأولى. بل كان ذلك يكفي لكي أنفق على عائلتها من أموال السفارة. ولو لم تكن تعرف أن تلك البطاقة الموقعة من جانبها بمثابة التوقيع عن الأموال لما أرسلتها. أما صندوق البطرخ، فكان يشتريه أحدهم من المطار وهو مغادر نحو باريس. وهو على أية حال علاوة على كونه من النوع الرديء، فقد كنت دائماً أتركه للسائق قائلاً له: «هذه حصتك من بطرخ بلادك».

عرفت أكثر من دزينتين من أفراد عائلة حرم الرئيس، لكنني لم ألحظ علامة ذكاء لا في كلامهم ولا في ملامحهم ولا في تصرّفاتهم. كانوا مسطّحين وأغبياء ومقبلين على الحياة بأعين فارغة. كان الجوع يسكن في أمعائهم منذ زمن بعيد. وكانت قذارة الألفاظ وغلاظتها تسكن في أفواههم. أما أذواقهم فعديمة إذ كانوا يهجمون على محال الملابس المتواضعة كما لو أن الفرد منهم يشتري لقبيلة كاملة. بعد ذلك عرفت أن بعضهم يتاجر بالملابس الجاهزة. إن العذاب الذي عرفته مع هؤلاء النهمين، الوسخين، الأغبياء ما كنت لأعرفه حتى لو ذهبت إلى جبهات الحرب العالمية الثانية. وقد يكون العذاب الذي عرفته من خلال تأديتي لواجبي الأول والطبيعي بسيطاً بالمقارنة مع عذاب الواجب الثاني، ولكني أيضاً كنت أجده دون إنسانيتي.

إنني لا أكفّر عن ذنوبي، ولا أعلن الندم هنا لكي أتخلّص من ماضٍ ثقيل وجاف، ولا أطلب المغفرة من أحد. غير أنه ـ إن كان ذلك ممكناً ـ سأطلب من نفسي الغفران لأنني عرّضت ذاتي البشرية للإهانة والقسوة حين كنت أقوم بما يطلب مني. نعم لقد طلبت من البوليس الفرنسي طرد بعض مواطني بلادي لأنهم من الناشطين الإسلاميين. لم نكن نملك وثائق إدانة كافية ضدهم.. فكنّا نقوم بتزوير ذلك. نعم لقد قمت بشراء بعض ضمائر البوليس لكي يفعلوا ما كان الرئيس يرغب فيه. كما اشتريت ضمائر بعض الصحافيين لكي يجعلوا من صورة الرئيس ناصعة وزاهية. لقد ضيّقنا الخناق على كل من كان معارضاً. وكان كل معارض نتهمه بأنه من جماعة الأصوليين الإسلاميين. كنّا نقوم بابتزاز الفرنسيين ونتلاعب بحساسيتهم المضادة للأصولية. بل كنّا نشارك في إفساد نظامهم وتفكيرهم من ناحية ومن أخرى نساهم في تشويه الإسلام لصالح قروض ومساعدات تافهة. وهذا ما لم يقدر عليه سفيرنا في بريطانيا. كنّا نبيع الفرنسيين الحداثة والعلمانية، ونتشاطر عليهم في ديارهم.. حتى قال لي مرة أحد موظفي الخارجية: «إنكم تبيعون لنا بضاعتنا بثمن عالٍ جداً». لم أكن أعرف ما مدى قوة أولئك الناشطين الإسلاميين ولكننا كنّا ننفخ فيها ونسعى إلى شيطنتها بكلّ السبل لنجعل منها غولاً مخيفاً ورهيباً. وفي الحقيقة لم أكن أفعل إلاّ ما يطلب منّي. فأنا كنت على قناعة أنهم مجموعات صغيرة تمتهن الشتم والنقد في المقاهي وتتغذى بأخبار أفغانستان والبوسنة ولا شيء أكثر من ذلك. هذا في ما يتعلق بإسلاميي بلادي، غير أن رئيسي كان يكرههم ويخافهم ويعتبرهم كابوسه الثقيل، لذلك كان مستعداً لعمل أي شيء من أجل

تشريدهم وتشويههم أو إلقاء القبض عليهم حين يوضعون في الطائرات باعتبارهم مقيمين غير شرعيين.

أذكر أنني قدّمت دراسات طويلة أعدّها أساتذة من بلادي جاءتني في الحقيبة الديبلوماسية، إلى البوليس الفرنسي. أتساءل دوماً لماذا لا يعطون هذه الدراسات والمعلومات إلى السفير الفرنسي المقيم لديهم؟ لكنني لا أجد أية إجابة. ظننت في البداية أنهم لا يفعلون ذلك لأن السفير غير متحمس لسيناريو شيطنة المسلمين، لكن فيما بعد، تأكدت أنهم يريدون أن يجعلوا منّي متعاوناً مباشراً مع البوليس. طلبوا مني أن أبلغ الكوميسار «رولان» المسؤول عن شعبة مكافحة الأصولية، بأنهم يحتاجون إلى قائمة الناشطين الإسلاميين العاملين والمتعاونين مع الجماعات الإسلامية الجزائرية. وقد تردّد السيد «رولان» في إعطائي أية أسماء ولكن حين أغرقته بالتقارير التي يرسلها لي رئيس المخابرات في بلادي، قال لي إنه سيطلب الإذن من الوزير ثم يتصرف بعد ذلك. جاءني مبعوث منه بعد ثلاثة أيام وأبلغني أن السيد الكوميسار موافق على مساعدتي. التقينا في مقهى على جادة الشانزيليزيه فمرّر لي قائمة تحتوي على خمسين اسماً، وحين فتحتها في السفارة، وجدت أن ثلاثة أرباع الأسماء معروفة لدينا، بل هي أسماء كنت قد سلّمتها بنفسي إلى الكوميسار «رولان». ضحكت من نفسي ثم قلت في خاطري: «ملاعين هم الفرنسيون. إنهم لا يثقون في أحد».

كنت أقوم بكل ما يطلب من الجانبين حتى أصبحت أرى نفسي ساعي بريد برتبة سفير. كنت خجولاً بل مثقلاً بالخجل مما أقوم به. فحين أعود إلى بيتي أحتقر نفسي وأصبح شخصاً عصبياً لا يطاق يستطيع أن يحول كل شيء إلى جحيم. في كثير من الأحيان كنت أبصق على وجهي في

المرآة. فكّرت في الاستقالة مرات عدة، لكن الشجاعة خانتني. كنت أقول إنني أصبحت من أفراد العصابة، وبالتالي فإن الاستقالة قد تكلفني حياتي إذ كنت مدركاً أن منطق العصابة لا يسمح بالخروج منها أو عصيان أوامرها أو فضح أسرارها وفظاعاتها. شخصيتي الأولى نسيتها تماماً. بل تماديت في دفنها. كانت تبدو لي كتاريخ انتهى تحت النعال. وحتى عندما كنت مضطراً إلى مواجهتها، كنت أفعل كل شيء لكي أتنكر لها. أما شخصيتي الثانية فكانت ممحوة تماماً. غير موجودة أصلاً. كانت ظلاً لأجهزة معقدة ورجال محنكين في فنّ حبك المؤامرات. بين الحين والآخر أقبض على شيء من بقايا شخصيتي الأولى فأجد نفسي متعاطفاً مع بعض المعارضين، ولكن سرعان ما تهزمني شخصيتي الثانية فأصبح أكثر تشدداً. وهكذا بين أن أكون الشخص الذي كنته والشخص الذي أنا كائنه، كنت معلقاً من أهدابي بين هوتين. هوة الحلم الذي قتلناه جميعاً، وهوة الكابوس الذي يريد أن يقتلنا جميعاً والذي صنعناه بأيدينا. كنت أعتقد أنه حان الوقت للاندماج في الدولة الوطنية بعد أن انهار جدار برلين. ولكن ما إن تم اندماجي داخل تلك الدولة الوطنية، حتى فقدت تلك الدولة الجزء الأخير من سيادتها. كنّا آخر من يدافع عنها.. ثم كنا أول من سلّم بانهيارها. اليسار الذي كنت أنتمي إليه انهار في اللحظة التي انهارت فيها تلك الدولة. وهكذا انتميت إلى ما يشبه الهيكل الأجوف. اليسار المخضوضر، واليانع، بات في لحظة واحدة بالنسبة لي يساراً ذابلاً وغير أصيل، مقطوعاً من جذوره، فاحتميت بالدولة التي حاربتها واعتبرتها مقبرة للأحلام والتحرّر والعدالة. غير أن تلك الدولة خدعتني كما خدعت كثيرين مثلي. لم ألمس لا حدودها ولا

سيادتها ولا حتى صولجانها. كانت مجرّد أجهزة وأموال وعصابات وبضع عائلات ولصوص ونصّابين. ففي سبيل أن تبقى العصابة مسيطرة، كان يزج بالآلاف في السجون وتشرد آلاف العائلات وتداس الأرواح البشرية على الرصيف وتقام يومياً الولائم باللحم البشري.

إنني لا أعرف لماذا عدت من باريس ومن الذي أقنع الرئيس بإعادتي إلى القصر كمستشار له مرة ثانية. هل لأن مهمتي انتهت بعد أن قام أحد اليساريين القدامى بتصفية كل المعارضين الجدد؟. هل لأن الرئيس أراد أن يكافئ غيري بسفارة باريس؟ أم لأن مستشاره الإعلامي الشهير والقوي قد دخل في معاناة المرض؟ أو لأنني أصبحت شديد التذمّر لوجودي في باريس وقليل المردودية بعدما تأكدت أن كل ما قمت به إنما كان مجرّد واجب ولا شيء آخر؟!

أجبت عن تلك الأسئلة الصغيرة بنفسي بعد نحو ثلاثة أشهر من عودتي إلى بلادي. أعاد لي الرئيس رتبة مستشار خاص في القصر مكلّف بتنظيم العلاقات مع الدول العربية. كانت مهمتي الأولى تكييف تلك العلاقات في ظل الأزمة السياسية التي تمرّ بها بلادي منذ بضع سنوات. وأثناء اطّلاعي على تقارير سفاراتنا في الدول العربية عثرت على تقرير يتهمني حين كنت سفيراً بباريس بعدم الجدية والتعاطف مع الجماعات الأصولية وإخفاء بعض المعلومات والاتصال سرّاً برجال يعرفون بتعاطفهم مع الاتجاه الإسلامي.

بعد ذلك عرفت أن سفيرنا في المغرب الذي يدعى «سنان عبدالرحيم» هو زوج أخت حرم الرئيس. وحين تمّ نقله من المغرب إلى باريس، تأكدت أن حرم الرئيس هي التي دبّرت مؤامرة عودتي إلى القصر. وقد يقال هنا

إن مستشاراً في القصر ربما كان أفضل وأقوى وأكثر سلطة من سفير في أية عاصمة عالمية. ولكن من ناحيتي، فإن ذلك هو أتعس هدية تقدم لي بالنظر إلى تجربتي السابقة والكئيبة في القصر. وقد تأكد لي ذلك حين أصبحت في مرمى جميع النيران. فالرئيس لا يستمع إليّ ولا يقرأ ملاحظاتي ولا يهتم باقتراحاتي. والمستشارون الآخرون، وهم حوالى عشرة، يشكّلون ما يمكن أن يسمّى بحكومة ظل يعملون في الخفاء في ما يشبه اللوبي الناطق باسم المصالح المتشابكة مع أوروبا وهم ينظرون إليّ كمستشار في قسم العلاقات العربية على أنني خطر قد يضرّ بمصالحهم. أما زوجة الرئيس فقد أخضعتني مرة أخرى لنزواتها الشخصية وترتيب زياراتها وزيارات صديقاتها، نساء الأعمال الجديدات والمتلهفات على الصفقات والزيارات إلى الخليج وبقية البلدان العربية الأخرى. كان ذلك ما أعادني إلى أجواء الانكسار والعزلة والعجز التي عشتها في السابق. أصبحت أتمارض كأي موظف كسول وخائب. فازداد مزاجي تعكّراً فيما بدأت نوبات الضيق والاشمئزاز تنتابني من حين إلى آخر. ورغم أنني كنت معتدّاً بصحتي، إلا أنني عزمت على الذهاب إلى الطبيب. اكتشف الطبيب أنني مصاب بقرحة متقدمة. تلقيت النبأ بكل هدوء. لم أتساءل لِمَ استهدفني المرض؟!. وأثناء المعالجة اكتشف طبيبي الخاص ورماً في أعلى ذراعي اليسرى. سألت الطبيب ما إذا كان الورم خبيثاً؟ فقال بهدوء: سنتأكد من ذلك فيما بعد. لم أهتزّ لجوابه. فقد عرفت الموت أكثر من مرة حين كنت شاباً منخرطاً في الشبيبة الشيوعية العالمية. عرفته في أنغولا ولبنان، ولكني لم أخف منه. وفوق ذلك لم أستغرب وجود ذلك الورم. فعذابي في القصر قد يصيب شخصاً آخر بعشرة أورام دفعة

واحدة! بعد التحليل، أخبرني الطبيب أن الورم غير خبيث وهو عبارة عن كيس دهني ضخم يمكن التخلص منه في نصف ساعة.

كانت زوجة الرئيس سيّدة قوية أو شغوفة بالقوة. نصف متعلّمة، تزوجت الرئيس حين كان لا يزال في الصفّ الرابع أو الخامس من رجال الدولة. وهي ليست أكثر منه رفعة في السلّم الاجتماعي، إذ كلاهما ينتميان إلى ما دون الطبقة الوسطى. فأبوها كان حداداً يملك دكاناً صغيراً في ضواحي العاصمة، لذلك فإن مزاجهما كان متناغماً منذ البداية. وحبهما للأموال كان بلا حدود. كان يستمع إليها جيداً. وأظنّ أنها أكثر براعة في فهم الأشخاص حتى أنها كانت تختار له معظم مستشاريه. بل في أحيان كثيرة كانت تتدخل لتبعد عنه من تسمّيهم بالأشرار أو بأبناء الحرام. كانت أكثر تناسقاً في شبابها. وحين بلغت الأربعين انتفخت وبدأت تنمو بالعرض. وإذ كنت في تجربتي الأولى أكثر قرباً من الرئيس، حتى إنني سمعت بأذني من يتهمني بأنني مستشار الرئيسة، لم يكن ذلك ليغضبني قط. فهو يعني بالضبط أن الرئيس هو نفسه خاضع لزوجته. ثم إن جميع المستشارين يعملون ساعات إضافية لزوجته. بل كنت أعرف أيضاً أن زوجات المستشارين يعملن كثيراً لصالح زوجة الرئيس، بينما كنت الوحيد، الوحيد بينهم الذي لا تعرف زوجته زوجة الرئيس. لم ترافقني ولو لمرة واحدة إلى حفلات القصر. بل كنت أمنع نفسي من حضور تلك الحفلات حتى لا تسألني زوجة الرئيس عن المدام. ومع ذلك، فقد سألتني مرة بشيء من الخبث الاجتماعي الذي ورثته عن وسطها المتواضع: «مع أنك تعتني جيداً بهندامك، إلاّ أن الجميع يعتقدون أن سميح عبدالغفار لا يزال أعزب. ألا تحتجّ المدام على نفيها المستمر في

البيت؟». ضحكت لتعليقها ولم أجبها عن سؤالها. غير أنني وفي لمح البصر قرّرت ألاّ أغضبها من صمتي فقلت لها: «سيدتي، المدام هي التي تحب أن تبقى في البيت».. ثم أضفت في شيء من الخبث: «سأطلقها، لكي أخرج من العزلة». سمعتني زوجة كبير المستشارين فعلّقت قائلة بكثير من التبرّج المبتذل: «الوزراء هم الوحيدون الذين لا يطلّقون زوجاتهم». كدت أن أقول لها، «لأنهن غير متزوجات بهم»، غير أن الرئيس اقترب من حلقتنا في ذلك الحين، فأخذ يدي وانتحى بي جانباً ثم بادرني بحديث جديد لا يتناسب واحتفال عيد ميلاده. نسج لي مقدمة متماسكة على غير عادته فقال وأنا في أعلى درجات انتباهي له: «لا شكّ يا سميح (هكذا أصبح يناديني في الفترة الأخيرة) أنك تدرك الظرف الذي تمرّ به منطقة الشرق الأوسط. لقد أصبح السلام خياراً استراتيجياً. إننا لا نفرّ من السلام كما يفعل الجنود في الحرب. علينا أن نتقدم. فقد تجمعت لديّ معلومات غزيرة عن أن السلام لم يعد مجرد حلم، بل أصبح واقعاً. بلادنا كانت مع السلام منذ البداية، وعلينا كذلك أن نظل دائماً في مقدمة السائرين نحو السلام. لقد قررت إقامة علاقات دبلوماسية وتجارية مع إسرائيل. نعم مع إسرائيل مع أنك لا زلت تصرّ على تسميتها بالكيان الصهيوني. ولكنني لا أعرف من يمكن أن يكون مفيداً كسفير أو لنقل كقائم بأعمال بلادنا في إسرائيل...». صمت الرئيس وظلّ ينتظر جوابي. ثم سألني مرة أخرى ومباشرة:

- من تقترح؟ هل تعطيني ثلاثة أسماء؟!

صمتّ مرة أخرى. لا بل قررت أن أسكن في الصمت. ثم رأيت الرئيس يلتفت نحو وزير الخارجية الذي قفز المسافة التي كانت تفصلنا في

خطوتين كبيرتين. قال الرئيس بحزم:

ـ اقترب يا عُمار. (هكذا ينطق عمر بسرعة) هذا سميح، أريدك أن تجد الفرصة في هذا الحفل لتقدمه للسفير الأميركي.

فعل «عُمار» ما أمره به الرئيس في الحين. قادني من يدي وشقّ بي الزحام في القاعة البللورية إلى أن أوصلني إلى السفير الأميركي. وهناك قال له: هذا هو مستشار الرئيس للشؤون العربية. إنه السيد سميح عبد الغفار.. ثم أراد أن يمدحني فأضاف: إنه موسوعي، ويعرف البلاد العربية بلداً بلداً.

كنت لا أزال مذهولاً من مفاتحة الرئيس لي قبل حين بتفكيره وانشغاله بفتح مكتب للعلاقات في إسرائيل. لا بل كنت خائفاً من أن يكون الرئيس قد فكر في إرسالي كسفير له في إسرائيل. وازداد خوفي حين أسرع وزير الخارجية إلى تقديمي إلى السفير الأميركي. أحسست بأن الموضوع مطبوخ بين الرئيس ووزيره. بل أحسست أن السفير الأميركي على علم بذلك. خصوصاً حين بادرني بالقول: أعرف المستر سميح. إنه على علاقة جيّدة بالفلسطينيين. أظن أنه عرفهم جيداً وتعاون معهم.. بادلته ابتسامات عدة باردة. واكتفيت بترديد عبارات دبلوماسية غامضة. ثم انتحيت جانباً مع سكرتيري الخاص في القصر.

بدا لي الحفل، حفل عيد ميلاد الرئيس، وكأنه مأتم لي. مضى ذلك المساء ثقيلاً.. ثم جاء الليل فأدخلني في صراع مرير مع نفسي. وفي الصباح، وكنت قد اتخذت قراري، ذهبت لمقابلة الرئيس. كان موعدي معه بعد الغداء، أو لأقل بعد القيلولة مباشرة. سألني الرئيس بسرعة:

ـ هل فكرت في بعض الأسماء يا سميح؟

– سيّدي الرئيس، لم أستوعب الموضوع بعد.

ضحك الرئيس (أعتقد الآن أنه ضحك مني) ثم قال: في البداية قد يسبب لك نوعاً من الصداع. ولكن بما أن الحقيقة أصبحت موجودة، فإن لا شيء يجعلنا نمتنع عن تناول الدواء.. أضاف يقول: لا أريد أن نكون متخلفين عن الآخرين. ثم لا أريد أن نكون ملكيين أكثر من الملك. الفلسطينيون أنفسهم أصبحوا يرشفون الشاي في بيوت الإسرائيليين. ألم تر بعينيك كيف سار عرفات في جنازة رابين؟ إن أهل مكة أدرى بشعابها. ثم لا أعتقد أنك تجهل كون عرفات قد أصبح عرّاب العرب لدى أميركا وإسرائيل، بعد أن خدم العرب لعهود طويلة كعرابين له لدى أميركا.

ما زلت أسمع الرئيس وهو مسترسل في عباراته حين خفض من مستوى صوته وهو يقول:

– لقد قررت إرسالك إلى هناك كقائم بالأعمال. إنني شخصياً لن أجد أفضل منك.

ولأني لم أسمع كلمة «إسرائيل» إذ استبدلها بـ «هناك» سألته:

– أين.. إلى هناك، يا سيادة الرئيس؟

أجابني بسرعة وبلا تلعثم:

– إلى تل أبيب.

شعرت وكأنه ضربني بحجر كبير. كان مستوى الصدمة أقوى من توقّعاتي. جمعت كل شجاعتي ثم قلت على الفور:

– إني أرفض ذلك. لو أمرتني بذبح ابني كعربون وفاء، فإنني لن أتردد. أما أن أذهب إلى تل أبيب.. فذلك ما لن أفعله. وإذا

أراد الرئيس أن أقدم له استقالتي فسوف أفعل ذلك في الحين.
طأطأ الرئيس رأسه قليلاً.. فاستأذنت ثم حملت ما تبقّى من كرامتي وخرجت.

* * *

حين وصلتُ إلى حكاية الاستقالة توقفت عن الكلام. كان كل من أبي يحيى وأبي عمر يتابعان قصتي بشغف ولم يقاطعاني قط. ولكني خفت أن أبدو ثرثاراً أو أن أشعرهما بالملل، فاكتفيت بذلك القدر من حكايتي المؤلمة. كنت صريحاً وشفافاً وغير مبالغ في أي شيء، بل حرصت على حذف وتجاوز أشياء عدة كي لا أظهر بمظهر الضعيف أو المتشفّي. كان إدراكي بأن التفاصيل تقتل الحماسة وتبعدنا عن ذروة الاستماع، عالياً. كذلك قدرت أن أبا يحيى يستطيع أن يجعل من قصتي شيئاً تافهاً لا يذكر لو أنه قرّر أن يروي لي قصته مع الحياة. هكذا أفرغت الجزء الأكبر مما كان يثقلني فأضحيت أكثر خفة واستعداداً لأضع في رأسي بدل ذلك أشياء أخرى جديدة. كنت من قبل كالكيس المملوء الذي لا نستطيع أن نضع فيه شيئاً آخر إلا إذا أفرغنا جزءاً منه. حدث ذلك داخل خيمة صغيرة وأنيقة نصبت في فناء المعسكر، بينما كانت كؤوس الشاي الصغيرة تأتينا تباعاً. وإذ افترضت أن بقية محنتي قد أصبحت معروفة منذ أن تكلمتُ عنها الصحافة الدولية قبل نحو ستة أشهر، إلا أن أبا عمر أرادني أن أكمل الحكاية. ثم شدّد وألح عليّ بشكل لم يترك لي أية فرصة للاعتذار. استأذن أبو يحيى منّا للمغادرة.. ثم شرعت أقول لأبي عمر:

... كانت نقطة الانفصال بيني وبين الرئيس حين قدمت له استقالتي في

اليوم التالي. قبلها، ولكنه لم يعلن عنها لا في الإذاعة ولا في الصحف. أبلغني مستشاره لشؤون الإعلام أن الرئيس مستاء وحزين «لأنك كتبت استقالتك بشكل عصبي وفي أسلوب حاد». ولم أشعر بعذاب الضمير إلا حين وجدت نفسي خارج القصر معزولاً في بيتي. لقد سحبوا كل شيء. حتى البيت الذي كنت أسكن فيه غادرته خلال أسبوع بعدما أبلغوني بذلك. ذهبت إلى شقة ورثتها عن والدتي. ثم اكتشفت أنني أصبحت تحت المراقبة المستديمة. وتساءلت ماذا فعلت لكي أصبح مطارداً ومراقبا؟ وبما أنني على يقين بأن الدول العربية باتت سجوناً لأهاليها، فلم يحزنّي ذلك كثيراً. ولكن ما أحزنني هو كيف أخدم الرئيس كل ذلك الوقت ثم يخضعني للمراقبة؟ الحقيقة ليس ذلك ما أحزنني بالضبط. بل هو شعوري بأنني نقطة في فراغ سواء أكنت مستشاراً أم مواطناً بسيطاً. كذلك شعوري بأنني استُخدمت لأغراض كثيرة ومتشابكة ثم رميت جانباً كخرقة وسخة. بالإضافة إلى ذلك إحساسي بأنني خنت مبادئي وتعاونت مع رجال ليسوا من طينتي ضد رجال أبرياء أو هم غير مفهومين وغير مدانين!

لمدة ثلاثة أشهر لم يرن الهاتف لا في بيتي ولا في جيبي. لقد تخلّى عني الجميع. أصدقاء السلطة رأوا فيّ منشقاً خطيراً يهدد مصالحهم. وأصدقاء العمر رأوا فيّ خائناً لمبادئه يستحق كل عقاب يسلّط عليه. فكرت في السفر فوجدت نفسي بلا جواز سفر. طلبت ذلك مراراً من الرئاسة فكان جوابهم في كل مرة يحيلني إلى الانتظار. شرعت في تأليف كتاب عن جذور الشمولية في الفكر اليساري، غير أنني وجدت نفسي أحتاج إلى مراجع عدة غير متوفرة (هنا نسيت أن أقول لك إن أهم كتبي قد

حملتها إلى مكتبي في الرئاسة. وحين استقلت، خرجت بملابسي وحذائي فقط. وإلى يومنا هذا لا تزال كتبي هناك).

شُغلت بالتكيف مع حياتي الجديدة.. ثم عدت إلى كتابة بعض المقالات ذات النبرة السجالية في بعض الصحف. لقد أنقذني ذلك من غثيان الانتظار وثقل الشماتة. ثم منحني فرصة لمناقشة بعض الأفكار السائدة. بل وجدت فرصة لكي أكفّر عن بعض ذنوبي وأنا أقوم بعملية نقد ذاتي غير مباشرة. والأهم من ذلك كلّه أتاح لي دخلاً مادياً أعانني على الحياة. فبالرغم من أنني أستاذ جامعي في مادة العلاقات الدولية، إلا أنني لم أُقبل كمدرّس في أية جامعة ببلادي. كان أفضل أصدقائي هو عبد الجواد أمين، وهو صحافي ـ مراسل في باريس. لم يبخل عليّ هذا الصديق، بل جعل من محنتي همّاً له، فكتب عنّي مرات عدة في الصحف العربية ثم سرّب ذلك إلى بعض أصدقائه في الصحف الأجنبية. وقد وجدت في ذلك كلّه عزاءً كبيراً وحماية لي من اتهامي بمؤامرة كبيرة أو خيانة للوطن. لقد ظللت لمدة ثلاثة أشهر أفتح الصحف الوطنية كل صباح ويدي على قلبي خوفاً من أن أجد اسمي مورّطاً في خيانة وطنية، أو في خدعة جنسية مفبركة، إذ كان ذلك الأسلوب الطاغي لطحن عظام كل من يتجرأ على قول «لا» للرئيس.

أعاد عبد الجواد أمين ربط علاقاتي القديمة ببعض الأصدقاء في باريس ولندن. ومن حين إلى آخر كان يرسل لي بعض الزملاء الصحافيين.. وذات يوم وجدت نفسي وجهاً لوجه مع الصحافية إيزابيل وهي تدق باب شقتنا. فقد شاءت أن تأتي مباشرة بعدما أخذت العنوان من عبدالجواد، ولم تخابرني بالهاتف لاعتقادها أن الهاتف مراقب.

لم أرَ إيزابيل منذ نحو أربع سنوات، وكنت قد عرفتها في حفل ديبلوماسي حين قدّمها لي عبدالجواد. زارتني أكثر من مرة في السفارة، وقد تمكنت من تسريب فكرة إجراء ريبورتاج صحافي إليها عن طريق عبدالجواد، فذهبتْ إلى إسرائيل وتونس حيث أجرت مقابلتين منفصلتين عن الفكرة نفسها ـ فكرة السلام ـ مع كل من رابين وعرفات. وقد استفدت من ذلك الريبورتاج في كيفية صياغة تقرير ديبلوماسي عن بوادر السلام في الشرق الأوسط.

لم تتغير إيزابيل. كانت لا تزال مشعة وناشطة ومتفائلة إلى أبعد الحدود وكأنها دخلت إلى عالم الصحافة البارحة فقط. قدمتها إلى زوجتي في الحين، فاحتفت بها كما تفعل نساء العرب بضيفاتهن الأجنبيات.. انشراح وتبرّج ودفء وحنان. وقد شكرتها على زيارتها ثم قلت لها:

ـ أنت لم تزوريني ولو مرة واحدة حين كنت مستشاراً كبيراً في هذا البلد.

ضحكت إيزابيل بقوة ثم ردّت عليّ:

ـ أن يكون المرء مستشاراً للرئيس، فهذا أمر غير نادر في عالم اليوم. أما أن يصبح مستشار الرئيس في بضع ساعات مشرداً ومطارداً، فهذا ما يبحث عنه الصحافيون بلهفة..

(هنا سألني أبو عمر ما إذا كانت إيزابيل صحافية فرنسية؟ فقلت نعم. ثم سألني:

ـ هل هي طويلة وشقراء؟

ـ نعم.

ـ أقدر أنها الآن في الأربعين؟

ـ تقريباً.

ـ ومولعة بالإسلام والحركات الإسلامية.. أعتقد أنها كانت تعدّ لإصدار كتاب عن العرب والمسلمين أو ما شابه ذلك.

ـ هل تعرفها؟

ـ نعم، رأيتها في كوسوفو. وقد أجرت معي مقابلة صحافية. إنها ذكية وناشطة).

إيزابيل هذه التي عرفتها يا أبا عمر هي التي أنقذتني من الموت أو الانتحار. فبعد ثلاثة أيام من الحوار والنقاش معها عن السلام وإسرائيل والإسلام والحركات الإسلامية، سافرت إلى فرنسا. وهناك قادت حملة إعلامية للدفاع عنّي. تكلّمت في بداية الحوار الذي أجرته معي عن فضل الإسلام على الغرب. وقد تحدثت فيه عن الغرب المريض بالنكران والنسيان. فذكرت أن الدين في طريقه إلى العودة وأن العطش إلى الله قد بدأ يضرب أرض الغرب. كنت آنذاك قد وقعت في سحر الإسلام. فمن فرط ما ندمت على ما فعلته بالناشطين الإسلاميين، بتّ أبحث عن مطهرة داخل أحواض الإسلام. ثم إن انهيار الفكر الشيوعي وانهيار منظومة الدول الشيوعية، قد أشاع فكرة مفادها، أن الغرب قد استيقظ مذعوراً على المواجهة الشرسة بين المسيحية والإسلام مثلما كان ذلك في عهد الحروب الصليبية، وهذه الفكرة قد طغت عليّ في وقت من الأوقات، تضاف إليها فكرة العدو المتخيل الذي يحتاج إليه الغرب من أجل تماسكه، وهو الإسلام في هذه الحالة. أما عدم رضوخ الإسلاميين لما يسمّى بأمر واقع القوة الوحيدة ومواجهتهم لمشاريع «الباكس أميركانا»،

فقد أثارني، بل هو الذي شجعني على عدم القبول بالذهاب كسفير لبلادي، إلى إسرائيل.

حين قرأت ما كتبته عنّي إيزابيل وجدته ينبض بالتعاطف وردّ الاعتبار. فرغم أنني هاجمت الغرب وقلت إن هويته قامت على مبدأ النسيان ونكران ثقافة الينابيع الأولى: الإسلام، وهاجمت إسرائيل وقلت إنها قامت على انحراف الذاكرة وإشباعها بالفانتزمات، إلا أن إيزابيل دافعت عنّي جيداً، ثم أوحت لي بالصمود والمواجهة حين تحدثت عن إمكانية قيامي بإضراب جوع. لم أكن أفكر في إضراب الجوع آنذاك. ولكن حين وجدت أن الفكرة تستحق المعاناة لأنها قد تردّ لي اعتباري واسترجاع جواز سفري، فقد عزمت على ذلك. أعلنت عن إضراب جوع في البيت. ثم خابرت كلاً من الوكالة الفرنسية و«رويتر». ولم يمض اليوم الثالث حتى هجم على بيتي طبيب ومبعوث خاص من الرئيس وعضو ناشط في منظمة حقوق الإنسان وأحد الصحافيين. امتنعت عن التصريح بأي شيء. أما مبعوث الرئيس فقد أخبرته بأنني لن أضع حدّاً لإضراب الجوع ما لم أحصل على جوازي. امتدّ إضراب الجوع نحو ثمانية أيام. أدخلوني إلى المستشفى عنوة. لكنني حملت بقايا نفسي وعدت إلى البيت قائلاً لهم: «أريد أن أموت بين أبنائي وفي بيتي». آنذاك أصبح إضرابي عن الطعام أحد الأخبار البارزة في الصحافة الفرنسية. وبات الرئيس مستهدفاً شخصياً إذ بات متهماً مباشرة بكلّ ما حدث لي. وفي اليوم العاشر، عاد مبعوث الرئيس إلى بيتي ليناولني جوازي، وهو ينقل لي تحيات الرئيس. وها أنا معك في قندهار يا أبا عمر.

آنذاك، في اللحظة التي صمت فيها، أحسست أنا أبا عمر يريد أن

يسألني عن شيء ما ففاتحته قائلاً:

ـ أشعر أنك تريد أن تسألني عن أمر ما.

ـ نعم، وكيف وصلت إلى أبي يوسف في لندن؟

ـ إيزابيل هي التي أعطتني عنوان أبي يوسف عندما أصبحت إلى جانبها في باريس. صارحتها بأني أرغب في الاتصال ببعض الأخوة الناشطين في الحركة الإسلامية، فأعطتني عنوان أبي يوسف وأخبرتني أنها ستخبره بذلك. وهناك في لندن لم أطلب من أبي يوسف إلا أن يفتح لي الطريق إلى قندهار.

٣٠

خلال أكثر من ثلاثة عشر عاماً من العمل الصحافي، غالباً ما كان اقتراح السفر لتغطية حدث خارجي يأتي من رئيس التحرير.. أو منّي شخصياً. سافرت كثيراً إلى بلدان الخليج وساراييفو وكوسوفو وأفريقيا والشرق الأوسط. ولا أذكر أنني ذهبت في أية مهمة صحافية من دون اتفاق مسبق مع رئيس التحرير. مرة واحدة وربما وحيدة ذهبت فيها إلى تونس والقدس باقتراح من السفير سميح عبدالغفار بعدما أعجبني اقتراحه.. ثم هذه المرة التي سأتحدث عنها الآن.

فتحت الإنترنت في أحد الصباحات وكنت مفعمة بنشاط غير عادي ـ لعلّه ولعي أو إدماني بدوغ ـ. تفقدت موقعي «الويب»، فوجدت أن دوغ قد أرسل لي بحزمة من القصاصات عن الإرهاب الجديد، أو الإرهاب الإلكتروني. اتصلت فوراً بدوغ فوجدته في انتظاري. كنت قد بدأت أستسلم لهذا الرجل الوسيم منذ أن كان رجلاً افتراضياً. لقد أصبحت مدمنة على رؤيته منذ أن تعرفت إلى وجهه وملامحه حين

أصبح لكل منا «موديم فيديو» ملحق بشاشة الكومبيوتر. كان يضحك بشهية، وكان ممتلئاً بما يسمّى بالذكاء العاطفي الذي يكاد ينطق من خلال الشاشة. ذلك الذكاء الذي عادة ما تكون له قبضة قوية تهيمن على عقلي المفكر.. ذلك الذكاء يجعلني أهيم بسذاجتي وأنوثتي في عالم دوغ من دون أية مقاومة.

حيّاني دوغ بخفة كما يفعل عادة قائلاً: مرحباً، إيزابيل، كيف كانت ليلتك؟

- نوم هادئ وعميق. مزاج رائق. ومونولوج سحري وخفيف.
- هل فكرتِ فيّ قليلاً؟
- كان أمراً فوق طاقتي. كنتَ تقريباً نائماً إلى جانبي.

انتشلني دوغ إلى جوّ لطيف وحميمي. قلت لنفسي إن الحياة هي كرمّانة مغلقة وملأى بمئات الحبّات. عدد الحقائق التي تمر بالإنسان مثل عدد حبات الرمانة. تفاصيل كثيرة، أما الحقيقة فكثيراً ما تقاوم الإفصاح والتعرية.. وفيما أنا أفكر كم أولد في كل حين دون مقاومة، أو هكذا صغت التعبير عن الحالة التي وجدت فيها نفسي، سمعت دوغ يقول لي:

- إيزابيل، هل قرأت القصاصات التي أرسلتها لك؟
- نعم، لقد اطلعت على أغلبها. أمضيت أكثر من نصف ساعة وأنا أتصفح قصاصاتك. كنت متأكدة أنك ستسألني عن ذلك.

(في الحقيقة، فعلت ذلك لسببين. الأول، لإرضاء دوغ الذي أصبحت أسيرة لذكائه العاطفي. والثاني، لإرضاء حبّ المعرفة والاطلاع الجارف على كل ما يفكر فيه دوغ). قرأت المقدمة التي جاءت تحت عنوان

«صناعة الجوسسة وجوسسة الصناعة» فوجدت فيها أفكاراً مثيرة حتى وإن كانت مكررة مثل «إن كل الذين لا يحبذون التفسير البوليسي للتاريخ إنما هم يقعون في أخطاء فادحة...» وقد ضرب مثالاً عن ذلك بإمبراطورية السوفيات التي تساقطت كأشلاء في بضعة شهور منذ أن تفتت جهاز الكا. جي. بي. بقرار غامض. أعجبتني أيضاً تلك الفقرة التي جاء فيها: «يتحرك التاريخ بالأفكار الكبيرة والأيديولوجيات والاختراعات الجبارة وكذلك بالعمل، وصراع الطبقات، والحروب، وتراكم الثروات والأراضي، والتحكم في البحار والطرقات والمواصلات والتجارة، غير أن ذلك كله لن يكون ذا فائدة لو أنه لم يخضع لرقابة أمنية وتغذية أمنية مستمرة حتى لا يتم إنهاكه أو انتهاكه. فالأفكار والاختراعات تسرق وتتعرض للسرقة والذبول مثلما تتعرض الثروات والأراضي للغزو. ومنذ أن وعت الدول «أن لا شيء يمكن أن يفلت من قبضة السّراق» و«أن كل شيء يمكن أن يكون سرّاً ويمكن أن يستهوي السراق»، راحت تنفق على البوليس والجواسيس وأنظمة الحماية بلا حساب وبلا مراقبة». تضيف قصاصة أخرى جاءت تحت عنوان «يرابيع المصانع»: أن الجواسيس هم دائماً طلائع أي تغيير كبير أو صغير. بل هم إذا ما وصلوا في الوقت المناسب بإمكانهم أن يضعوا التاريخ رهن إشارتهم والجغرافيا تحت أقدامهم. ففي الحرب الثانية كان للجواسيس الدور الأول في تغيير موازين القوى. فلو لم يتوصل يرابيع بريطانيا إلى اكتشاف مصانع الصواريخ العابرة للقارات في ألمانيا ومن ثم تدميرها، لاستمرت الحرب لسنوات طويلة في أقل تقدير، أو سيطر هتلر على بريطانيا وأوروبا كلها كما قال تشرشل بنفسه. ومن ناحية هتلر، فلو أنه

عرف أن أميركا قد توصلت إلى صنع السلاح النووي قبله لغيّر من أساليبه وتحالفاته. أما اليابانيون فلو أنهم عرفوا أن أميركا لم تكن تملك إلا قنبلتين نوويتين رمتهما على ناغازاكي وهيروشيما، لما أعلنوا الاستسلام.

أشرت على دوغ بأن ما جاء في قصاصة «الأمن القومي» كان مفيداً جداً لي، إذ وجدته متطابقاً مع قناعاتي ولا سيما ذلك المقطع السجالي والجازم بحقيقته والذي جاء على النحو التالي: «كل شيء يدخل في مجال الأمن القومي لأية دولة. ورغم الحديث الكثير عن التعاون والتشارك والتبادل وعولمة التجارة وإنشاء الأسواق الحرة وتقلص مفهوم السيادة الوطنية واختزال الجغرافيا وانتقال البشر من بلد إلى بلد آخر، إلا أن «الأمن القومي» يقع فوق كل اعتبار. وهو لم يعد يتمثل في حماية أسرار الجيوش وأسرار معداتها أو حراسة الحدود البرية والفضائية والبحرية. بل إنه يمتد إلى أية زاوية وإلى أية مصنع وإلى أي معلومة مهما كانت بسيطة. إن المحطات الفضائية لها أهمية مصانع الكوكاكولا نفسها في أميركا، كما أن معاهد البحوث الفيزيائية هي بأهمية نتائج البحث عن أمراض السيدا والسرطان وبعض الفيروسات القاتلة. فإذا كانت العلاقات الدولية تتعرض أحياناً للانتكاس، ولأن الدول تدرك جيداً أن التجسس في الأمور الزراعية لا يقل خطورة عن التجسس في أمور السلاح، فالتقارير التي تحصل عليها «السي.أي.إي» عن الزراعة الفرنسية هي صيد ثمين بالنسبة للوبيات التجارة والزراعة الأميركية، غير أن «تقريراً مزوّراً» واحداً في كل عام ترسله فرنسا، غالباً ما يدفع مراكز التحليل والاستطلاع الأميركية إلى نتائج خاطئة».

أما ما جعلني أكثر توقاً لرؤية دوغ في ذلك الصباح، مع أني لا أخفي

إعجابي، بل ولعي به كرجل، أو بالأحرى ما جعل التوق إلى المعرفة يتعادل والتوق إلى الشخص يبلغ النقطة الأكثر صفاء، هو ذلك المقطع الذي جاء تحت عنوان «الجاسوس الحديث»، إذ قرأت ما يلي: «لقد وصل «الجاسوس الحديث» مع الحرب العالمية الثانية. كان فيما مضى رجلاً من دون وجه، يلبس نظارات سوداء ويظهر في هيئات عدة، ويضطر أحياناً إلى الأقنعة أو الباروكات. كان أيضاً وسيماً في أغلب الأحيان لأنه في حاجة إلى معاشرة النساء ويتقن اللغات وكذلك الرقص والموسيقى، ومتدرب على ألعاب كثيرة كما على شرب الكحول. وهو في غاية اللطف والبشاشة. أما الآن فهو رجل آخر من الصنف العادي قد لا يثير أي اهتمام، وهو يعمل غالباً في مركز حساس ويتميز بحس سليم ولا يحتاج إلى أي نوع من الإكسسوار. فهو مهندس زراعي وطبيب ومدير شركة وصحافي وفني وسيدة صالون، وهو أيضاً لا يعرف شيئاً عن مهمته بالتحديد لأنه يعمل في شبكة لا يعرف عنها شيئاً. باختصار، لم يعد الجاسوس فرداً، بل أصبح شبكة، وهو لم يعد بالضرورة ملحقاً بفرقة بوليس، بل قد يكون عضواً في مجلس إدارة أو مديراً لمصنع ما. إن حرب الصناعات أو حرب التجارة أو حرب الأدوية، ليست إلا حروباً طاحنة جنرالاتها من الخبراء في الزراعة أو الاقتصاد والصناعة والبنوك. وجنودها من عمال الشركات ومهندسيها. وميادينها تقع في كل مجال. أما نتائجها فتلك العقود التجارية التي تحصد مئات الملايين للأمن القومي لأي بلد».

كنت أفكر في ما سأقوله لدوغ كانطباع أولي عما قرأته من حزمة قصاصاته عن «الجوسسة»، حين فاجأني قائلاً:

- إيزابيل، هل تصدقين أنني قادم إلى باريس في الأسبوع المقبل؟
- إذن، سنلتقي قريباً يا دوغ.
- بل سنعيش معاً وقتاً ممتعاً. انتظري مني في المساء حزمة أخرى من الرسائل حول «الإرهاب الجديد». باي إيزابيل. أنت امرأة أكثر من ممتعة.

* * *

تركني دوغ في ذلك الصباح، غارقة في بركة من المشاعر المتضاربة. هل كنت واعية بنفسي؟ لا أعتقد ذلك وإن كنت مملوءة بالأحاسيس بأنني واثقة من نفسي وواثقة من عقلانيتي التي تجعلني قادرة على إدارة عواطفي. هل كنت سابحة في انفعالاتي؟ لا أعتقد ذلك أيضاً لأنني لا أحاول أبداً الهرب مما يبدو لي محاولة للخروج من العجز. لم أكن فاقدة السيطرة على نفسي أو عواطفي، وإنما كنت منساقة بحرية واستقلالية إلى مغامرة جديدة. وهل كنت متقبلة في داخلي للقاء مع دوغ لحماً وشحماً دون الخوف من الصدمة؟ هذا ما أصبح لدي، وفي الحين، كأمر واقع يجب ألاّ يخضع لليأس وإنما يجب أن يؤخذ كنوع من التحدّي المهني والعاطفي.

عاطفياً، كنت ناضجة لذلك اللقاء، وفي الوقت نفسه خائفة منه لأنه قد ينهي علاقتي الأولى مع دوغ. ومهنياً، كنت توّاقة لمعرفة دوغ على حقيقته، وفي الوقت نفسه منفعلة إلى حد ما لأنني كنت أجهل تماماً ما إذا كنت قادرة على التخلص من قبضته القوية فيما لو بدا لي غامضاً أو متشدداً أو قامعاً لحريتي.

كان عليّ أن أنهض بكل تلك الأحاسيس، وأذهب إلى مقرّ الصحيفة.

حضرت اجتماع التحرير الأسبوعي وأنا تائهة بين انفعالات عدة. اقترح عليّ رئيس التحرير الذهاب إلى إندونيسيا لتغطية تداعيات سقوط الديكتاتور سوهارتو. لم يكن ذلك ليبعث فيّ أي حماسة إذ بدأت أشعر بالملل من السفر. ثم اقترح عليّ إتمام سلسلة الحوارات المضادة، التي كنت قد أنجزت منها حوالى دزينة، مع موسيقيين ورياضيين وسياسيين وعلماء. لمح في ذهني الجنرال بازوف الذي ربطتني به صداقة متقطّعة. ثم لمع في خاطري الموسيقار ساروت الذي بدأت علاقتي به تجنح نحو الصداقة الهادئة. كنت في ذلك الاجتماع أكثر ميلاً للبقاء في باريس لرغبتي الجارفة نحو دوغ. ولأنني أصبحت مهتمة بدوغ عاطفياً ومهنياً، فقد اقترحت على رئيس التحرير أن أقوم بحوار مع شاب أميركي حول ما يسمّى بالإرهاب الجديد أو «الإرهاب الإلكتروني»، فاستحسن الفكرة ثم أثنى عليها قائلاً: «هذا موضوع جيّد. إنه همّ أميركا الأول».

أكملت بقية نهاري فقصدت مقهى التروكاديرو، حيث تناولت وجبة خفيفة «كلوب ساندويتش» وسجلت بعض الملاحظات حول دوغ كعاشق افتراضي بدا أنه نجح في الدخول إلى حياتي الواقعية. بعد ذلك ذهبت إلى صديقتي أنطوانيت التي تسكن في شارع «راسباي» المتفرع عن بوليفار «سان جرمان»، وهي الصديقة الوحيدة تقريباً التي احتفظت بها منذ أيام الدراسة في «الليسيه». وإذ كانت أنطوانيت أكثر هدوءاً مني وأقل طموحاً، فقد كانت دائماً أفضل من يتفهم مشاعري حتى لو أمعنت في إخفائها. كانت طالبة متفوقة من الدرجة الأولى وكانت قلقة جداً على درجاتي وكذلك على علاقاتي المتوترة مع الزملاء بشكل متفاوت. حمتني كثيراً من الانزلاقات الخطرة، وقد كنت أروي لها كل

شيء، حتى عن علاقتي المتوترة، وذات الموجات الصاعقة من الغيرة، مع أمي. تزوجت أنطوانيت مرة واحدة من «بيار دينڤوا» وهو فرنسي من مدينة «ليل» يعمل حالياً كمدير لأحد فروع بنك «كريديه ليونيه» في باريس. كان ذلك في السنة نفسها التي تزوجت فيها من عبد الرحمن الجزائري. وللحقيقة نصحتني بأن لا أفعل ذلك لا بسبب ميولات عنصرية، وإنما لمعرفتها بمزاجي وتوقي الجارف نحو الحرية. اختارت أنطوانيت المكوث في البيت بعد أن عملت كمدرّسة لمادة التاريخ لبضع سنوات، وكذلك بعد أن أصبحت أمّاً لثلاثة أطفال. أما أنا فقد اندمجت في العمل الصحافي، حتى اعتبرته ملاذاً لي من الملل والانسحاق تحت الروتين. زادني عملي توتراً وقلقاً وتشابكت حياتي بحياة أناس آخرين إلى درجة العنف مرة وأخرى إلى درجة العشق. فأنا امرأة، حتى وإن كنت ذكية وقوية وواثقة من نفسي فإنني كثيراً ما أكون طائشة. والطيش الذي كان يأسر شخصيتي العقلانية والذي كنت أكرهه، كنت كذلك أحبّه لأنه يجعلني أكثر قرباً ممّن أحبّ. أو بعبارة أخرى، كان يجعلني أكثر ذكاء وأكثر فتنة وفطنة. ولكن أنطوانيت، التي تعرفني جيداً والتي تملك عاطفة أنثوية صادقة والتي لا تخطئ أبداً في تقدير تأثير ذلك الطيش الجميل والفاتن، على مسار حياتي، كانت قادرة على اختراقي حتى أنها باتت تعاملني في بعض الأحيان كطفل يعاني من عدم القدرة على التأقلم. ولولا ثقتي العميقة بأن أولى الصداقات القوية التي نقيمها في حياتنا هي تلك التي نقيمها مع أصدقاء من الجنس نفسه، لرفضت مثل تلك الصداقة مع أنطوانيت. فهي الوحيدة التي أشعرتني بالاختلاف والعمق والتشابك والتعاطف وعدم الإهمال والاهتمام المتجدد. وهذا

بالضبط ما لاحظته حين قالت لي أنطوانيت وهي تفتح لي باب الشقة مباشرة:

ـ هل أنت حبلى يا إيزابيل؟

ـ أبداً.

ـ هل أنت غاضبة من مارسيل؟

ـ لم أره منذ ثلاثة أيام.

ـ هل تثقلك بعض الأعمال الشاقة؟

ـ ربّما.

ـ مثل ماذا؟

ـ حدثني دوغ هذا الصباح، وقال لي إنه قادم إلى باريس في بداية الأسبوع المقبل.

ـ هذا أمر جيّد بالنسبة لك. فمنذ فترة وأنت ترغبين في رؤيته.

ـ أنا خائفة يا أنطوانيت.

ـ من ماذا؟

ـ من تجربة أخرى قد تكون قاسية. إن عاطفتي قوية تجاه دوغ. ولكني لا أثق كثيراً في ميكيافيلية الرجل الأميركي. لقد تعبت من العلاقات التي لا أتحكم في مسارها. وفي الوقت نفسه لا أتحمل العيش في كنف علاقات تبدو لي ميتة منذ لحظتها الأولى.

بعد صمت طويل انتاب أنطوانيت، وقد أحست باضطرابي، سألتني:

ـ كم عمر دوغ؟

ـ لا أعرف. ولكني أقدّر أنه في الثلاثين أو أكثر بقليل.

ـ هل تقدرين على عدم رؤيته؟ هل بإمكانك أن تتحججي بمهمّة عاجلة وطارئة خارج فرنسا؟

لم أتمكّن من إجابة أنطوانيت إذ لم أفكر في ذلك قط. ثم إني لم أكن واثقة من قول الإجابة الصحيحة في تلك اللحظة. فقد حدثت في داخلي مواجهة بين زمنين. واحد افتراضي حلو وخفيف يلفني بأطيافه الملونة، وواحد واقعي وثقيل ويلفني بغطرسته. كانت الانفعالات، انفعالاتي من شدة الشعور بالوقوع في ما يسمّى بهوة الزمن، تكاد أن تنطق بنفسها، ولكنني تمالكت وسيطرت إلى حد ما على كلماتي وأنا أقول لأنطوانيت:

ـ أعتقد أن دوغ سيكون أكثر مما أتوقّع.

ـ هل تتوقعين أن يكون باحثاً عن مغامرة سريعة أم عن علاقة متينة؟

ـ لا أعرف. ثم إني لا أعرف ما نوع المغامرة التي يبحث عنها.

عند ذلك الحدّ، أحسست أنني لا أملك أية إجابات واضحة. أما أنطوانيت، فأعتقد أنها أصبحت واثقة من أنني لن أقاوم إغراء هذا الرجل الغامض، القادم من أميركا والخارج لتوّه من شاشات الكومبيوتر. لذلك فقد قامت لتناولني كوباً من البرتقال الطازج، الذي أحبّه كثيراً. بعد ذلك انهمكنا في أحاديث متقطعة عن الموضة والأفلام وآخر الروايات التي اشتركنا في قراءتها. وقبل أن يعود زوجها بيار من العمل، اندفعتُ إلى شارع راسباي باتجاه سيارتي. كان المساء قد سيطر على باريس، وكان عليّ أن أتساءل ما إذا كان نهاري جميلاً أم لا وأنا أقود سيارتي «الغولف» باتجاه منزلي في منطقة «نيي».

* * *

قبل أنا أنام، جلست إلى الكومبيوتر لمدة نصف ساعة للاطلاع على بريد دوغ الجديد. وجدت حزمة ثقيلة من القصاصات التي تتحدث عن القرصنة الإلكترونية والفيروسات و«بقّة» العام ٢٠٠٠ التي تهدّد العالم بالتوقف عن الاتصال ولربما بالانفجار. وكذلك عن إرهاب الإنترنت الجديد. لم يكن بإمكاني أن أقرأ كل شيء فاكتفيت بما جاء على لسان أحد خبراء «السي.آي.إي» عن «صورة الإرهاب المعاصر» أو «النيوإرهابي»، وهو شخص لا يشبه الإرهابي الذي شاعت صورته في السبعينيات وحتى الثمانينيات. فهو ليس بالضرورة ينتمي إلى خلايا تقليدية ومحكمة التنظيم، كما أنه ليس ذلك الشخص المنضبط والذي يعتمد على طرق ثابتة لتنفيذ عملياته مما يجعل من يترصده أكثر يقظة ومعرفة بردود أفعاله وأماكن صيده ومن ثم التسلّل إلى خلاياه لتدميرها الواحدة تلو الأُخرى.

عرفت أن ما يشغل رجال الأمن والمخابرات هو عجزهم عن تنميط ذلك الإرهابي الجديد. إنهم لا يملكون عنه صورة منمطة لأنه يعمل داخل فضاء قريب إلى الفوضى والارتجال والتصرّف الذاتي. وهذا ما يجعلهم عاجزين عن رصد حركاته وتوقع ظهوراته.

كان واضحاً من خلال مقال «أنا أموت، إذن أنا موجود» أن أميركا أصبحت تعاني من ثقافة الحقد. ففي رأي أحد خبراء مكافحة الإرهاب، أن المجتمع الأميركي قد أصبح مملوءاً بالحقد ضد الحكومة الفيدرالية. وأن هذا الحقد يعقد حالياً أكبر الصفقات مع الحقد الخارجي ضد أميركا. والهدف من كل ذلك حسب رأي هذا الخبير أن تتوقف الديموقراطية، وتعلن حالة الطوارئ ثم تصبح أميركا بلداً يحكمه القانون العسكري

داخلياً وخارجياً. وهذا ما سوف يؤدي إلى الثورة في الداخل والخارج ضد أميركا. أي الثورة العالمية بحق، التي عجز الشيوعيون عن قيادتها!!

في قصاصة أخرى حول «التكنولوجيا في خدمة الإرهاب» عرفت أن صعوبة الكشف عن تلك الشبكات الإرهابية تكمن في امتلاكها لجميع المبتكرات التكنولوجية كالكمبيوترات الضخمة ذات القدرات الهائلة على التحليل والتصميم والتضليل والتسلّل والتخريب، والهواتف النقالة ذات الحركة الذاتية للاتصال بطرق فذّة ومبتكرة، إلى جانب القدرة على صناعة الفيروسات غير القابلة للاندحار وصناعة المواد الخطيرة ذات الإشعاعات الهائلة التي تتفوق على القنابل النووية في صغر حجمها وتأثيرها وإمكانية انتقالها بسرعة وضمن حركة لوجستية سريعة ومذهلة.

عند ذلك الحدّ، لم أعد قادرة على التركيز. شعرت بإرهاق مفاجئ قد حطّ على أكتافي. كنت أريد أن أقرأ المزيد، إلاّ أن التثاؤب قد خدّر خلاياي. ذهبت إلى غرفة نومي متراخية ومثقلة بأفكار متناقضة وغامضة، ولكن النوم استعصى. وفجأة دخلت في حالة من التصلّب الذاتي، فكرت بأنها قد تكون ناتجة من علاقتي الزوجية المضطربة والملأى بالهموم والمنغصات، لكني أقنعت نفسي بأن علاقتي مع زوجي مارسيل هادئة حالياً حتى وإن كانت معطّلة، وهي راكدة في قاع العاطفة المنطفئ. أخيراً فسرت لنفسي تلك الحالة بأنها ربما تكون ناجمة عن وجود واقعين عاطفيين يتصارعان بداخلي. وبما أنني لم أكن متأكدة من أن «دوغ» يحبني كامرأة ويبادلني العواطف التي أفتقر إليها، فقد تهت في تفسيرات أخرى اجتهدت كثيراً في تثبيت عناصرها داخل شاشة عقلي الواعي. أعدت ذلك كلّه إلى الانفصال العاطفي المزدوج الذي أعيشه مع مارسيل

كزوج واقعي، ودوغ، كعشيق افتراضي. وبما أن دوغ قد أوشك أن يصبح واقعاً وهو قد يحتلّ الحيّز الذي يحتلّه مارسيل، وجدت أن ذلك قد لا يعدو أن يكون وهماً لأن حيز مارسيل لم يكن موجوداً بداخلي، بل كان مظلماً، ثم لأن مارسيل لا يحتلّ الحيز الذي من المفترض أن يحتله. كنت أعرف أن النساء عموماً أكثر قدرة على التكتيكات العاطفية، وهي تكتيكات تبدو في أحيان كثيرة وكأنها غرائز فنية. وهذا ما ينقصني كامرأة إذ لم أكن ذات ذكاء خارق لمعرفة الذين يحبونني بحق أو الذين يترصدونني لثأر غير مباشر. لم أتعلّم أي شيء من الخطط الفنية للإيقاع بمن أحبّ، أو لمواجهة من أخاصم، كما تتعلّم البنات في سنّ المراهقة. وربما كان ذلك بسبب تربيتي القاسية أو بسبب تأثير سلوكيات أمّي عليّ، أو بسبب اعتقادي بأنني امرأة جميلة يسعى إليها كل الرجال ولا تسعى لأحد بسبب اكتفائي بذاتي، إذ حققت مهارات عالية في العمل جعلتني أنسى الاعتماد على أنوثتي.

مثل تلك الأفكار، أو بالأحرى، تلك الانفعالات الحارقة قد جعلتني أقلّ توثّباً وحذراً في الصباحات التالية خلال بقية أيام الأسبوع وأنا في انتظار قدوم دوغ من أميركا. عدت إلى حزم الرسائل التي بعثها إليّ دوغ طوال فترة تعارفنا لأتصفحها بعناية، فازدادت الألغاز. كان عذابي يقع في المسافة بين الخوف من فقدان خفة الماضي الجميل والخوف من ثقل المستقبل غير المتوقع. بل ربما كان يقع في المسافة الفاصلة بين شعوري بالنضج الكامل وشعوري بالاستعداد الكامل إلى حدّ الخضوع. كنت أعرف أن النضج محطة خطيرة في حياة الإنسان، لأن الاتجاهات بعد الامتلاء بالنضج غالباً ما تضيق بنا. ونتيجة لذلك يصبح الاستعداد

للخضوع لغيرنا حاضراً وماثلاً أمامنا كخيار جميل يدلّ على قدرتنا الزائفة عموماً على القطع مع الماضي. إن الفرق بين الاختيار والخضوع هو فرق زمني. فأنا لم أعد تلك المرأة الشابة ذات العشرين عاماً أو حتى الثلاثين عاماً التي بإمكانها أن تنتظر لكي تختار. ثم إن الاختيار لم يعد في نظري هو ما نعتقده الأفضل والأنجح والأجمل. فهو قد يكون الأسوأ. ولربما حصل ذلك معي كثيراً. وأخيراً، فإن علاقتي بدوغ إذا لم تكن من اختياري، فهي كذلك ربما ليست من اختيار دوغ. لن أقول إنها علاقة توافقية لأنني لن أستبق ما سوف يحدثه الواقع أو يفرضه عليها، ولكن أستطيع أن أقول إنها نوع من الخضوع الاختياري أو الاختيار الإخضاعي. وهذا أكثر ما يمكن أن أسوقه كمبرر على الضعف البشري الذي عادة ما يصل مع النضج الكامل.

كنت قد أوشكت على الخروج من البيت كعادتي كلّ صباح.. ولم يبق لي أن إلاّ أختار المعطف الذي سأضعه فوق الروب البنفسجي الذي لم ألبسه منذ الشتاء الماضي حين رنّ هاتفي المحمول.. وسمعت صوتاً قوياً يخترقني:

ـ هلو، إيزابيل، أتمنى ألاّ أكون مزعجاً في هذا الصباح، أنا دوغ.

ـ هلو، دوغ. كيف الحال؟ متى وصلت؟ هل أنت في باريس حقّاً؟

ـ البارحة بعد منتصف الليل. أردت أن يكون وصولي مفاجأة.

ـ أين أنت الآن؟

ـ أنا في فندق رويال مونبارناس في الغرفة رقم ٤٠٢٢.

ـ إذن أنت في باريس مونبارناس التي يحبها الأميركان منذ

الأربعينيات؟

ـ متى سأراك اليوم يا إيزابيل؟

ـ سآتي حالاً. هل أجدك في المقهى تحت فندقك مباشرة؟

ـ إنك قد لا تتعرفين إليّ بسهولة.

ـ سأتعرّف إليك. إلاّ إذا كنت ترتدي قناعاً.

كنت محمولة على جناح اللهفة.. أخيراً لقد وصل دوغ الغامض. دوغ الذي ظلّ مسكوناً في خلاياي كإشعاع لا ينضب ولا ينطفئ. دوغ الذي أحبّه وأخافه. دوغ الذي من الممكن أن يجعلني أكثر انسجاماً مع نفسي أو أكثر تناقضاً وصدامية معها. الأفكار التي اجتاحتني طوال الأسبوع لا زالت هي الأخرى تسكن بداخلي، وهي تضغط عليّ باتجاه الاستسلام لرجل كان افتراضياً وأصبح واقعياً، لرجل لا أعرفه ولكني بدأت أحبّه، لرجل مليء بالأفكار والمداعبات والطيش مثلي تماماً. دخلت إلى المقهى. كانت القاعة الداخلية واسعة وذات زوايا متعددة. نظرت في البداية إلى الكونتوار لاعتقادي أن الأميركان يشربون ويأكلون وهم واقفون. اجتزت الكونتوار إلى القاعة الداخلية، فإذا بي أرى رجلاً يجلس لوحده وهو يحدق في خلف الجدار الزجاجي في الشارع. لقد جلس مباشرة خلف الزجاج بالقرب من محطّة المترو. عرفت أن ذلك الرجل الوسيم لن يكون إلاّ «دوغ»، إذ كان قلق الانتظار واضحاً من خلال قضمه لأظفاره.

في تلك اللحظة، حدث شيء ما بداخلي. هزّة عنيفة كتلك التي تضرب أرجل المراهقات وهنّ يتقدمن لأول امتحان عاطفي. تمالكت قليلاً ثم اندفعت نحو دوغ. وتحت مظاهر الهدوء والانضباط وحماسة اللقاء

الأول، تعانقنا أنا ودوغ للحظات أحسست بعدها مباشرة بفراغ العبارات التي تبادلناها خلال نصف ساعة وكل منّا يرشف قهوته بانشغال شديد نحو الآخر لمعرفة ما سوف يحدث لكلينا، أو ما سوف نفعل بأنفسنا بعد اللقاء.

* * *

لم أتحدث كثيراً مع دوغ في لقاء الصباح. بدا لقائي به كأنه شبه ميت. وللتخفيف من وطأة ذلك الإحباط قلت لنفسي، ربما كان الجفاف مصدره المبالغة في التحكم في عواطفي. ولكني سأجعل من لقاء المساء مزهراً وطافحاً. في الصباح عرفت أن دوغ يدعى «دوغ جيفرسون» وهو من ولاية فلوريدا ومن مواليد منطقة «البالم بيتش» ذات الحافة الاستوائية. قال لي: «يجب ألاّ يخدعك اسمي. فأنا لا أنتمي إلى عائلة الرئيس الثالث للولايات المتحدة توماس جيفرسون. فهو من ولاية فيرجينيا، أما أنا فمن فلوريدا. وهو من أصول أوروبية، أما أنا فمن أصول كوبية. ولدت في منطقة التامبا على وجه التحديد. والدي كان تاجر أخشاب ما بين كوبا والبهاما وفلوريدا. وقد اختار السكن في ساحل التامبا بولاية فلوريدا قبل نجاح الثورة بقليل. وحين سيطر كاسترو على الجزيرة (كوبا) وبدأت مرحلة التأميمات، كان لا بد أن يصبح أميركياً. ولدت في عام الثورة من والدين كوبيين يتكلمان الإسبانية بطلاقة وبلكنة الجزر الكاريبية الممزوجة بموسيقى الكريول. فمن ناحيتي لم أكن أعرف كوبا، ولا أعرفها إلى الآن. فقد ولدت أميركياً، ووجدت نفسي مندمجاً بسهولة في الثقافة الأميركية لأن أميركا هي أرض للقاءات الغرباء بحق. وهي أرض الاختلاط العرقي بامتياز. كلنا متساوون من حيث المنشأ. كلّنا جئنا من

مكان ما. ثم كلنا تخلصنا من ذاكرة الأجداد المثقلة. وكلّنا ذاهبون إلى مكان ما».

في المساء، وجدت دوغ ينتظرني أمام باب الفندق. قفز بسرعة إلى داخل سيارتي. قبّلته ثم قلت له:

ـ سأتجول بك قليلاً في باريس ثم نذهب لنتعشّى في مطعم فرنسي شهير.

سألني دوغ حالما تحركنا باتجاه «السان جيرمان» عن شعوري وأنا ألقاه بعد زمن طويل؟ فوجدت صعوبة في إجابته ولكني مع ذلك قلت: الواقع هو أننا رأينا بعضنا بدرجة كافية قبل أن نلتقي. إنه شيء غريب أن نلتقي في الخيال أو على خطوط الإنترنت قبل أن نلتقي في الحياة. لقد قمت بتجوالي في مدن عديدة. ذهبنا معاً إلى هونغ كونغ والبندقية، وكلُّ واحد منا في مكانه. والآن ها أنني أتجول بك في شوارع باريس، وكل واحد منا في مكانه أيضاً.

ضحك دوغ، لا بل قهقه لفذلكتي. ثم قال:

ـ أتعنين، أننا نرحل فيما نحن جالسون؟

ـ هكذا.. سواء كان الأمر داخل الإنترنت أو داخل السيارة.

ـ ربّما. ولكن داخل الإنترنت يبقى السفر افتراضياً، أما داخل السيارة فهو واقعي. ألا تشعرين بأنني قريب منك يا إيزابيل؟!

ـ أنا أيضاً كنت قريبة منك في كل ليلة تقريباً.. على خطوط الإنترنت.

ـ هذا شيء جميل. ولكن أن تكوني قريبة منّي بهذا الشكل، فهذا قد يجعلني رجلاً آخر.

ـ لا يهمّ، ما دامت علاقتنا الواقعية لم تنضج بعد.

ـ ألا تعتقدين أنها ستنضج بسرعة؟ أم أنها لن تنضج أبداً؟

ـ لا أعرف. كل ما أعرفه أن علاقة قديمة قد انتهت بيننا هذا الصباح.

ـ ذلك هو ما قد ينبئنا بأن علاقة جديدة ستنضج قريباً.

كان واضحاً أن دوغ بدأ ينسج مناوراته للإيقاع بي. لم أشأ أن أجعل من مناوراته شيئاً تافهاً يقوم به كل الرجال تجاه النساء. ورغم أن مثل تلك الفنيات قد تبدو لي سخيفة، إلا أنها مع دوغ بدت لي بريئة وطافحة بالألفة والمحبة. إن أية تفاهات ينطق بها من نحب أو نعتقد أننا نحبهم، تسمو بنا وبأصحابها لتصبح في مستوى الفتنة.

كنت أشاغله بين الحين والآخر بالتحدث إليه عن باريس. جعلته في مرات قليلة يهتم بحديثي عن الحيّ اللاتيني وكنيسة نوتردام، لكنه كان دائماً مشغولاً بي أكثر مما كان منشغلاً بحديثي عن باريس. أثار إعجابه قوس النصر وأعجبته ساحة «الكونكورد» وشارع الشانزيليزيه كما عبّر عن ذلك بقوله «يا للعظمة!» أو «كم أنتم عاشقون للتاريخ!». لكنه لم يكن مهووساً كما هي حالة أغلب السياح الأميركان.

عند مطعم «لوبوا» الشهير الواقع على حافة البحيرة بغابة (بولونيا) أوقفت سيارتي. نزل دوغ أولاً ثم نزلت من بعده. كان معطفي لا يزال مفكوك الأزرار وهو يخفي من تحته تنورة حمراء وقميصاً أسود كانا قادرين على إظهار أنوثتي بالحدّ الذي لا أكون فيه مبالغة في ذلك. اقترب مني دوغ ليشد من أزرار معطفي، لكنني لم أتركه يفعل ذلك إذ عاجلته بالقول: «سأنزعه بعد خمس خطوات فقط».

فتح لنا النادل الباب الأول، ثم فتح لنا باباً ثانياً. قفز الميتر بابتسامة نحونا ثم قادنا إلى زاوية بعد أن سلّم معطفينا إلى سيّدة ما لبثت أن عادت إلينا لتسلّمنا كوبون الرقم. وجدنا أنفسنا على طاولة ملاصقة للشباك الزجاجي المحاذي للبحيرة، حيث بدا لنا وكأننا جلسنا داخل بركة مشعّة بالمياه والأنوار.

قال دوغ وقد رأى الميتر يتراجع، ليناولنا الكارت:

ـ الحنين إلى الريف ما زال قوياً لدى الفرنسيين. هكذا أشعر يا إيزابيل. ألست مخطئاً في ملاحظتي؟

لم أجبه عن ملاحظته وقد وجدتها قد تحولت إلى سؤال، فعاد يسألني:

ـ ألم تزوري أميركا؟

ـ نعم، أكثر من مرة.

ـ إلى أين ذهبت؟

ـ إلى نيويورك، وكاليفورنيا، وواشنطن. اكتفيت بزيارة الولايات الساحلية. لا أعرف لا مونتانا ولا داكوتا ولا حتى تكساس أو كولورادو.

كانت الانعكاسات الملونة والمتراقصة مع الأنوار فوق سطح البحيرة الملاصقة للنافذة الزجاجية تضفي على وجه دوغ مسحة من السحر والولع واللطف. رأيته في تلك اللحظة خالياً من كل الهموم كطفل كبير وناضج. كان لا يتوقف عن الكلام والأسئلة الصغيرة، وأظنه كان خجولاً بطبعه إلى حدّ أنه كان مضطراً لملء الفراغات بأي كلام. كان طافحاً بالأسئلة والملاحظات وحتى بالمشاغبات في بعض الأحيان. سمعته يقول لي: «إن نساء باريس أجمل من نساء أميركا». وسمعته يقول أيضاً:

«إن الفرنسيات أكثر أنوثة وانشراحاً». خطر ببالي أن أقول له شيئاً مشابهاً لكني لم أقله. وحيث إنني لم أقرّر بعد أن أنغمس معه في أحاديث مشوشة للأحاسيس ومستفزة لكيانينا العاطفيين، فقد رحت أشرح له ما تحتويه الأطباق التي طلبناها بكل عفوية. غير أنني لم أكن متأكدة من أنه مهتم بذلك. كان يردّد كلمات قصيرة مثل: «جيد. ممتع. لذيذ». لكنه لم يكن يعني ما يقول على ما أعتقد. بدا لي دوغ عاجزاً في تلك اللحظة عن الخروج من تلك الشرنقة التي وضع نفسه فيها. ثم بدا لي وكأنه متحرق للخروج من المطعم. لقد شرب كلّ ما تبقّى من النبيذ. تناول حتى ما تبقى في كأسي بدلال.. ثم جاءت القهوة فرشفها بقوة. رأيته في ذروة غليانه الهادئ. وطوال ساعتين لم نتحدث في أي موضوع بعمق. وجدت في لكنته الغليظة الصادرة من حلقه صعوبة في استيعابه، وفي مناقشته. كان جاداً إلى حدّ ما مثل أبناء جاليته الكورية. مظهره كان وقوراً أيضاً غير أنه جسده الشاهق والمتين كان يفتنني إلى أكثر من قطعة. اعترفت بيني وبين نفسي أنه جذاب رغم كل شيء. وأنه يحمل قلباً دافئاً. أما تجربته مع النساء فبدت لي متواضعة، أو هكذا تصورت.

وحتى لحظة خروجنا من مطعم «لوبوا» لم أكن قد أنجزت في مخيلتي صورة محددة عنه. لقد اختلط دوغ الذي عرفته على شاشة الإنترنت بدوغ الموجود إلى جانبي. فقدت فيه الخفة والمرح والعمق. ووجدت فيه شيئاً من الثقل أو حتى الابتذال. ومع ذلك فقد كان راسخاً في ذهني أن سأذهب معه بعيداً.

كان دوغ عبر الإنترنت رجلاً افتراضياً. كنت أعيش معه في زمن افتراضي حيث كل المغامرات وأنواع الجنون مباحة. عملنا معاً كثيراً

واستمتعنا بالتجوال معاً في أكثر من مكان. لا بل مارسنا الحبّ كما لم أمارسه في الواقع. كان ذلك يتيح لي تجاوز الحدود والتابوات على نحو زاوجت فيه بين المتخيل والمعاش، بين الحلم والواقع، وكذلك بين الفانتازم والفرجة، لا بل بين العقل والهذيان. ذلك الهذيان الجميل والفاتن والذي كان يجعلني مثل نهر خرج عن مجراه.

كانت الآفاق تفتح بسهولة على الأحاسيس والخيالات، وكذلك على أكثر المعاني الفلسفية غموضاً. بل كانت تتجاوز القواعد والأخلاق، والمستحيل وحتى حدود الحضارات. لم أكن مهتمة قط آنذاك بالبحث عما هو عقلاني وما هو سحري في دوغ. لقد اختلط عليّ العقلاني باللاعقلاني، والشرعي باللاشرعي، والحقيقي باللاحقيقي، حتى اندمجت معه كلياً لإنجاز ما هو مستحيل أو ممنوع في الواقع.. مثل السرعة القاتلة، والحروب المدمرة والألعاب الدنيئة، وكذلك العنف وكل أنواع الانتهاكات والمحرمات بما في ذلك الاغتصاب. أعترف الآن أنني كنت ولهانة ومستمتعة بانتهاكات دوغ. لقد اغتصبني أكثر من مرة.. وكان زوجي مارسيل يغط في النوم في الغرفة المجاورة للصالون. بعد ذلك أصبح يطلب مني أن أجعل مارسيل يشاهدني وأنا عارية أمام الشاشة. حصل ذلك حين اشتريت الموديم فيديو الذي مزج بين الافتراضي والواقعي والفرْجة، تماماً مثلما يحدث في الحياة. كان لكل منّا توأمه الآخر في ثلاثة أبعاد: الفرجوي، الواقعي والافتراضي.

كان دوغ قد بدا لي وأنا أدخل معه غرفة الفندق «رويال مونبارناس»، وكأنه رجل مستنسخ عن دوغ الذي همت به على شاشة الإنترنت لمدة تزيد على أربعة سنوات. بعد ذلك بلحظات أحسست أن الاندماج

الكلّي قد حدث بين الافتراضي والواقعي.. حين دخل إلى الحمام وناداني بصوت حنون وهو يدعوني إلى دش جماعي. تفتتت في الحين أنوثتي كما لو أنني من طين حقاً. لم يكن بإمكاني أن أقاوم أو اختبئ وراء أية حماقة أو سذاجة أو عناد. تبيّن لي فيما بعد أن دوغ ليس مبتذلاً إلى الحدّ الذي توقعته وإنما كان يريد أن يرفع الحواجز التي جعلتنا متكلسين عند عتبة الرغبة الملحاحة والفاترة في الآن نفسه. تحت الماء انبثقت الأعشاب من فضح البراءة المتعاونة مع الخجل.. ثم كان علينا أن نصبح جسدين موزعين بالتساوي بين الأنوثة والذكورة. وبين الواقع والافتراض. لا بل بين ما يجب أن يحدث بيننا في الواقع وبين ما حدث بيننا في الخيال.

كنت أفكر في العودة إلى بيتي وكذلك في ألا ألتقيه مرة ثانية بعد أن حدث ما حدث بيننا. كان رائعاً في الحبّ كما توقعت، مع أنني كنت مترددة في البداية. ولكنني كنت متمسكة بجوهري إلى حدّ أنني لم أكن مستعدة قط أن أصبح رهن إشارة دوغ الذي بدا لي وكأنه مسيح أو بوذا قد جاء ليجعلني أتحرك في فضاءاته وأدور في فلكه. آنذاك ارتدى دوغ بيجامته ثم جلس على حافة السرير لينتشلني من تلك الأفكار قائلاً:

- إيزابيل، هل تعرفين؟ لم يبق لي إلا يومان أقضيهما في باريس.
- وبعد ذلك؟
- سأسافر.
- إلى أين؟
- إلى الباكستان.
- هل لديك عشيقة هناك.. أم لديك عمل؟

ـ هناك سيكون لديّ عمل وعشيقة.

ـ لم أفهم.

ـ ستكونين أنت معي ليكون لدينا عمل مشترك. ما رأيك؟

هكذا وببساطة دفعني دوغ دفعاً إلى أبعد نقطة. لمست جديته في الموضوع.. وقلت في نفسي إن رجلاً مثل دوغ لا يمكن أن يعرّضني للخداع أو للسخرية.

كرّر عليّ اقتراحه على نحو آخر فقال: هل لديك ما تخشينه لو سافرنا معاً إلى الباكستان؟ كنت على وشك أن أسأله: لماذا الباكستان بالتحديد؟ لكني تراجعت عندما انشطرت إلى شخصين. فأنا كصحافية لا يمكن أن أرفض ذلك العرض، بل كنت أعدّ نفسي للسفر إلى أفغانستان فعلاً منذ اتصل بي صديقي سميح عبد الغفار قبل حوالى خمسة أيام ودعاني إلى قندهار للقاء شخص مهمّ قائلاً لي: «إنه سيمنحني تفوقاً في عالم الصحافة». أما كامرأة، فقد دهمني بسرعة خوف المرأة وشكها في نفسها عند كل منعطف ومهما كانت قوية أو تدعي القوة والجرأة. ولا شك أن قلبي خفق لاقتراح دوغ كما خفق لاقتراح سميح عبد الغفار وبالقوة نفسها، ولكنني كنت خائفة من الانصياع كما من الخيانة. وإذ تعادلت بداخلي كفتا حاجتي كأنثى إلى الانصياع والخيانة معاً، لاعتقادي أن ذلك ما يوحّد بين الحبّ والعمل وما يجعلني ناجحة في القبض على نفسي في آخر المطاف، فقد نطقت بما سوف أفعله فعلاً قائلة:

ـ لعلّك تريدني أن أذهب إلى قندهار؟

ـ ذلك ما سوف تقومين به فعلاً.

لم أتركه يشرح لي أكثر من ذلك. كنت تقريباً أقرأ أفكاره في عينيه المشعّتين. فقط قلت له:

ـ أنا ذاهبة إلى بيتي الآن. وغداً سنلتقي لنتحدث بالتفصيل.

وهو يودّعني باختلاس نظرات ثاقبة إلى جسمي الماكر والشاهق والمتشرّد.. لا شكّ أنه فكّر كيف استطاع أن يستولي عليّ روحاً وجسداً بهذه السرعة. ثم سمعته يقول لي:

ـ لقد بدأ موسم الصيد في قندهار، يا إيزابيل.

٣١

لمدة يومين، كنت مرتبكة. وفي الوقت نفسه كنت جذلى ويشعّ منّي نوع من البهاء الصاخب كما قال لي دوغ. دوغ الذي بدا لي منذ اليوم الثاني أنه يمتلك قدرة قاهرة على إبهاجي وإغضابي.. ثم على استعبادي. تذكرت كلّ شيء مرّ في حياتي من سفرات ومغامرات وحتى من أخطاء وسفالات صغيرة. بل تذكرت كل الرجال الذين ارتبطت بهم عاطفياً وجنسياً. تذكرت عبدالرحمن زوجي الأول، وجواشيم ساروت، والضابط رولان، والزميل عبدالجواد وزوجي الحالي مارسيل.. وجدت الأمر متعباً، بل ومحبطاً فأغلقت كتاب الذاكرة. كانت الموسيقى، موسيقى «موزارت»، وهي قطعة من سنفونية «هافنر»، تنبعث من زوايا عدة في «هُول» الفندق، وأنا جالسة في انتظار أن ينزل دوغ من غرفته. فبدت لي كما لو أنها عمل وداعي بالرغم من أنها سنفونية قوية لا تحمل أي ضعف أو حزن يدلّ على أن موزارت قد ألّفها قبل رحيله بقليل.

في ذلك المساء الخافت والهادئ، أحسست أنه لم يعد بداخلي أي بؤرة

نزاع. استنتجت أن الحياة الحقيقية هي أن نجني ثمار المخيلة.. وها أنني قد بدأت أفعل ذلك. لقد حزمت أمري تماماً للسفر. لم أخبر أحداً عن سفري ما عدا رئيس تحريري الذي قال لي إن الوزارة نصحتني بعدم الذهاب إلى أفغانستان. حتى زوجي لم أخبره بذلك لأنني كنت متأكدة من أنه سيحزن مرتين، مرة لأنه لا يستطيع أن يمنعني، ومرة لأنه سيظلّ قلقاً عليّ. وكان بإمكاني أن أخبر صديقتي أنطوانيت، لكنني ترددت في ذلك لاعتقادي بأنني قد أحدث فوضى بداخلها. وهكذا، وحالما نزل دوغ من غرفته وجلس إلى جانبي على الأريكة الجلدية المستطيلة داخل بار «لي برانس» حتى قلت له:

ـ لقد أخذت قراري. متى سنسافر معاً إلى إسلام آباد؟

وكأني لم أفلح في إثارة دوغ، لا بل لم أصعقه كما توقعت قبل قليل. ظل هادئاً ومملوءاً بالالتباسات. هاجمتني رغبة عارمة في الاستلقاء على موكيت تحت ركبتي دوغ. أعتقد أن ذلك هو العدم الذي يواجه امرأة تحترق مثلي حين تجد نفسها قد تناثرت كشظايا مطفأة. أعتقد كذلك أنني كنت أريد أن أنتقم من نفسي ولكن بلا خطة فنية جيدة. في تلك اللحظة الفارغة من المعنى.. في ذلك التلاشي اللامتناهي.. سمعت دوغ يقول لي بصوت مشدود إلى الموسيقى، ولكنه غير ممزوج بها:

ـ سنترافق إلى إسلام آباد. وبعد ذلك ستذهبين لوحدك إلى أفغانستان.

سألته ما إذا كان سينتظرني في باكستان حتى أعود من مهمّتي؟ فقال بسرعة:

ـ سأخبرك فيما بعد. ربما انتظرتك هناك.

رمقت دوغ بنظرة جارحة إذ وجدت في كلامه بعض الغموض وكذلك الاستعداد للتخلّي عنّي في أقصى نقطة في العالم. بل في أخطر نقطة في العالم. كان أمامي الليل كلّه لأسأله عن مزيد من التفاصيل أو حتى أجعله أكثر صراحة معي. ولكن دوغ، وكأنه شاء أن يؤثث تلك الليلة الأخيرة بالحبّ والرقص، رأى أن يوضح لي أشياء خطرت ببالي ولكنها لم تكن مدعمة أو واضحة. قال لي وهو يلاعب شعري: لديّ أشياء أريد أن أوضحها لك يا إيزابيل. كان من الممكن أن أحتفظ بها لنفسي لأنها تتعلق بسرّ المهنة، ولكن لأني أحبّك، فإني لا أقدر على خداعك.

بعد لحظة صمت، عاد دوغ يقول:

- لا شكّ أنك امرأة قوية وذكية، ثم إنك صحافية لامعة. وكنت أتوقع أنك تعرفين على الأقل ما هو العمل الذي أقوم به. غير أنني أجدك إما أنك ساذجة وإما أنك متصنعة للسذاجة.

تركت «دوغ» يتكلم بلا انقطاع حتى قال: «إن تأثيري عليك ومهما كان قوياً يجب أن لا يجردك من سلاح الذكاء. أنت لست خصماً لي. خصومي يوجدون في أفغانستان ولبنان وفلسطين وكشمير وإيران (...) هنا رأيت أن أسأله على نحو مباشر:

- هل أنت مناضل في الصليبيين الجدد؟
- لا، أنا مكافح للإرهاب.
- إذن أنت عميل سرّي في شعبة مكافحة الإرهاب؟
- وبالتحديد في مكافحة الإرهاب الجديد.

أضاف دوغ يقول لي: علينا أن نجعل من العالم أكثر أماناً لكي تبقى

أميركا في أمان. إن عملي هو أن أوفّر الأمن لبلادي.

ـ وهل كنت تعمل في هذا الميدان منذ سنوات؟

ـ بعد أن عرفتك بنحو سنتين. كنت مولعاً بالكومبيوتر، وكذلك بالرسم. فأنا في الأساس خريج كلية الفنون في «تالاهاسي». وفي إحدى المرات وجدت إعلاناً لتجنيد أشخاص موهوبين في جهاز مكافحة الإرهاب الجديد. بعد امتحان قاس جداً أصبحت أعمل داخل فرع «الهيومنت ـ HUMNIT»، وهو جهاز مكلّف بجمع المعلومات عبر عناصر إنسانية تتعلق بالأفراد والأحزاب والمنظمات والتجمعات.

لم أشأ أن ألقي بمزيد من الأسئلة على دوغ. فقد تلاحقت اعترافاته كطلقات ساخنة ومخدرة. وجدته صريحاً معي وواثقاً منّي إلى حدّ كدت فيه ألاّ أصدق شيئاً مما كان يقول لي. أوضح لي، وأظنّ أنه كان يطمئنني، بأنه لا يسعى إلى تجنيدي للعمل معه وإنما فقط يريدني أن أساعده في بعض الأشياء البسيطة التي لا يمكن أن تقوم بها إلاّ امرأة مثلي وتعمل في ميدان الصحافة. وقبل أن نغلق ذلك الملف الصاخب، سألته:

ـ هل تبحث عن شيء محدّد في أفغانستان؟

ـ إننا نبحث عن «بقّة».

ـ ماذا تعني «بالبقة».

ـ سلاح مجهري مجهول.

ـ ولكنني لست خبيرة أسلحة يا دوغ.

ـ هذا السلاح لا يوجد في الثكنات، وإنما يوجد في جيب سترة رجل.

- ومن يكون هذا الرجل؟
- إنه أمير عربي يدعى «أبو يحيى الأنصاري».

كان الانحراف نحو الخيانة، خيانة ذاتي وخيانة مهنتي قد بدأ يعتريني كأنثى في تلك اللحظة. وجدته أمراً ضرورياً للتخلّص من الالتزامات الثقيلة. رأيت أن القدرة على الخيانة هي القدرة على الحبّ المتجدد. لم أكن متأكدة قط أن بمقدوري أن أخون، ولكنني كنت مصرّة على أن أجرّب، فأي امرأة لم تعرف الخيانة ولو للحظة، عاشت حياتها كتعاسة متلاحقة!!

وحين عانقت دوغ في «الديسكو» على أنغام موسيقى «السلو»، تذكرت زوجي الأول عبدالرحمن. لا أدري كيف حضر طيفه في تلك اللحظة ليخترق جسدينا مثل سكّين تغوص في قطعة من الجبنة. كان جسدي المتملّص والمراوغ والذي كلّما اقترب منه رجل صار ملكاً له، يعانق دوغ، غير أنه كان يفكر بل يسبح في ملكوت عبدالرحمن.

كان عبدالرحمن كثيراً ما يقول لي كلّما شدّته اللهفة نحوي: «أنا باحث عن صيد كبير في هذه الغابة الكثيفة». وفي أحد الأيام، خرج ولم يعد..

مؤلفاته

مثلث الشياطين الاستوائي، دار «كل العرب» ـ باريس، ١٩٨٧.

سنوات المتاهة: الحرب والسلام على مذبح القرن الـ ٢١، دار نقوش عربية ـ تونس، ١٩٩٤.

حمى ٤٢: لا أنبياء ولا شياطين، مكتبة بيسان ـ بيروت، ١٩٩٥.

العتبات المدنسة في الشرق الأوسط، مكتبة بيسان ـ بيروت، ١٩٩٧.

كازينو (رواية)، دار الملتقى ـ بيروت، ٢٠٠٠.

بورقيبة: سيرة شبه محرّمة، شركة رياض الريّس للكتب والنشر ـ بيروت، ٢٠٠٠.

عودة الزمن الإمبراطوري، دار الملتقى ـ بيروت، ٢٠٠١.

المعالجة وتخفيض الحجم
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

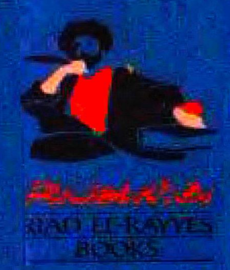
شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

الصافي سعيد

حدائق الله

ولو كان من الممكن الآن أن أحصي تلك العلاقات التي نسجت نفسها من حولي وكنت أنا محورها لفعلت ذلك. ومع ذلك أجد من المجدي دائماً أن أذكّر نفسي بأن علاقتي بزوجتي الأولى إيزابيل كانت بالمصادفة. التقيتها في المترو ذات صباح وهي ذاهبة إلى الجامعة. كانت تقرأ بنهم رواية «ليون الأفريقي» لأمين معلوف. ولاعتقادي بأنها تحمل فكرة جيدة عن تلاقح الثقافات والأديان، انتزعتها من صفحات الكتاب ثم دخلت معها في نقاش ساخن وجميل حتى جعلتها ناضجة. ثم استمرت لقاءاتنا. كما أن علاقتي بيزيد رضوان الذي أرسلني إلى السودان كانت نتيجة مصادفة حين رآني مستغرقاً في مناقشة مع إمام جامع «الدعوة». ثم إن بدء علاقتي بتومرت الذي قدّم لي أبا عمر اليمني في معسكر أبي ذرّ الغفاري كان تقريباً بالمصادفة. وها أن لقائي بالدكتور نجيب وزوجته السيدة ريمان كان أيضاً على طريق المصادفة. ولكن يجب أن أضيف إلى ما اعتقده مصادفة، هي تلك القدرة العجيبة التي أملكها تحت لساني لأسر كل من يتحدث إليّ.




ISBN 9953-21-076-4
9 789953 210766


روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية